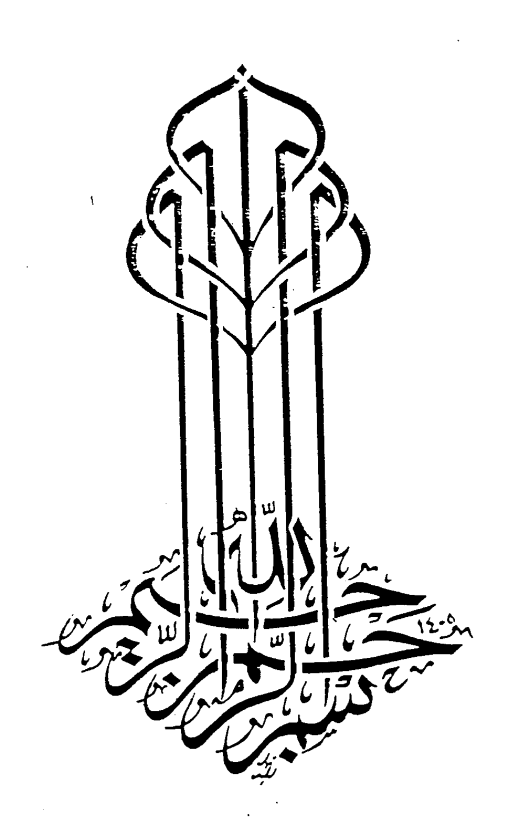
قراءة جديدة
في
نصوص قديمة

دكتور
زكريا عبد المجيد النوتي

الطبعة الأولى
٢٠٠٦م



مقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، والصلاة والسلام على النبي المصطفى ، وعلى آله وصحبه ومن اتبعه واقتفى .

وبعد ..

فهذه دراسات لنصوص قديمة بعضها جاهلي ، وبعضها إسلامي ، وبعضها عباسي .

أما الجاهلي والإسلامي منها فقد كانت لنا معه وقفات ، حاولنا من خلالها أن نقرأه قراءة جديدة ، أو بالأحرى نستكشف لآلئه ، ونفكك غوامضه ، ونستشرف ما وراء الألفاظ والعبارات .

ذلك أن الشعر القديم حمّال أوجه ، فقد أرى فيه ما لا تراه أنت ، ويراه ثالث غير ما نراه ، ويكتشف فيه ما لا نكتشفه .

فالقدماء ـ جزاهم الله خيرا ـ قرأوا هذا الشعر ، ووقفوا عند تفسير الألفاظ لغويا ، وشرحوا بعض الأبيات شرحا ظاهريا موجزا .. وبناء على ذلك لاحظوا افتقاد القصائد القديمة الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية .. ورأوا في الوقوف على الأطلال بقايا آثار المحبوبة ، وتذكروا الأيام الخوالي في هذه الأماكن ... إلخ .

وأن أسماء النساء الواردة في الشعر إما أن تكون لمحبوبة الشاعر ، أو امرأته .

وجاء النقد الحديث ، وأنفق جهدا كبيرا في سبيل تفسير النصوص تفسيرا جديدا لا يقف عند ظاهر الألفاظ ، وإنما يغوص ويتعمق فيما وراء الألفاظ ، وما تنطوي عليه العبارات والجمل من رموز وإشارات لم يبح بها الشاعر بوحاً ، وإنما تركها للمتلقي ليكشفها بطريقته .

فوقف عند أسماء النساء ، ولاحظ تكرار أسماء بعينها ، ونظر إلى السياق الوارد فيه هذه الأسماء ، وراح يفسرها بناء على قرائن وعلاقات .

وقد تكون هناك قرائن تمنع من أن تكون هذه الأسماء لنساء بعينهن ، وإنما هي رموز يفسرها النص كله ، وتفرض هذا التفسير ظروف وملابسات محيطة بالنص .

خذ مثلا قصيدة طرفة ـ المعلقة ـ التي ذهب النقاد في تفسيرها إلى أن « خَوْلة » هي محبوبة طرفة ، وهي ابنة عمه ... إلخ ، ثم اقرأ القصيدة كاملة بعد ، تجد انفصاماً بين مقاطع القصيدة لو أخذنا بهذا التفسير .. مما دفعهم إلى القول بأن القصيدة إنما نظمت على مراحل .

وهذا غير مقبول .

فحين نقرأ القصيدة قراءة متأنية تجدها تمرداً ، وخروجاً على تقاليد وأعراف القبيلة ، وفيها حِكَم لا تصدر إلا عن مجرّب خبير ، عرك الحياة وعركته ، مع أنه ابن العشرين .

وفيها ـ كذلك ـ حديث عن الموت الذي يحيط برقبة طرفة ، تجده في قوله :

لَعمْرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكالطول المرخَى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوما يقُدْه لحتفه
ومن يك في حبل المنية ينقد [1]

---

(١) راجع كتابنا : تمرد طرفة .

ومثل هذا يقال في معلقة زهير بني أبي سلمى .. فَمَن « أمُّ أوفى » تلك التي وقف على أطلالها ؟ ولماذا آثر هذا الاسم على ما عداه ؟ أيكون الشاعر رامزاً بذلك إلى « الوفاء » المفقود والمرجو في آن ؟ مفقود عند أفراد القبيلتين المتحاربَتَيْن ، وموجود ومرجو في ذينك الساعيين بالسلام ـ هرم بن سنان والحارث بن عوف ـ ؟ .

ولم لا ؟ .

يقول الناقد كمال أبو ديب (١) : « لقد درجت الدراسات التقليدية على قراءة النص قراءة خطية ، وافتراض أنه يمثل تجربة في الواقع ، أي مجموعة من الأحداث الفعلية التي يعيد الشاعر صياغتها في كلمات ، وأن الوقوف على الأطلال والرحلة تجارب في الواقع ، دون وعي لوجود مستويات زمنية مختلفة ، تنتمي إليها هذه التجارب ، وبالتالي دون تساؤل عن الوظيفة العميقة لها .

أما القراءة الجديدة فهي قراءة إشارية ، أي أنها تعتبر تجربة الأطلال والرحلة ، وغيرهما تجارب تخيلية ، يستخدمها الشاعر لأنها ذات طاقات رمزية عميقة ، ولأنها غنية إيحائيا ، قادرة على استثارة مجموعة من التصورات والمواقف والانفعالات ، يحركها النص من أجل تشكيل بنية كلية يكون لها فيه وظيفة جوهرية ... » .

ومثل هذا يقال في قصيدة ابنه كعب ... فـ« سعاد » لا يمكن أبدا أن تكون محبوبة للشاعر .. وإنما لها تفسيرات أخرى .

فالشعر القديم ـ والجاهلي منه خاصة ـ ليس ساذجا بسيطا كما ذهب إلى ذلك كثير من قرائه (٢) .

---

(١) الرؤى المقنعة ٦١١ .

(٢) راجع كتابنا : تمرد طرفة .

« والفن عامة ـ والشعر خاصة ـ لا يقصدان إلى تصوير الحياة كما هي في حقيقتها تصويرا فوتوغرافيا ، أو بمعنى آخر : غاية الفن ليست نقل الواقع كما هو في ذاته ، ولكن رؤية هذا الواقع الشعري من خلال الواقع الحقيقي » [(١)] .

« وأروع ما في الفن أنه يقول شيئا لا تقوله الحياة ، ويرسم باللون أو بالكلمة ، أو حتى بالحجر نور المعرفة » [(٢)] .

على ضوء ذلك كانت قراءتنا لهذه النصوص التي بين يديك .

فكانت لامية العرب للشنفرى ، وقرأناها في ضوء تمرده ورفضه .

ثم بردة كعب بن زهير التي هي وحدة واحدة ، وقد حاولنا تفسير « سعاد » بما يتفق وظروف القصيدة .

وقرأنا قصيدة أبي ذؤيب بمقاطعها الأربعة في إطار وحدة القصيدة كذلك .

وقصيدة ابن الرومي كأبرز قصائد الرثاء بعامة في رثاء ابنه الأوسط محمد .

وفي النثر : كانت خطبة حجة الوداع للنبي ﷺ كنموذج للبيان النبوي ، ووثيقة لحقوق الإنسان ، ومنهاج ودستور للمسلمين أجمعين .

ثم كانت دراسة لفن المقامات عند بديع الزمان الهمذاني ، واخترنا المقامة البغدادية نموذجا لها .

وقد كانت هذه الدراسة في أساسها محاضرات لطلاب الدراسات العليا في قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بالقاهرة ـ جامعة

---

(١) الشعر الجاهلي .. قضاياه الفنية والموضوعية ٢٥٨ ، د. إبراهيم عبد الرحمن .
(٢) الأساطير ، د. أحمد كمال زكي ، المقدمة .

الأزهر ، استطعنا أن نسجل منها ما ضم بعض هذا الكتاب ، ولضيق الوقت لم نستطع تسجيل كلاالقصائد .. ومنها :

معلقة زهير ، فقد سودت فيها صفحات ، ولكن الدراسة لم تتم بعد ، وكذا ميمية المتنبي ـ على قدر أهل العزم ـ .

وعسى أن يكون إتمام ذلك قريبا .

والله ولي التوفيق .

دكتورزكريا النوتي

القاهرة ١/ ٩/ ٢٠٠٦

أولا : الشعر :

- ١ -

لامية العرب للشنفرى

قراءة فى شعر التمرد

الشاعـــر*

هو ثابت بن أوس، أو الشنفرى بن الأواس، أحد صـــعاليك العصـــر الجاهلى وأشهرهم.. فالشنفرى اسم، أو لقب غلب عليه لضخامة شفتيه. وهو من قبيلة الأزد.. شاعر جاهلى صعلوك فارس فاتك. نشأ فى غير قومه -بنى سلامان- ثم خرج عليهم وتصعلك، وأخذ يغير على بنى سلامان خاصة. وقد قتل منهم مائة رجل انتقاماً لنفسه، ربما من ذل عاناه فى الإقامة بيـــنهم، أو احتقار لشأنه وخداع له من فتاة تدعى (قعسوس) أحبها، وتعلق بها.. أو حيل بينه وبينها[1].

ومثل هذه الشخصية تعلق بها الأساطير، فقد ذكروا أنه أقسم ليقـــتلن مائة رجل من سلامان، وأنه قتل تسعة وتسعين رجلا، ولم يتمكن من قتل ما يكمل به المائة، حيث أمسكوا به وقتلوه، لكن رجلا من بنى سلامان مر بـــه بعد عام من قتله، فضرب عظم رأسه برجله، فأصابته فمات.. فكملت المائة.

اللاميـــة

تعد لامية العرب من عيون الشعر العربى بعامة وشعر الصـــعاليك بخاصة،.. ويبدو أن إطلاق اسم اللامية عليها كـــان فـــى القـــرن الخـــامس الهجرى، حين أنشأ الطغرائى قصيدته المسماة بلامية العجم[2] التى مطلعها:

أصالة الرأى صانتنى عن الخطـــل   وحليـــة الفضل زانتنى لدى العطـــل

ولامية العرب فى ثمانية وستين بيتا، وقد تصـــدى لهـــا اللغويـــون والعلماء بالشرح وعنوا بها عناية فائقة، فمن هؤلاء: المبـــرد والزمخشـــرى وابن زاكور وعطاء الله المصرى.. وغيرهم.

(*) ترجمته وأخباره فى : الأغانى ٢١/١٩٧-١٩٥، سمط اللآلى ٤١٣ وغيرهما.

(١) الأغانى ٢١/١٦٤.

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى كتاب شاعر الصعاليك د/ عبدالحليم حفنى صـــ١٠٢ وما بعدها.

وتتميز اللامية - وشعر الصعاليك عموما- بأنها تمثل حياة الإنسان نفسه، ولا تعنى بالآخرين، الذين انفصمت العلاقات بينه وبينهم، مما جعل كارل بروكلمان يقول: "أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل، وعلى حين يجعل الشاعر الجاهلى وصف الطبيعة من الجبال والفيافى وغيرها غرضا مقصودا لذاته، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصوير الإنسان نفسه وأعماله، وإذا فليس هناك ما يحملنا على موافقة الذين افترضوا لهذه القصيدة اللامية بين قصائد الشعر الجاهلى شاعراً آخر غير الشنفرى الذى رويت له القصيدة"(١).

يمكننا أن نقول: إن الشاعر الجاهلى كان يوظف وصف الناقة والفرس ليصل إلى الغاية وهى وصف الطبيعة، بينما الشنفرى يجعل غايته تصوير ذاته، ويوظف لذلك ما يستطيع من وصف حيوان، وليل، ... إلخ..

إن "إجماع القدماء على تسمية هذا النص الشعرى بلامية العرب شهادة فى ذاته على رأيهم فى حسن تمثيله لأجود خصائص النص الشعرى الجميل، وشهادة فى الوقت ذاته على جريان هذا النص على ألسنة العرب جميعا، بعيدا عن الخصائص القبلية والطائفية، التى كانت تجعل من بعض النصوص أكثر تمثيلا لهذا الطائفة من تلك، أو أكثر رواية على ألسنة قبائل بعينها دون سواها، بل وأحيانا أكثر احتمالا لانتحالها من فريق من العرب لترجح بها كفتهم الأدبية على منافسيهم، لكن نص الشنفرى الأزدى حمل نسبته إلى العرب جميعا، أكثر من نسبته حتى إلى صاحبه نفسه..." (٢).

---

(١) تاريخ الأدب العربى حـ١/ ١٠٦، ١٠٧.
(٢) متعة تذوق الشعر د/ أحمد درويش صـ٩- دار غريب – القاهرة.

النص*

١-أقيمــوا بنى أمــى صــدور مطيكــم	فإنــى إلــى قــوم سواكــم لأميــل[١]
٢-فقد حمت الحاجــات والليــل مقمــر	وشــدت لطيــات مطايــا وأرحــل[٢]
٣-وفى الأرض منأى للكريــم عن الأذى	وفيها لمن خــاف القلــى متعــزل[٣]
٤-لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ	سرى راغباً أو راهباً وهــو يعقــل[٤]
٥-ولى دونكــم أهلــون: سيــدعملــس	وأرقـــط زهلــول وعرفاء جيــأل[٥]

* النص من بلوغ الأرب فى شرح لامية العرب/ دار الحديث- مصر، بشرح الزمخشرى والمبرد وابن زاكور وابن عطاء الله.

(١) ب١ أقيموا صدور مطيكم: أى هيئوا مطاياكم للرحيل، أما مراده: فأفيقوا من غفلتكم عنى، وترك مناصرتكم لى، وهذا مثل يضرب لكل من ينبــه علــى الخير، بعد غفلته عنه، وأصله: أن ينام الراكب على مطيته فيضل عن الطريق، فيقال له: أقم صدر مطيتك أى انتبه واسلك الطريق. أميل: أى مائل إليهم.

(٢) ب٢ حمت الحاجات: قدرت، والحاجات: أى الحاجات المقتضــية لترحلــه عنهم. وشدت: هيئت. لطيات: جمع طية وهى الحاجة، وقيل: هى كالنيات لفظاً ومعنى، أو المنــزل الذى سينــزله. وأرحل: جمع رحل وهو ما يوضع على ظهر البعير كالقتب.

(٣) ب٣ منأى: مكان بعيد. الكريم: العزيز. القلى: البغض والكراهية. متعــزل: مكان منعزل عن الناس. وفى رواية (متحول) أى مكان ينتقل إليه.

(٤) ب٤ العمر :الحياة والبقاء. لعمرك: أى أقسم بحياتك. ضيق: هو ضد الســعة، وأراد به موضع الذل منها، أى ليس فى جميع جهاتها، بل فى البعض القليــل منها دون الكثير. سرى: سار ليلا. راغبا: أى محبا للسير ليلا، راغبا فيــه أى عن محبة واختيار. أو راهبا: أى عن كراهة واضطرار وخوف. وهو يعقــل: أى فاهم مدرك لما يرغب فيه أو يرهب منه. أى أن ذا العقــل يســتطيع أن يطرد ضيقه بحكمته وحسن تدبيره.

(٥) ب٥ أهلون: جمع أهل، وأهل الرجل عشيرته وذوو قرباه. السيد: اسم مــن أسماء الذئب. عملس: خفيف سريع، وقيل: هو الخبيــث مــن الــذئاب. والأرقط: النمر، سمى بذلك لرقطته وهو سواد مشــوب بــنقط بيضــاء. والزهلول: الأملس. العرفاء: الضبع. سميت بذلك لأن لها عرفا- أى شــعرا طويلاً على رقبتها. جيأل: من أسماء الضبع.

٦- هـــم الأهــل، لا مستــودع الســر ذائع لديهم، ولا الجانى بما جر يخــذل[١]

٧-وكــل أبـــى باســـل غيــر أنتـــى إذا عرضت أولـــى الطرائــد أبسل[٢]

٨-وإن مــدت الأيــدى إلى الزاد لم أكن بأعجلهــم إذ أجشــع القوم أعجــل[٣]

٩-ومــا ذاك إلا بسطـــة عــن تفضــل عليهــم وكـــان الأفضــل المتفضل[٤]

---

(١) ب٦ هم: أى هؤلاء الحيوانات، عبر عنهم بضمير العقـــلاء لأنهـــم فى نظـــره بمترلتهم، بل أفضل منهم. الأهل: أى الذين يقومون بوظيفة الأهل ويقومون بواجبهم ولا يتخلون عنى. مستودع السر: أى السر الذى اســـتودع عنـــد شخص فجعل وديعة لأنه طلب إليه كتمانه. ذائع: منتشر ظـــاهر. الجـــانى: مرتكب الجناية من إتلاف نفس أو عضو أو مال. جر جريرة: جنى جنايـــة. يخذل: يتخلى عن نصرته بل يسلمونه إلى المجنى عليه.

(٢) ب٧ الأبى: الذى يأبى الذل ويمتنع من الضيم، وهو الحمى الأنف. الباســـل: أصله: الكريه الوجه عند القتال، وهو الشجاع البطل. عرضـــت: ظهـــرت. الطرائد: جمع طريدة- بمعنى مطرودة- وهى الخيل الـــتى تريـــد طـــرده، أو الفريسة التى تطارد، أو الخيل التى يطردها فرسان أخر. أبسل: أشجع.

(٣) ب٨ بأعجلهم: أى بأسبقهم إلى الطعام. أجشع القوم أعجل: الجشع هو أشد الحرص وأسوأه، بأن يأخذ الإنسان نصيبه، وعينه فى نصيب غيره. والمعنى: أن أشد الناس حرصا على الطعام لشدة نهمه أشد عجلا إلى مد اليد إلى الزاد.

(٤) ب٩ ذاك: إشارة إلى أخلاقه وأخلاقهم. بسطة: سماحة وسعة فى الكرم. عـــن تفضل: أى ناشئة عن إحسان منى إليهم. وكان الأفضل المتفضل: أى الأفضل هو المتفضل فعلا، لا من يدعى ذلك كلاما.

١٠- وإنى كفـاني فقد من ليـس جازيا	بحسنـى ولا فـى قربـه متعلـل[١]
١١-ثـلاثـة أصحـاب: فـؤاد مشيـع	وأبيـض إصليت وصفراء عيطـل[٢]
١٢-هتـوف من الملـس المتون يزينها	رصائـع قد نيطـت إليها ومحمـل[٣]
١٣-إذا زل عنها السهـم حنـت كأنهـا	مـرزأة عجلـى تـرن وتعـول[٤]
١٤-ولسـت بمهيـاف يعشـى سوامـه	مجدعـة سقبانهـا وهـى بهـل[٥]

---

(١) ب١٠ كفاني فقد من ليس جازيا بحسنى: أى اعتضت عن فقد من لا يجازى عـن الحسنة.. يقصد قومه.. أى هؤلاء أناس يستوى عندهم المحسن ومن ليس محسنا، فهم لا يكافئون ذوى الإحسان، ولا يقدرون المعروف. ولا فى قربـه متعلـل: التعلل: التلهى بالشئ، والمتعلل: هو الشئ الذى يتعلل به ويكتفى من النفع.

(٢) ب١١ ثلاثة أصحاب: لى فيها الغنى عن قومى فى دفع الملمات، ونفى المكاره عنى. فؤاد: قلب. مشيع: شجاع مقدام قوى على المكاره، كأنه فى شيعة وأتباع، أو هو مشيع بقوة أودعها الله فيه. أبيض إصليت: سيف أبيض لصفاء جوهره، إصليت: مجرد عن غمده. وصفراء: أى قوس صفراء. عيطل: طويلة العنق تامة.قال المـبرد: ولا أعلم أحدا وصف القوس بهذه الصفة غيره.

(٣) ب١٢هتوف: أى ذات صوت شديد كأنها رجل يهتف ويصيح، قال المبرد: وهى مـن عود أملس لم تكثر أغصانه. الملس: التى لا عقد فيها. المتون: الصـلبة. أو الظهـور. يزينها: يفيدها حسنا عرضيا زيادة على حسنها الذاتى. رصائع: جمع رصيعة وهى مـا يحلى به، أو هى خرز نيطت عليها لئلا تصيبها العين. نيطت إليها: علقت تلك الرصائع على تلك القوس. محمل: ما تحمل به كمحمل السيف وغيره.

(٤) ب١٣ زل السهم: خرج منها. حنت: صوتت. مرزأة: أى كثيرة الرزايا والمصائب. أى أن هذه القوس كثيرة التصويت لكثرة الرمى عنها. عجلى: مسرعة فهى كالواله مـن النساء تفقد ولدها. ترن: تصوت وتصيح. تعول:ترفع صوتها مما بها من الحزن.

(٥) ب١٤ المهياف: الذى يبعد بإبله طلب الرعى على غير علم، فيعطشها، ويمسى بها. يعشى سوامه: يرعى إبله ليلا ويمشى بها ويلبسها ظلام الليل. والسوام: ما رعـى من الإبل. مجدعة: سيئة الغذاء. السقبان: الذكور من ولد الناقة. البهل: جمع باهل وهى الناقة التى تترك بدون راع أو تترك بدون صرار فى ضرعها. والصرار إنمـا يوضع لمنع ولدها من الرضاع. فالباهل لا صرار عليها.

١٥-ولاجبأ أكهى مرب بعرسه	يطالعها فى شأنه كيف يفعل[١]
١٦-ولا خرق هيق كأن فؤاده	يظل به المكاء يعلو ويسفل[٢]
١٧-ولا خالف دراية متغزل	يروح ويغدو داهناً يتكحل[٣]
١٨-ولست بعل شره دون خيره	ألف إذا ما رعته اهتاج أعزل[٤]

---

(١) ب١٥ جبأ: جبان. أكهى: أبجر، أو سيئ الخلق الذى لا خير فيه، وهو البليد، والضعيف. مرب بعرسه: مقيم مع امرأته ملازم لها. يطالعها فى شأنه: أى لا يفعل شيئا إلا بمشورتها.

(٢) ب١٦ الخرق: المضطرب الخائف، أو الحيى، هيف: ظليم أى ذكر النعام، أى لست كالظليم يفر عند حدوث ما يروع. ومعلوم ما لذكر النعام من سرعة عند خوفه. المكاء: نوع من الطير جبان، يضرب به المثل فى الجبن فيقال: أجبن من صافر. يعلو ويسفل: يرتفع تارة وينخفض أخرى.

(٣) ب١٧ الخالف : الفاسد، الذى لا خير فيه، المتخلف عن الخير. دراية: الدارى هو المقيم فى داره لا يفارقها. أو هو الذى يكثر الأدوار -الختل- لغيره. وقيل: الدارى العطار، ويجوز أن يكون مراده هذا، لأن العطار يكتسب من ريح عطره، فيصير بمنزلة المتعطر، فكأنه أراد أن يقول: لست ممن يتشاغل بتطييب بدنه وثوبه، أو يكتسب من طيب حليلته لملازمته لها. قاله الزمخشرى. متغزل: يغازل النساء إذ يتخلف عن أصحابه ويخلفهم فى أهاليهم بالريبة، لا يفارق البيوت لذلك يغازل النساء. رائح: غاد متطيب مكتحل يستميل بذلك النساء.

(٤) ب١٨ عل: العل هو القراد، حشرة صغيرة. وهو أيضا: الرجل المسن الصغير الجثة الذى يشبه القراد فى دقة جسمه. وقيل: هو من يزور النساء كثيرا فيتخلق بأخلاقهن فيكثر شره ويقل خيره. ألف: الألف العيى بطئ الكلام، وهو أيضاً العاجز الثقيل البطئ عن القرى والحرب. إذا ما رعته: إذا ما أخفته. اهتاج: أسرع فى حمق واضطراب. أعزل: لا سلاح معه.

١٩-ولست بمحيار الظــلام إذا انتحــت   هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل[١]

٢٠-إذا الأمعز الصــوان لاقى مناسمــى   تطــايــر منـــه قـــادح ومفلـــل[٢]

٢١- أديــم مطـــال الجـــوع حتـــى أميته   وأضـــرب عنه الذكر صفحاً فأذهل[٣]

٢٢-وأستف ترب الأرض كيلا يـــرى له   على مـــن الطـــول امـــرؤ متطـــول[٤]

٢٣-ولولا اجتناب الـــذأم لم يلف مشرب   يعـــاش بـــه إلا لـــدى ومأكـــل[٥]

٢٤-ولكن نفســاً مـــرة لا تقيـــم بـــى   علـــى الـــذأم إلا ريثمـــا أتحـــول[٦]

---

(١) ب١٩ محيار: كثير الحيرة والدهشة. انتحت: قصدت واعترضت. الهدى: الرشـــاد والدلالة. والمراد هنا الطريق. الهوجل: الرجل الطويل الذى فيه تسرع وحمق، وهو أيضا البليد. العسيف الذى يكثر منه قطع المفاوز. يهماء: فلاة لا يهتـــدى فيهـــا للطريق ولا يستطيع المار فيها دفع تحيره بها. هوجل: صحراء صعبة المسلك. لأنه لا معالم تهدى بها.

(٢) ب٢٠ الأمعز: المكان الصلب الكثير الحصى. الصوان: الحجارة الملس. والتقدير: الأمعز ذو الصوان. المناسم: جمع منسم وهى فى الأصل من الإبل كالسنابل من الخيـــل -أى أخفاف البعير-، فاستعملها فى الأقدام من الآدميين على طريق الاستعارة. قادح: مـــا يخرج منه النار من الحصى. مفلل: مكسر.

(٣) ب٢١ أديم: أطيل وأكثر.. مطال: مأخوذ من المماطلة، وهى امتداد المدة حتى أميته: إلى أن أميته، أو كى أميته حتى يكون حال خلو المعدة من الطعام كحال امتلائهـــا منـــه. وأضرب عنه الذكر صفحا: أى أعرض عنه.

(٤) ب٢٢ أستف: أتناول بفمى: ترب الأرض: ترابها: الطول: المنة والإحســـان. متطـــول: متفضل ممتن.

(٥) ب٢٣ الذأم: العيب. يلف: يوجد. مشرب: مشروب. يعاش به: يعيش به إنسان. مأكل: مأكول يعاش به.

(٦) ب٢٤ مرة: صعبة أبيه وفى رواية (حرة) لا تقيم بى على الذام: أى لا تقـــيمنى ولا تساعدنى عليه، أو لا تقيم وأنا معها عليه، بل كلانا يتحول عنه. ريثما أتحول: أى قدر تحولى عن العيب حين يصيبنى بحيث لا أدوم عليه، ولا أتخذه مذهبا.

٢٥-وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت	خيوطة ماري تغار وتفتل[١]
٢٦- وأعدو على القوت الزهيد كما عدا	أزل تهاداه التنائف أطحل[٢]
٢٧-غدا طاوياً يستعرض الريح هافيا	يخوت بأذناب الشعاب ويعسل[٣]
٢٨-فلما لواه القوت من حيث أمه	دعا فأجابته نظائر نحل[٤]

(١) ب٢٥ أطوى: أعصب. الخمص: -بضم الخاء- ضمور البطن، وبفتح الخاء: الجوع. الحوايا: الأمعاء التي تحوت أى استدارت. خيوطة: الخيوط. ماري: اسم رجل معروف بفتل الحبال وصناعتها، وقيل: هو فاتل الحبال بعامة. تغار: يحكم فتلها. والأصل: تفتل وتغار.

(٢)ب٢٦ أعدو: أجد، وأصل العدو: شدة السير، وهناك رواية أخرى بالغين المعجمة (أغدو) من الغدو، وبالتالى تكون رواية البيت التالى (غدا طاويا). القوت الزهيد: الرزق القليل اليسير الذى من شأنه أن يزهد فيه ويرغب عنه لقلته. وقيل: هو ما يمسك الرمق. الأزل: الذئب الجائع، وقيل هو خفيف الوركين والسمع. تماداه: تترامى به. التنائف: جمع تنوفة وهى المفازة. أطحل: لونه أحمر يضرب إلى السواد، وقيل: لونه بين الغبرة والبياض.

(٣) ب٢٧ غدا: أى الأزل. طاويا: أى صابرا على الجوع، كأنه طوى أحشاءه على الجوع. يستعرض الريح: أى يسير جهة هبوبها، وهو أصعب السير لوجود عائق. وفى رواية: (يعارض) وفى أخرى (يفتن). هافيا: أى يذهب مسرعا يمينا وشمالا من شدة الجوع. يخوت: أى يسمع صوت انقضاضه. بأذناب الشعاب: أى أواخرها. والشعب: الطريق فى الجبل. ويعسل: أى يمر مرا سريعا.

(٤) ب٢٨ لواه القوت: دفعه. من حيث أمه: أى من المكان الذى قصده فيه. نظائر نحل: أى ذئاب مثله ضوامر مهازيل، أى: أنه لما عز عليه القوت طلبه عند غيره فوجد حاله كحاله فى الهزال من الجوع.

٢٩-مهللـــة شيـب الوجـوه كأنهـا	قـداح بكفـى ياسـر تتقلقـل[(١)]
٣٠- أو الخشرم المبعوث حثحث دبـره	محـابيض أرساهن سـام معسـل[(٢)]
٣١- مهرتـة فـوه كـأن شـدوقهـا	شقـوق العصـى كالحـات وبسل[(٣)]
٣٢- فضـج وضجـت بالبـراح كأنهـا	وإيـاه نـوح فـوق عليـاء ثكـل[(٤)]
٣٣- وأغضـى وأغضت، وابسى وابست به	مراميـل عزاهـا وعزتـه مرمـل[(٥)]

---

(١) ب٢٩ مهللة: أى دقيقة الجسم كأنها أهلة. وفى رواية (مهلهلة) شـيب الوجـوه: يقال: إن وجوه الذئاب ترى كأنها شيب سيما فى حالة المجاعة. قداح: جمع قدح، والمراد قداح الميسر. ياسر: ضارب القداح. تتقلقل: أى تضطرب وتتحرك. والمعنى لما دعا الأزل أجابته النظائر على هذا الحال، فلشدة حالها تمشى مضطربة.

(٢) ب٣٠ الخشرم: رئيس النحل. المبعوث: المهاج والمنبعث فى السير. حثحـث: أى حث وحض. دبره: جماعة النحل، أو هى واحدة النحل كتمر وتمرة. محـابيض: جمع محبض، وقيل جمع محابض. والمحبض: خشبة يستخرج المشتار بها العسل مـن كوته. وقيل: عود يكون مع مشتار العسل يثير به النحل. أرساهن: أثبتهن. سام: مرتفع، لأن من شأن النحل أن يعسل بمكان سام ممتنع. معسل: طالب العسل.

(٣)ب٣١ مهرتة فوه:: أى مشقوقة الفم شقا واسعا فهى مفتوحة الأفواه. شـدوقها: أفواهها، وخص شقوق العصى لأنها فى غاية الاتساع. كالحات: عابسات. بسل: كريهات المنظر.

(٤) ب٣٢ فضج: أى ضجر ذلك الأزل. وضجت: أى نظائره من الذئاب. بالبراح: أى بالمفازة الواسعة، أو الأرض الواسعة التى لا زرع فيها ولا شجر. نوح: جمع نائح ونائحة، ويجوز أن تكون مصدراً ووصف به للمبالغة. علياء: مرتفعة. ثكل : جمع ثكلى، وهى المرأة الحزينة على فقد ولدها أو زوجها.

(٥) ب٣٣: أغضى: أى الأزل. وأغضت: أى النظائر، أى صبر كل منهما على فقـد القوت صبرا جميلا بعد كمال الجد فى تحصيله. ابسى وابست بـه، وفى روايـة: (اتسى واتست به) وفى رواية (وأتسى وائتست به) وكلاهما بمعنى، أى تأسى كل منهما بالآخر، الأزل والنظائر فى الصبر على المجاعة عند فقد القوت. مراميل: جمع مرملة، وهى فى الأصل: المرأة التى لا زاد معها، وأراد بها تلك النظائر التى لا قوت لها. عزاها: أى حمل تلك النظائر المراميل على الصبر.

٣٤-شكا وشكت،ثم ارعوى بعد وارعوت ‏ وللصبــر إن لم ينفع الشكو أجمــل[١]

٣٥- وفــاء وفــاءت بــادرات وكلهــا ‏ علــى نكــظ ممــا يكاتــم مجمــل[٢]

٣٦- وتشــرب أسآرى القطا الكدر بعدما ‏ ســرت قربــا أحناؤهــا تتصلصــل[٣]

٣٧-هممت وهمــت، وابتــدرنا وأسدلت ‏ وشمــر منــا فــارط متمهــل[٤]

٣٨-فوليــت عنهــا، وهى تكبو لعقــره ‏ يباشره منهــا ذقــون وحوصــل[٥]

---

(١) ب٣٤ شكا: أى الذئب للذئاب عند اجتماعهم ما يجده من الجوع والخيبة فى الطلــب، وشكت هي ذلك. ثم ارعوى: أى رجع عن الشكوى.

(٢) ب٣٥ فاء: أى رجع ذلك الأزل إلى مأواه بعد أن لم يجد قوتا. بــادرات: ســريعات. وكلها: أى كل فريق من فريقى الأزل والنظائر. نكظ: شدة الجوع. ممــا يكــاتم: أى يكتم ويخفى. مجمل: آت بصبر جميل.

(٣) الأسآر: بقية الشراب فى قعر الإناء، واحده سؤر. القطا: اسم لجنس من الطير واحدتــه قطاه. الكدر: جمع أكدر وكدراء: أى المتغيرة بلون التراب. بعدما سرت: أى ســارت ليلاً لطلب الماء. قربا: سيرا إلى الماء بينها وبينه ليلة. الأحناء: جمع حنو وهو الجانــب. تتصلصل: أى تصوت ليبسها من شدة العطش، ومنه الصلصال للفخار، لأنه يصــوت ليبسه. وفى رواية (وأشرب أسآر القطا...)
وقد رجحها ابن زاكور وقال عن الرواية المشهورة: ووقع فى هذا البيت تصحيف فيمــا بيدى من نسخ القصيدة، فكتب (وتشرب) بالتاء الموهمة أن الفعل للذئاب مع أنه لــه، وذلك يقتضى أن يكتب بالهمزة، ويدل لهذا قوله: (البيت بعده).

(٤) ب٣٧: همت: عزمت على المسير إلى الورود. وهمت أى القطا بذلك أيضا لعجز عرض لكل واحد منا لطول المسافة. وابتدرنا: أى انتدب كل واحد منا إلى المسير بعد ذلــك لداعى شدة العطش. وأسدلت: أى أرخت القطا أجنحتها وتراخت عــن فى المســير لكمال عجزها. وشمر: أى أسرع واجتهد. فارط. متقدم للورود. متمهــل: متــرو فى طلب الورود، وآخذ فى السير على بصيرة.

(٥)ب٣٨ فوليت عنها: أى القطا، قال ابن زاكور: أى لتشرب قبله، ويريد بــذلك أنــه لم يزاحمها، و لم ينفرها مع قدرته على ذلك عملا على ما تقتضيه مكارم الأخلاق .. هذا على رواية (وأشرب) بالهمزة. تكبو: تتساقط. العقر: مقام الساقى من الحوض يكــون فيه ماء يتساقط من الماء عند أخذه من الحوض. يباشره: يتصل به، وفى رواية (يناشره) أى ينشر عليه. منها: من القطا. ذقونه: جمع ذقن وهو من الحيوان موضع اللحية مــن الإنسان. أى ما تحت حلقومها وحلوقها. حوصل: موضع الطعام والشراب من الطائر بمنــزلة البطن من الإنسان.

٣٩-كـأن وغاهـا حجرتيـه وحولـه أضاميـم من سفـر القبائـل نـزل[١]

٤٠-توافيـن من شتـى إليـه فضمهـا كما ضـم أذواد الأصاريـم منهـل[٢]

٤١-فعبـت غشاشـا ثم مـرت كأنهـا مـع الصبح ركب من أحاظة مجفل[٣]

٤٢-وآلـف وجه الأرض عند افتراشها بأهـدأ تنبيـه سناسـن قحـل[٤]

---

(١) ب٣٩ وغاها: صوتها. حجرتاه: ناحيتاه أى الماء. أضاميم: جمع إضمامة وهم القوم ينضم بعضهم إلى بعض فى السفر. سفر: مسافرون. نزل: نازلون.

(٢)ب٤٠ توافين: أتين وتوافدن وتجمعن- يقصد القطا. من شتى: مـن أمـاكن مختلفة وجهات متفرقة. فضمها: أى جمع ذلك الحوض تلـك القطـا، أى اجتمعت من أجل وروده. أذواد: جمع ذود وهو من الإبل ما بـين الثلاثـة والعشرة، أو إلى الخمسة عشر، ... الأصاريم: جمع أصرام وهو جمع صـرم: القطعة من الإبل نحو الثلاثين. المنهل: الماء الذى يورد فتنهل منه.

(٣)ب٤١ عبت: العب شرب الماء من غير مص كأنه يصـب صـبا فى الحلـق، ويسمى أيضا الجرع. وفى الحديث (مصوا الماء ولا تعبوه عبا، فإن الكباد من العب). غشاشا: أى على عجلة، وقيل: القليل مع العجلـة. ثم مـرت: أى صدرت القطا عن الورود. مع الصبح. أى مع طلوع الفجر. الركب: راكبو الإبل. أحاظة: قبيلة من اليمن أو فرع من الأزد، وهى مشهورة بسرعة السير وقيل هى مدينة باليمن، أو أرض هناك. مجفل: منـزعج مسرع.

(٤)ب٤٢ آلف: من الإلف والتعود والملاءمة. عند افتراشها: أى عند اتخاذها فراشا بالاضطجاع عليها من غير حائل بينهما. أهدأ: من الهـدوء وهـو شـديد الثبات. تنبيه: ترفعه وتبعده وتجفيه. السناسن: جمع سنسن وسنسـنة وهـى حروف فقار الظهر هنا. قحل: يابسة جافة.

٤٣ -وأعدل منحوضـا كـأن فصوصـه	كعـاب دحاهـا لاعب فهـى مثـل[1]
٤٤ -فـإن تبتئس بالشنفرى أم قسطـل	لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطـول[2]
٤٥ -طريـد جنايـات تياسـرن لحمـه	عقيـرتـه لأيهـا حـم أول[3]
٤٦ - تنـام إذا ما نـام يقظـى عيونهـا	حثاثـا إلى مكـروهـه تتغلغـل[4]
٤٧ -وإلـف همـوم، ما تـزال تعـوده	عيـادا كحمى الربع أو هى أثقـل[5]
٤٨ - إذا وردت أصـدرتهـا، ثم إنهـا	تثوب فتأتـى من تحيت ومن عل[6]

---

(١)ب٤٣ أعدل: أتوسد ذراعا، أو أسوى تحت رأسى ذراعا. والمنحوض: قليل اللحم الضعيف يقصد ذراعه. فصوصه: مفاصل عظامه. كعاب: جمع كعب، وهو ما يلعب به من العظام. دحاها: بسطها وسواها. مثل: منتصبة.

(٢) ب٤٤ تبتئس: تحزن وتكره. أم قسطل: الحرب سميت بذلك لأنها تثير القسطل وهو الغبار. اغتبطت: سعدت وفرحت.

(٣) ب٤٥ طريد: مبعد مطرود. جنايات: غارات أو التعدى على ما للغير من نفس أو مال. تياسرن: اقتسمن. عقيرته: لحمه أو نفسه أوجثته. حم : نزل وقدر ووقع.

(٤) ب٤٦ تنام : أى تلك الجنايات والمقصود أربابها الموتورون. حثاثا: أى سراعا أو مسرعة فى طلبه. مكروهه: ما يكره الشنفرى من القتل. تتغلغل: تدخل فى طلب مكروهه بمبالغة.

(٥) ب٤٧ إلف هموم: أى معتاد على الهموم فكأنها ألفته وأحبته. تعوده: ملازمة العود له أى الزيارة. حمى الربع: هى التى تأتى يوماً وتقلع يومين، وتأتى فى الرابع، وخصها بالذكر لكثرة دورها وبطء انتقالها بخلاف حمى الورد والغب. أو هى أثقل: أى بل هى أثقل وأشد من حمى الربع. وحديثه عن الهموم.

(٦)ب٤٨ وردت: أى حضرت تلك الهموم. أصدرتها: أى أبعدتها كما تصدر الماشية عن الماء. تثوب – أو تئوب- أى ترجع.

٤٩- فإما تريني كابنة الرمل ضاحيا على رقة أحفى ولا أتنعل[1]

٥٠- فإني لمولى الصبر، أجتاب بزه على مثل قلب السمع والحزم أنعل[2]

٥١- وأعدم أحيانا وأغنى، وإنما ينال الغنى ذو البعدة المتبذل[3]

٥٢- فلا جزع من خلة متكشف ولا مرح تحت الغنى أتخيل[4]

٥٣-ولا تزدهي الأجهال حلمي، ولا أرى سؤولا بأعقاب الأقاويل أنمل[5]

---

(١) ب٤٩ ابنة الرمل: الحية، وقيل: هي البقرة الوحشية. وقيل : بنات الرمل الحيات وما أشبهها من سواكن الرمل. ضاحيا: بارزا للحر والقر. على رقة: رقة حال، أو هزال. ويروى (دقة) أي هزال. أحفى: أي أمشي حافياً بدون نعل في قدمي. لا أتنعل: لا ألبس نعلا.

(٢) ب٥٠ مولى الصبر: وليه القائم به وصاحبه ومالكه. أجتاب: ألبس أو أقطع. البز: قيل السلاح، وقيل الثياب. السمع: ولد الذئب من الضبع، يضرب به المثل في شدة السمع. الحزم: ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة. أنعل: أتخذه نعلا. وفي رواية (أفعل) أي أبني أفعالي على الحزم والاحتياط.

(٣) ب٥١ أعدم: أفتقر. أحيانا: أي في أوقات قليلة. ذو البعدة: ذو الهمة العالية. المتبذل: أي الذي يذل نفسه ويهينها. أو بمعنى الذي يبذل جهده ويسعى ويكد في سبيل الغنى.

(٤) ب٥٢ الجزع: المتضجر فاقد البصر. الخلة: الحاجة والفقر. متكشف: يطلع الناس على خفي أمره من فقر وحاجة. مرح: بطر، يخرج على ما تقتضيه النعم من الشكر عليها لعدم احتمال النفس لذلك. وقيل: مرح: معجب بنفسه. تحت الغنى: أي حال حصوله وتحققه. أتخيل : أتيه على الناس وأتكبر.

(٥) ب٥٣ تزدهي: تستخف. الأجهال: جمع جهل على شذوذ، والقياس: جهول وهو الحمق والسفاهة والمراد أربابها. حلمي : عقلي. السؤول: كثير السؤال. أعقاب الأقاويل: أطراف الأحاديث. أنمل: أنم، ورجل نملة أي نمام.

٥٤-ولَيلـــة نحس يصطلى القوس ربها	وأقطعــه اللاتــى بهــــا يتنبــــل[١]
٥٥-دعست على غطش وبغش وصحبتى	سعــار، وإرزيـــز، ووجــر، وأفكل[٢]
٥٦-فأيمــت نســوانــا، وأيتمــت إلـــدة	وعدت كمــا أبــدأت والليـــل أليــل[٣]
٥٧-وأصبــح عنى بالغميصــاء جالســا	فريقـــان: مسئـــول، وآخـــر يسأل[٤]
٥٨-فقالــوا: لقد هــرت بليــل كلابــنا	فقلنا: أذئب عس أم عــس فرعــل[٥]
٥٩-فلــم تــك إلا نبــأة ثــم هــومــت	فقلنا: قطاة ريــع أم ريـــع أجــدل[٦]

(١) ب٥٤ النحس: ضد السعد، والنحس: البرد. يصطلى: يستدفئ، ويصــطلى القوس: يوقدها ليستدفئ بنارها من شدة البرد، قال المــبرد: وإذا اصــطلى الأعرابى قوسه فليس وراء ذلك فى الشدة شئ. أقطع: جمع قطع وهو السهم القصير العريض النصل. يتنبل: يختار لرميه.

(٢) ب٥٥ دعست: دفعت بشدة وإسراع وسرت للإغارة على أعدائى. والدعس الطعن والوطء. غطش: ظلمة. بغش: مطر خفيف. صــحبتى: أصــحابى. سعار: حر يجده الإنسان فى جوفه من شدة الجوع والبرد. إرزيز: هو إما من الارتزاز وهو الثبوت وطول القعود، يريد أنه يجمد فى مكانه من شدة البرد. وإما من الرز وهو صوت أحشائه من الشدة. وجر: شدة خــوف. أفكــل: رعدة شديدة.

(٣) ب٥٦ أيمت نسوانا: صيرهن أرامل بقتل أزواجهن وأبنائهن. وأيتمت إلـــدة. أى أولادا صغارا بقتل آبائهم. والإلدة: الأولاد. عدت: رجعت. كما أبدأت. كما ذهبت لم يعرض لى شئ من المكروهات. أليل: ثابت الظلمــة مســتحكمها، لم يشبه شئ من ضياء الصباح. يقال: ليل أليل، ويوم أيوم، ونهار أنهر، وشهر أشهر، ودهر أدهر وذلك من العرب إذا أرادوا وصف الشئ بالتمام.

(٤) ب٥٧ الغميصاء: موضع بنجد. الجلس: اسم لبلاد نجد. وجالس: آت إلى نجد.

(٥) ب٥٨ هرت: نبحت، وقيل: الهرير صوت أضعف من النباح وذلك لقلة صبره على البرد. عس: طاف ليلا، ومنه العسس وهم عساكر الأمن الذين يجوبون الشوارع ليلا. فرعل: ولد الضبع.

(٦) ب٥٩ نبأة: صوت. هومت: نامت.. أى الكلاب سكتت فلم تــنبح. ريـــع: أى مروعة. أجدل: صقر، سمى أجدل لجدالته وقوته. وقوله (قطاة ريـــع) لم يؤنــث الفعل إما حملاً للقطاة على الجنس، فكأنه قال: طائر ريع، وإما على الشذوذ.

٦٠-فإن يك من جن لأبـــرح طـــارقـــا وإن يـــك إنسا ماكها الإنس يفعـــل[1]

٦١-ويوم من الشعرى يـــذوب لوابـــه أفاعيـــه فـــى رمضائـــه تتململ[2]

٦٢-نصبـــت لـــه وجهى ولا كن دونه ولا ستـــر إلا الأتحمـــى المرعبـــل[3]

٦٣-وضاف إذا هبت له الريح طيـــرت لبائـــد عـــن أعطافـــه ما ترجـــل[4]

٦٤-بعيد بمس الدهـــن والقلـــى عهده له عبـــس عاف مـــن الغسل محول[5]

---

(١) ب٦٠ فإن يك: أى ذلك الطارق المريع. لأبرح طارقا: أى أعظم طارقا وأكـــرم. والبرحاء: الداهية. والطارق: الآتى ليلا. ما تفعل: أى ما عهدناهم يفعلون مثـــل هذا الفعل.

(٢) الشعرى: الكوكب الذى يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه فى شدة الحر. يذوب: ينماع. لؤاب اليوم: لعابه وهو ما يرى فيه عند الهاجرة متدليا فى الجو كخيوط العنكبوت، ويسمى السراب. أفاعيه: ثعابينه. رمضائه: أى فى شدة حر ذلك اليـــوم الشـــبيه برمضاء النار. تتملل: تضطرب وتتحرك.

(٣) ب٦٢ نصبت له وجهى: أقمته فى مواجهته وعرضته. الكن: الستر، جمعه أكنـــان. وكننت الشئ: سترته وصنته من الشمس. الأتحمى: نوع من الملابس كالبردة وهو منسوب إلى أتحم، بليدة باليمن. المرعبل: المقطع الممزق المنخرق.

(٤)ب٦٣ الضافى: السابغ. يقصد شعره السابغ الطويل.. أى أنه لا يحميه من الحـــر إلا البردة والشعر الطويل. اللبائد: جمع لبيدة، وهو ما تلبد من شعره والتصق بعضـــه ببعض لأنه لا يرجله ولا يعتنى به. الأعطاف: الجوانب. يرجل: يسرح.

(٥) ب٦٤ بعيد بمس الدهن: أى لم يعرف الدهن منذ زمن بعيـــد. الفلـــى: إخـــراج الحشرات من الشعر. له : لذلك الشعر. عبس: ما يتعلق بأذناب الإبل من أبوالها وأبعارها من الأوضار فيجف عليها. عاف: كثير، أو متروك على حاله حتى عفى أى كثر وطال من تراكم بعض على بعض. الغسل: ما يغسل به الرأس. محـــول: أتى عليه الحول.

٦٥-وخرق كظهـر التـرس قفر قطعته	بعاملتيـن ظهـره ليـس يعمـل[1]
٦٦-فألحقـت أولاه بأخـراه موفيـا	علـى قنـة أقعـى مرارا وأمثل[2]
٦٧-تـرود الأراوى الصحم حولى كأنها	عذارى عليهـن المـلاء المذيـل[3]
٦٨- ويركـدن بالآصـال حولـى كأننـا	من العصم أدفى ينتحى الكيح أعقل[4]

---

(١) الخرق: الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح، لخلوها من البناء والشجر، كظهر الترس: أى مستوية، والترس: المجن الذى يتقى به فى الحروب من الطعن والضرب. قطعته: أى خرجت منه وخلفته وراء ظهرى بالسير. عاملتين: رجلين، سميتا بذلك لأنهما يعملان فى المشى. ظهره ليس يعمل: أى لا يسلكه أحد ولا يمشى فيه لصعوبته من جهة، وخطـر أمره من جهة أخرى، فهو متروك غير مطروق.

(٢) ب٦٦ فى رواية فألحقت أخراه بأولاه، والمعنى: جمعت بين أوله وآخره بسيرى فيه، والضمير يعود إلى الخرق. والمقصود أنه لشدة عدوه وسرعته لم يترك مدة بين أوله وآخره أى قطعه فى وقت قصير جدا. موفيا على قنة: أى مشرفا على قمة جبل. والقنة: أعلى الجبل. أقعى: الإقعاء : القعود على الركبتين وباطن الفخذين كقعدة الكلب والسبع. وقيل: هو الجلوس على إليتيه ناصبا فخذيه كأنه متساند إلى مـا وراءه. وأمثل: أنتصب واقفا. قال المبرد: وإنما يقعى ويمثل لأنه مرتبئ مرتقب ليرى من يطلع عليه، فيغير عليه. قال ابن زاكور: يقعى إذا خاف أن يفطن له ويعلـم بمكانه، وينتصب إذا أمن من ذلك ليشرف على من تحته ليرصده للغارة إن أمكنته فرصة انتهزها.

(٣) ب٦٧ ترود: تذهب وتجئ. الأراوى: جمع أروية وهى العنـز البرية أنثى التـيس الوحشى. الصحم: جمع أصحم وصحماء وهى الوعول السود التى يضرب لونهـا إلى الصفرة، وقيل سواد إلى حمرة، ولعله الأصوب. العذارى: جمع عذراء وهـى البكر. الملاء: ضرب من الثياب، أو الملاحف. المذيل: أى ذوات الأذيال الضاربة إلى الأرض، وأفرد المذيل حملا للملاء على الجنس.

(٤) ب٦٨ يركدن: يثبتن ولا يتحركن. الآصال: جمع أصيل وهو الوقت من العصر إلى المغرب. حولى: من جميع جوانبى. كأننى من العصم: أى كأننى صرت واحداً منها لأنها ألفته وألفها. والعصم: جمع أعصم وهو الذى فى موضع العصم منه بيـاض. الأدفى: الوعل الذى طال قرناه حتى انحيا ناحيتى ظهره. ينتحى: يعتمد ويقصـد. الكيح: سفح الجبل وجانبه. الأعقل: أى فى لونه بياض موضع العقـال. أو هـو الذى يحل أعاقل الجبال ويمتنع بها فلا يوصل إليه.

التحليـــــل

(وفى الأرض منأى) التحول إلى عالم أفضل :

١-أقيمــوا بنى أمى صــدور مطيكــم	فإنـــى إلــى قوم سواكــم لأميــل
٢-فقد حمت الحاجات والليــل مقمــر	وشــدت لطيــات مطايــا وأرحــل
٣-وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى	وفيها لمن خــاف القلــى متعــزل
٤-لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ	سرى راغباً أو راهباً وهــو يعقــل

بدأ الشاعر حديثه بمطالبة القوم (بنى أمه) أن يقيموا صدور مطيهم، لأنـــه سيرحل عنهم، فقد استبدل بهم قوما آخرين.. وكان مقتضى ذلك أن يكون هو مـــن يقيم صدور المطايا، لأنه هو الراحل، وليس القوم.

لكنه ربما يشير إلى انعكاس الأوضاع، وانقلاب الموازين، وأنه هو الأحرى بالإقامة، وهم أولى بالرحيل.

أو ربما رأى نفسه وهو بينهم عاملا مهما فى قرارهم، وركنا ركينـــا فـــى أمنهم، فلما رحل عنهم اضطروا إلى الرحيل، أو كما قال المتنبى لسيف الدولة:

إذا تــرحلــت عــن قــوم وقد قــدروا	**ألا تفــارقهــم فالــراحلـــون هــم**

ولكن: لماذا خاطب بنى الأم؟

- هل لأنه متمرد على التقاليد والأعراف القبلية، فلم يتغن بآبائه كما فعلوا؟ أم أن هناك غمزا فى نسبه؟
- أم لأن الأم رمز الحنان والدفء، وهى القلب الكبير، وقد افتقد الشاعر ذلك كله فى ظل القبيلة؟
- أم لأن مسألة الأنساب هذه كانت السبب وراء الطبقية السائدة فى القبيلـــة، وقد عانى منها الشنفرى؟
- كل ذلك وارد..

وعلى كل فقد اتخذ الشاعر قراره بالرحيل، وهو ماض في ذلك، حيث وجد البديل عن الأهل..

وإذا كان شعراء الجاهلية يدعون الخليل والصاحب إلى التبصر- إعمال البصر والبصيرة- فإن الشنفرى يخاطب بنى الأم مخالفا شعراء القبائل، داعيا القوم إلى الإفاقة والنهوض.

لقد تهيأت له دواعى الرحيل، وها هو القمر ينير له الطريق، والمطايا أعدت وهيئت..

(والليل المقمر) هنا فيه "طاقة رمزية خصبة، يتواشج فيها الضوء والظلام، الظلام الذى يكتنف علاقة الشاعر بقومه، ويخيم عليها، وضوء الهداية والرشاد - لنقل ضوء العقل - الذى يشق هذه الظلمة الداجية، ويبدد بعضها، فتظهر الأمور على حقيقتها، أو قريبا منها... (فقد حمت الحاجات والليل مقمر). وما على الشاعر إلا أن يستضئ بهذا النور، ويدعو قومه إلى الاستضاءة به كيلا يبقى لهم عذر. ولكن دعوته تضيع فى فجاج الليل كما يضيع الصوت فى الصحراء..."[1]، وما داموا لم يستجيبوا فليستضئ هو...

ثم يشير إلى سبب رحيله عنهم، وبغضه لهم، إنه الأذى الذى لاقاه بينهم، والبغض والكراهية التى فرقتهم... فما الذى يجبره على الإقامة فى هذا المكان؟

إن أرض الله واسعة، وفيها ملجأ وملاذ للأباة رافضى الذل والهوان.. وهذا المعنى تناوله كثير من الشعراء، قال المتلمس[2]:

إن الهوان حمار الحى يعرفه	**والحر ينكره والرسلة الأجد**
ولن يقيم على خسف يراد به	**إلا الأذلان : عير الحى والوتد**
هذا على الخسف مربوط برمته	**وذا يشج فما يرثى له أحد**
وفى البلاد إذا ما خفت نائرة	**مشهورة عن ولاة السوء مبتعد**

(١) شعرنا القديم والنقد الجديد ٢٦٣.

(٢) ديوان المتلمس ١٩٥ تحقيق فولرس – ليبزك ١٩٠٣.

وقال عبد قيس بن خفاف البرجمى[1]:

واتــرك محــل الســوء لا تحلــل به	**وإذا نبـــا بــك منـــزل فتحـــول**
دار الهــــوان لمــــن رآهـــا داره	**أفــراحــل عنهـا كمـــن لم يــرحل**

وفى الذكر الحكيم **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾** (النساء /٩٧)

لقد تبين للشنفرى جليا أن هذا القرار بالرحيل هو عين الصواب، وكل من يعمل عقله سيرى رأيه، وينتهى إلى نتيجته.. وكأنه سرى-فعلا- بالليل المقمر، وها هو عند الصباح يحمد السرى، ويأمل أن يفعل كل أبى فعله...

(أهلون جدد) ومؤهلات الأهلية فيهم:

٥-ولـــى دونكـــم أهلون: سيـــدعملس	**وأرقــــط زهلـــــول وعرفاء جيأل**
٦- هــــم الأهــــل، لا مستـــودع السر	**ذائع لديهم،ولا الجانى بما جــر يخذل**
٧-وكــل أبــــى باســـل غيــر أننـــى	**إذا عرضت أولى الطرائـــد أبسل**

إن هؤلاء الأهلين الجدد حيوانات وحشية (سيدعملس، أرقط زهلول، عرفاء جيأل) أى ذئب، ونمر، وضبع.. هذا هو مجتمعه الجديد الذى اختاره بديلا عن قومه وآثره عليهم فى الصحبة.. فما مؤهلات هذا المجتمع؟

أهم هذه المؤهلات :

١- عدم إذاعة الأسرار، فإذا استودعتهم سرا كتموه، ولم يفضحوا سرك أو يكشفوا سترك.

---

(١) المفضليات رقم ١١٦ صـ٣٨٥، وانظر كتابنا: مصرع فارس فى بلاد الغربة- الفصل الأول.

٢- لا يخذلون الجانى بجناية ارتكبها فيسلمونه إلى أعدائه، ويخذلونه، ويتخلون عنه.

٣- أن فيهم شجاعة وبسالة، وكل واحد منهم حمى الأنف، لا يضـــام، شـــديد الشكيمة، لا يرام بهوان.

وقد يظن ظان أن اختياره لهذه الحيوانات إنهما هو لإعجابه بشجاعتهم التى يتفوقون بها عليه، ومن ثم راح يحترس ويدفع هذا الظن، مبينا أنـــه أبســـل منهـــا وأشجع.

ويرى يوسف اليوسف أن الشنفرى "يصر على تنصيب ذاته فوق الآخرين، وحين أنكرت عليه الجماعة هذه الرغبة فقد حققها فى المجتمـــع الـــوهمى (البيـــت السابع) مما يشير إلى نرجسية متضخمة لدى الشاعر"[١].

ويبدو أن الشنفرى كان يشن غارات على القبائل، فسبب ذلك لقبيلته متاعب ومشكلات، وقد تكرر ذلك منه، وأصر على ذلك، مما دفعهم إلى خذلانه والتخلـــى عنه.. وربما كان قد أسر إلى بعض أبناء القبيلة بأنه هو صاحب تلـــك الغـــارات، فأفشى سره..

قيم إنسانية وخلقية رفيعة :

٨-وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن	**بـــأعجلهـــم إذ أجشـــع القوم أعجـــل**
٩-ومـــا ذاك إلا بسطة عـــن تفضل	**عليهـــم وكـــان الأفضـــل المتفضـــل**
١٠-وإنى كفانى فقد من ليس جازيا	**بحسنـــــى ولا فـــى قـــربـــه متعـــلل**

أخذ الشنفرى فى عد بعض صفاته، وكان من أولاها: القناعة وعدم الجشع والنهم، فحين يجتمع مع آخرين على طعام لم يكن أول من يمد يده، فلا يسابق على المائدة.

---

(١) مقالات فى الشعر الجاهلى ٢١٤.

وهذا النفى يوحى من طرف خفى بأن القوم كانوا يتصفون بالنهم والجشع، ويتسابقون إلى الطعام، وينقضون عليه انقضاضا، وكأنهم فى مباراة.

وقد كان تمسكه بهذا الخلق طلبا لمكانة رفيعة بينهم، ومقام كـــريم فـــيهم، وتفضلا عليهم.

ثم يؤكد ما ذهبنا إليه من أن القوم كانت أخلاقهم سيئة، ولذلك فهو لا يبكى على فراقهم، ولا يأسى للرحيل عنهم، إنهم قوم لا خير فـــيهم، فهـــم لا يجـــازون بالإحسان إحسانا، وليس فى القرب منهم خير يرجى، أو نفع يؤمل.

رفقـــاء الرحلـــة :

١١-ثـــلاثـــة أصحاب: فـــؤاد مشيـــع   وأبيـــض إصليت وصفراء عيطـــل

١٢-هتوف من الملس المتون يزينها   رصائـــع قد نيطـــت إليها ومحمـــل

١٣-إذا زل عنها السهـــم حنـــت كأنها   مـــــرزأة عجلـــى تـــرن وتعـــول

اصطحب الشنفرى معه فى رحلته ثلاثة أصحاب:

١- قلب قوى حديدى، كأن صاحبه -وهو وحده- فى جـــيش كبيـــر، وشـــيعة عظيمة.

٢- سيف صارم مسلول، مجرد من غمده، منصلت، أبيض..

٣- وقوس طويلة عظيمة، دقيقة الصنع، صفراء.

هذه الثلاثة فى حقيقتها إن هى إلا الشنفرى نفسه، فالقلب قلبه، وما الســـيف بدون حامله؟ وما القوس بعيدة عن باريها؟ وها هو باريها.

إذا هو يرى نفسه أمة وحده، لا يخشى الغوائل، ويستطيع الذود عن نفسه، وحمايتها دون حاجة لأحد، فقلبه وسيفه وقوسه تكفيه.

والمعنى متداول بين الشعراء، يقول أميرهم:

أيقتلنـــى والمشـــرفـــى مضاجعـــى   ومسنونـــة زرق كأنيـــاب أغـــوال

ومالك بن الريب لا يبكيه سوى سيفه ورمحه وحصانه:

تذكرت من يبكي على فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر خنذيذ يجر عنانه إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

وشاعر العربية العظيم يقول :

يذم لمهجتي ربي وسيفي إذا احتاج الوحيد إلى الذمام

لماذا خص القوس بعنايته؟

لقد أعطى الشنفرى القوس ما لم يعطه السيف، فأفردها ببيتين تاليين (١٢، ١٣)، فوصفها بأنها مزينة، مرصعة بالجواهر والحلى، وهى ذات صوت شديد، ينطلق مع انطلاق السهم، وهذا الصوت يشبه صوت المرأة الثكلى، شديدة الحزن، فيبلغ قلبها حنجرتها، فينكتم صوتها.. وإذا كانت المرأة كثيرة المصائب فإن القوس كثيرة الرمى، وكلتاهما تتصف بالسرعة والعجلة، وإذا كانت المرأة تحن إلى ولدها فإن القوس تحن إلى القتل والفتك.

فلماذا كان اهتمامه منصبا على القوس؟

يجيب أستاذنا الدكتور عبدالحليم حفنى[1]:

" ليس غريبا أن يكون للقوس عند الشنفرى مثل هذا الاهتمام، فالصعلوك يعتمد – أكثر ما يعتمد– على القوس التى يستطيع أن يتخذ منها فى مكمنه سلاحاً ماضياً نافذاً فى العدد والهدف، وحياة الصعلوك لا تعتمد على المواجهة بالسلاح، وإنما تعتمد على التخفى حينا، وعلى المطاردة أو الهروب حينا آخر، وفى كل ذلك ليس لديه سلاح أنجح ولا أمضى من القوس، فاهتمام الشنفرى بقوسه إذن ليس غريبا ولا عجيبا...". إن هذا المنبوذ لا يملك أن يواجه أعدادا كثيرة من الناس –وأعداؤه

(١) شاعر الصعاليك ٧٩، ٨٠.

كثر- في قتال قريب، فهو مرغم - إذن- على الركون إلى المصاولة، وفقا لمبدأ (اضرب واهرب) الأمر الذى يتحقق - أفضل ما يتحقق- بالقوس لا بالسيف"(١).

أما الدكتور مصطفى ناصف فيرى(٢) "أن أدوات القتال التى طال ذكر الصعاليك لها لم تكن إلا موضوعات يسقطون عليها هذه المتناقضات جميعا: صوت القوس فى سمع صخر الغى، عندما ينبض فيها كأنه همسات قوم يبحثون عن شئ فقدوه:

وسمحة من قسى زارة صفـ	ـراء هتوف عدادها غرد
كأن إرنانها إذا ردمت	هزم بغاة فى إثر ما فقدوا

....

كل هذه الأوصاف تعنينا من حيث دلالتها على شئ آخر وراء القوس والسهم: إن فعل العدوان الذى يقوم به الصعلوك ينم - كما قلنا- عن خوف وضعف. لم يقل لنا الشاعر صراحة إنه حزين حين يرمى، ولكنه وكل أمر هذا المعنى إلى ما نسميه وصف القوس نفسه...".

صور بغيضة:

١٤- ولست بمهياف يعشى سوامه	مجدعة سقبانها وهى بهل
١٥- ولاجبأ أكهى مرب بعرسه	يطالعها فى شأنه كيف يفعل
١٦- ولا خرق هيق كأن فؤاده	يظل به المكاء يعلو ويسفل
١٧- ولا خالف دراية متغزل	يروح ويغدو داهناً يتكحل
١٨- ولست بعل شره دون خيره	ألف إذا ما رعته اهتاج أعزل
١٩- ولست بمحيار الظلام إذا انتحت	هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل

(١) مقالات فى الشعر الجاهلى ٢١٧.

(٢) دراسة الأدب العربى ٢٩٥- ٢٩٧.

١- ينفى عن نفسه صورة ذلك الراعى الأحمق، الجاهل بمواطن الرعى، فيتسبب عن حمقه وجهله جوع إبله وعطشها، لقد سار بها طوال النهار فلم يهتد إلى مرعى أو ماء، حتى دخل الليل وهو على هذه الحال.. وإذا كان قد ضل نهارا فهل يهتدى ليلا؟!. ولقد نتج عن جوع الأمهات وعطشها جوع صغارها، لأنه لا لبن فى ضروع أمهاتها. أو أنه شرب هو اللبن واعتدى على حق صغار النوق فظلت جائعة.

٢- وينفى -ثانيا- صورة ذلك الجبان، ضعيف الرأى، الذى لا هم له إلا القعود إلى امرأته وملازمتها، ولا يصدر فى رأى إلا عنها فلا يفعل شيئا إلى بأمرها.. والمعيب هنا: أنه لا رأى له ولا عقل.

٣- ولا هو ذاك الرجل الرعديد الخائف، الذى يشبه ذكر النعام، فهو مفزع، مستطار القلب، إذا ما أحس بالخوف فر هاربا، ولم يجرؤ على المجابهة، بل هو فى جريه يعلو ويسفل ليختفى عن المطارد.

٤- أو ذلك القاعد فى داره، المتخلف عن الخير، كل همه تطييب بدنه وثوبه، يتكحل ويتزين، لأنه يتخلف عن أصحابه ويخلفهم فى أهليهم بالريبة، فصار مثل النساء.. بينما الفرسان الشجعان لا وقت عندهم لذلك كله، وسيأتى حديثه عن نفسه بعد.

وقد صور طرفة بن العبد صهره - عبد عمرو بن بشر- بقريب من هذه الصورة حين نقم عليه، فقال[1] :

ولا خير فيه غير أن له غنى	**وأن له كشحا إذا قام أهضما**
يظل نساء الحى يعكفن حوله	**يقلن: عسيب من سرارة ملهما**
له شربتان بالنهار وأربع	**من الليل حتى آض سخدا مورما**
ويشرب حتى يغمر المحض قلبه	**وإن أعطه أترك لقلبى مجثما**
كأن السلاح فوق شعبة بانة	**ترى نفجا ورد الأسرة أسحما**

(١) راجع كتابنا : تمرد طرفة ٦٤، ٦٥.

٥- ثم صورة (كاريكاتورية) لرجل كبير السن، ضئيل الحجم، ضعيف، عاجز، عيى، به حبسة فى لسانه، لا مكان له فى العير ولا فى النفير.

٦- أو ذلك التائه، المتحير، الأحمق، البليد، الضال، الذى إذا ما حل الظلام قعد وأسقط فى يده فلم يجد مخرجا.

مؤهلات الصعلكة (صور محببة بديلة عن الصور البغيضة):

٢٠-إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمى	تطاير منه قادح ومفلل
٢١- أديم مطال الجوع حتى أميته	وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
٢٢-وأستف ترب الأرض كيلا يرى له	على من الطول امرؤ متطول
٢٣-ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشرب	يعاش به إلا لدى ومأكل
٢٤-ولكن نفساً مرة لا تقيم بى	على الذأم إلا ريثما أتحول
٢٥-وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت	خيوطة ما رى تغار وتفتل

ليس للشنفرى جمل ولا حصان - كشأن الصعاليك- وإنما يعتمد على قدميه[1]، وهو يصف قدميه كأنهما سنابك خيل، إذا أصابت حجرا قدحت منه نارا، وكسرت حجارة أخرى، وما ذلك إلا لشدة وطئه وكمال شدته، وطول سيره حافيا.

وقد ذهب ابن زاكور إلى أنه يصف بعيره هنا بصلابة الأخفاف، بحيث تؤثر مناسمها فى الأماكن الصلبة وتتقدح منها النيران[2].... لكنه فى الحقيقة يتحدث عن نفسه وقدميه..

---

(١) يرى الدكتور مصطفى ناصف أن الصعاليك لم يذكروا الخيل، وذكروا فصائل مختلفة من الحيوان السريع، لأن الخيل تقترن - غالبا- فى ذهن الشاعر الجاهلى ببهجة الإحساس بالحياة ومتاعها ونضارتها ومن ثم اجتنبوا ذكرها. دراسة الأدب العربى ٢٩٩.

(٢) بلوغ الأرب صـ١١٢.

وهذه هى الوسيلة الأولى، والمؤهل الأساس للصعلكة. والثانى: تحمل الجوع الشديد الطويل، وذلك بإماتته بالإطالة، أو بنسيانه إعراضا عنه وتجاهلاً له، ومماطلته. وتلك حقيقة، وذلك لأن الإنسان حين يجوع ولا يتيسر له الطعام فى الوقت المعتاد فإنه يزهد فيه، حيث بدأ يسحب من (المخزون) فى جسده. فعوضه عن الطعام. وهناك من يضرب عن الطعام لعدة أيام ولا يموت لما ذكرنا.

وربما ينشغل الإنسان بأمور فينسى الطعام ولا يذكره.. وقد يعود نفسه على ذلك التحمل.. وقد كان الصعاليك -فيما يبدو- يمرنون أنفسهم على ذلك، تعويدا لها على ما قد يصيبهم من مسغبة، ولذا تراهم يصفون أجسادهم بأنها غاية فى النحول. فها هو تأبط شرا يقول:

قليل ادخار الزاد إلا تعلة فقد نشز الشرسوف والتصق المعى

ومن دواعى تعويد نفسه على الجوع ما رآه فى ذلك المجتمع من من وأذى، فقد يضطر – مع عدم صبره على الجوع- إلى الأخذ المتبوع بالمن والأذى، ومن ثم فهو يرى أن استفاف التراب أهون من ذلك..

ولذا نبه القرآن الكريم على هذه الصفة الذميمة وحذر منها **﴿.. الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون* قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى..﴾** (البقرة/ ٢٦٢، ٢٦٣).

والشنفرى يجيب عن سؤال قد يتبادر إلى ذهن المتلقى مفاده: وما الذى يضطرك إلى الرضا بالفقر؟ والعجز عن بلوغ الغنى؟..

فيرد بما يسميه علماء المعانى (التتميم) قائلا: لولا خشية العيب والعار لكنت من أغنى الناس، ولكانت الدنيا فى قبضتى. وفيه إشارة من طرف خفى إلى

أن أغلب الأثرياء جمعوا أموالهم بطرق غير مشروعة.. وهو يأبى أن يكون مثلهم. فهو العفيف الأبى. وهو يذكرنا بقول طرفة بن العبد فى معلقته[1]:

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ... ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وعادنى ... بنون كرام سادة لمسود

إن الشنفرى لا يعرض نفسه للمذمة والعيب، بل إنه يهجر المكان الذى يشتم فيه رائحة ذم، ويتحول عنه مباشرة.

إنه يربط على بطنه عند الجوع ربطا شديدا حتى لا يتألم، فتصير ليبوستها وضمورها وانضمامها كأنها حبال محكمة الفتل.

* * * *

الذئب معادلا موضوعيا للشنفرى:

٢٦- وأعدو على القوت الزهيد كما عدا ... أزل تهاداه التنائف أطحل

٢٧-غدا طاوياً يستعرض الريح هافيا ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل

٢٨-فلما لواه القوت من حيث أمه ... دعا فأجابته نظائر نحل

٢٩-مهللة شيب الوجوه كأنها ... قداح بكفى ياسر تتقلقل

ليس غريبا أن يتخذ الشنفرى من الذئب معادلا موضوعيا لنفسه، فهو من ذؤبان العرب الذين جمعتهم بالذئاب الوحشية أوجه شبه كثيرة[2].

وذئب الشنفرى هنا يعدو على القوت اليسير، وهو خفيف اللحم، وذلك أدعى لوثوبه، وخفته، وشدة عدوه.. إنه مغبر اللون، تتهاداه المفاوز، ويدفعه أولاها إلى ما يليه..

وهذا الذئب يستعرض الريح مكلفا نفسه عناء ومشقة وعنتا، فماذا يفعل وقد استبد به الجوع؟! بل لواه وسحقه... وهناك عوى فأجابته ذئاب كثيرة مثله فى

---

(١) راجع كتابنا / تمرد طرفة ٢٧٢.

(٢) راجع كتابنا : الذئب فى الأدب القديم.

الجوع والهزال.. فكأن هذا الذئب هو القائد لتلك المجموعة من الذئاب، ترى هل يشير الشاعر هنا إلى أن القائد وأتباعه كلهم فى الجوع سواء، وهم شركاء فى المحنة، بخلاف القبيلة التى تركها، حيث كان الشيخ يستأثر بكل شئ، فى حين يموت أفراد من القبيلة جوعا؟ فهم لا يشتركون أو يستوون عند المحنة؟! ولم لا.

لقد ذهب يؤكد على أن الذئاب جميعها – دون استثناء – (مهللة) أو (مهلهلة) (شيب الوجوه)، فلم يتميز الرئيس بالامتلاء والشبع.. بل الكل واحد.

جماعة النحل:

٣٠- أو الخشرم المبعوث حثحث دبره	**محابيض أرساهن سام معسل**
٣١- مهرتة فوه كأن شدوقها	**شقوق العصى كالحات وبسل**
٣٢- فضج وضجت بالبراح كأنها	**وإياه نوح فوق علياء ثكل**
٣٣- وأغضى وأغضت،وابسى وابست به	**مراميل عزاها وعزته مرمل**
٣٤-شكا وشكت،ثم ارعوى بعد وارعوت	**ولا صبر إن لم ينفع الشكو أجمل**
٣٥- وفاء وفاءت بادرات وكلها	**على نكظ مما يكاتم مجمل**

ثم انعطف إلى أمة أخرى، وهى أمة معروفة بالنظام والتعاون، فكل فرد من أفرادها يعرف ما له وما عليه (أى بخلاف الأمر فى القبيلة) هذه الجماعة روعت بفقد خلاياها، وقع عليها سحق وتدمير، مع أنها تقوم بواجبها على خير وجه، فلماذا يعتدى عليها؟ هل يريد أن يقول إنه قام بواجبه –هو أيضا– ومع ذلك وقع عليه السحق؟ ربما. إن جامع العسل لم يكتف بأخذ العسل، ويقابل الإحسان بالإحسان، بل إنه قابل الإحسان بإساءة، تماما كما حدث مع الشنفرى، ولذا ترك القوم الذين لا يقدرون الإحسان (البيت١٠).. لقد كان المشتار عدوانيا فقهر النحل.. والنحل صار –لذلك– مندهشا، فاتحا أفواهه.. ثم أقام مأتما يبكى من خلاله بيوته المهدمة التى صارت أطلالا، وترى النحل وقائده مثل نساء ثكالى نائحات فى مأتم..

ثم أدرك النحل أنه لا جدوى من البكاء، فلن يعود ما فات، والحل أن يعيد بناء بيوته المهدمة..

وقد يكون الحديث عن الذئاب وقائدها، وأن منظرها بشع... إلخ

وقوله (وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل) حكاية عن حاله هو، فلمن يشكو؟ وما جدوى الشكوى؟..

إنها لوحة شعرية فريدة. انفرد بها الشنفرى، لأنه: عانى مثلما عانت الذئاب، ثم إنه من الذؤبان، عايش الذئاب وخبرها.

انظر كيف صرخ الذئب فلبته الجماعة، بينما استغاث الشنفرى وشكا فلم يأبه به أحد. هناك تعاون ومشاركة، وهنا خذلان وتخل.. هناك مساواة وعدل، وهنا ظلم وبغى... [1].

الشنفرى والقطا (مدى سرعته):

٣٦- وتشرب أسآرى القطا الكدر بعدما	**سرت قربا أحناؤها تتصلصل**
٣٧-هممت وهمت، وابتدرنا وأسدلت	**وشمر منا فارط متمهل**
٣٨-فوليت عنها، وهى تكبو لعقره	**يباشره منها ذقون وحوصل**
٣٩-كأن وغاها حجرتيه وحوله	**أضاميم من سفر القبائل نزل**
٤٠-توافين من شتى إليه فضمها	**كما ضم أذواد الأصاريم منهل**
٤١-فعبت غشاشا ثم مرت كأنها	**مع الصبح ركب من أحاظة مجفل**

يتحدث هنا عن سرعته، فيختار أسرع ما فى الصحراء، وهو القطا المعروف بشدة سرعته ويتخذه منافسا له فى الإسراع إلى الماء [2]، ويثبت لنفسه السرعة الفائقة على القطا، إذ يصل هو إلى الماء فيشرب ويرتوى قبل أن تصل

(١) راجع كتابنا / الذئب فى الأدب القديم (٥١-٦٢).

(٢) "البدوى العطشان يهتدى إلى الماء بتتبع طير القطا، فهى ذات قدرة عجيبة على تنشق ريحه من مسيرة أيام، فتسرع إليه لا تلوى على شئ، يحدو بها عطش شديد...". أثر الصحراء فى الشعر الجاهلى صـ٤٩.

القطا.. وحين تصل تشرب أسآره -أى ما يتبقى منه-.. وقوله (سرت قربا أحناؤها تتصلصل) أى سارت ليلاً طلبا للماء، وجوانبها تصوت من شدة العطش، وذلك أدعى لشدة إسراعها إلى الماء حتى تقتل عطشها.. ورغم هذه السرعة إلا أنه سبقها.

لقد كان الهم إلى الماء فى وقت واحد، وكأنهما متسابقان ينطلقان فى لحظة واحدة، وبعد عدة أشواط ظهر أثر الإجهاد على القطا حيث أرخت أجنحتها، دلالة على التعب، بينما الشنفرى سابق، ماض إلى الماء، مع أنه لم يبذل كل جهده فى ذلك، وإنما كان متمهلا، مترويا فى طلب الورود.

وشرب الشنفرى وانصرف، بينما القطا تتساقط من شدة الإعياء والإجهاد وهى مقبلة على الماء منكبة على أذقانها وحواصلها..

ويشبه الشنفرى منظر القطا وهى حول الحوض تشرب الماء - فى كثرتها وتزاحمها وصوتها- كأنها صارت حواجز لهذا الماء وجوانب له.. وكأن هذا الضجيج والصياح والجلبة التى أحدثتها القطا - جماعة سفر معهم نساؤهم وأطفالهم، وقد تداخلت أصواتهم تداخلا شديدا.. أو كأنها قبائل مختلفة نزلوا فى المكان فأخذوا يتعارفون.

لقد جاءت هذه القطا من جهات شتى تنشد غاية واحدة، هى ورود ذلك الماء، مثلما تأتى جماعات الإبل طالبة الورود، فتتضام وتتزاحم عند ذلك المنهل..

ومن المعروف عن الجمال أنها إذا اجتمعت على منهل تدافعت، وتعالى رغاؤها وضجيجها، فأعطت فكرة الكثرة، وهى -لذلك- رمز للتجمع للقبائل المختلفة، تلتقى فى مكان واحد كأنها جماعات القطا ترد الماء"(١).

شربت القطا على عجل وعبت الماء عبا ثم ولت مدبرة، مسرعة فى الطيران، كأنها خائفة من خطر ما.. ربما رصدت القطا الخطر الذى يحيط بالماء،

---

(١) أثر الصحراء فى الشعر الجاهلى ٨٨.

فتعلمت الدرس من الحمر والبقر الوحشى، إذ إن الصياد يكمن هناك، وأحيانا تكون معه كلابه... فهى مجفلة لذلك...

معيشته وبعض خلاله :

٤٢-وآلـف وجـه الأرض عند افتراشها	بأهـدأ تنبيـه سناسـن قحـل
٤٣-وأعـدل منحوضا كـأن فصوصـه	كعـاب دحاهـا لاعب فهـى مثـل
٤٤-فـإن تبتئـس بالشنفرى أم قسطـل	لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطـول
٤٥-طريـد جنايـات تياسـرن لحمـه	عقيـرتـه لأيهـا حـم أول
٤٦- تنـام إذا ما نـام يقظـى عيونهـا	حثاثـا إلى مكـروهـه تتغلغـل
٤٧-وإلـف همـوم، ما تـزال تعـوده	عيـادا كحمى الربع أو هى أثقـل
٤٨- إذا وردت أصـدرتهـا، ثم إنهـا	تثوب فتأتـى من تحيت ومن عل
٤٩- فإما ترينى كابنـة الرمـل ضاحيـا	علـى رقـة أحفـى ولا أتنعـل
٥٠- فإنى لمولى الصبـر، أجتاب بـزه	على مثل قلب السمع والحزم أنعل
٥١- وأعـدم أحيانـا وأغنـى، وإنمـا	ينـال الغنـى ذو البعـدة المتبـذل
٥٢- فـلا جـزع من خلـة متكشـف	ولا مـرح تحـت الغنـى أتخيـل
٥٣-ولا تزدهى الأجهال حلمى، ولا أرى	سـؤولا بأعقـاب الأقاويـل أنمـل

يصف نومه، فيقول: إنه يفترش الأرض، ويضطجع عليها بظهـر يـابس، بارز عظام الفقار اليابسة.. وهذا مقض مؤلم.. لكنه ألف ذلك واعتاده، فصار شديد الثبات، مع أن عظام ظهره -ليبسها وقلة لحمه وشدة نحافته- ترفعه عن الأرض.. وكذلك جنبه.

وهو حين ينام يتوسد ذراعا، قليلة اللحم، ضعيفة كأن مفاصـل عظامـه كعاب -أى عظام تم تسويتها من قبل اللاعب فصارت منتصبة. فهى بـدون لحـم تماما أو كقطع حديد، وقال عطاء الله: يريد أن له عظامـا قليلـة اللحـم، شـديدة العصب، قوية جدا.. وقريب منه قوله فى قصيدة أخرى:

ومرقبـة عيطـاء يقصـر دونهـا أخو الضروة الرجـل الخفيف المشفف

نميـــت إلى أعلى ذراهـــا وقد دنا	**من الليـل ملتــف الحديقــة أســدف**
فبت علــى حــد الذراعيــن محــدبـا	**كمــا ينطــوى الأرقــش المتقصــف**
قليل جهازى غيــر نعليــن أسحقــت	**صــدورهــا مخصــورة لا تخصــف**

والشنفرى يتوقع موته فى أية لحظة، وهذا شأن سائر الصعاليك ويقول: أنا إن قدر موتى فلطالما مات الكثير على يدى فى ميدان المعارك التى أوقدت نيرانها، وقد كان ذلك هدفا لى ومطلبا أساسا فى حياتى، ولقد تحقق، وبذلك لم يفتنى شئ تمنيت تحقيقه وتحب الحياة لأجله.

وذهب أستاذنا الدكتور عبدالحليم حفنى إلى أن "الغالب أنه يريد فترة ما قبل حياة الصعلكة، فمن الطبيعى أنه كان يشارك فى الحروب التى تثور بين موطنه الذى يعيش فيه والقبائل الأخرى، ولكن رحيله إلى حياة الصعلكة يصرفه عن هذه الحروب القبلية إلى الصراع الخاص به وبالصعاليك، فهو يعزى الحرب برحيله عنها"[1].

غير أن البيت التالى يرجح المعنى الذى ذكرناه أولا، فهو يذكر أن أعداءه كثر، وهو مطلوب لثارات كثيرة، وجنايات عديدة ارتكبها ضد أناس يتنافسون جميعا للوصول إليه، والانتقام منه.. وهو المعنى الذى ألح عليه أكثر الصعاليك، يقول تأبط شرا[2]:

وقــالــوا لهـــا لا تنكحيــه فإنـــه	**لأول نصــل أن يــلاقــى مجمعـــا**

وقـــال :

وإنـــى ولا علـــم لأعلـــم أننـــى	**سألقى سنان الموت يرشــق أضلعــا**
علــى غــرة أو كثــرة مــن مجاهــر	**أطال نزال المــوت حتــى تسعسعــا**

....

ومــن يضــرب الأبطــال لابــد أنـــه	**سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا**

---

(١) شاعر الصعاليك ١٤٠.

(٢) راجع تحليل هذه القصيدة فى كتابنا (من الأدب الجاهلى).

إن عيون هؤلاء الموتورين لا تنام، فهم فى غاية الحذر واليقظة والتربص للشنفرى، يطلبونه وهم على أحر من الجمر..

ولقد اعتاد الشنفرى الهموم وألفها، فهى تزوره فى أوقات معينة، وقد صارت هذه الهموم ثقيلة شديدة، حتى صارت أثقل من الحمى..

إننى وإياها فى صراع محتدم، فهى تزورنى وأصرفها، فتأبى إلا أن تعود.. وصرفها إنما يكون منه بمحاولة انشغاله عنها. والتهوين من أمرها، لكنها مثل حمى الربع تأخذ يوما ثم تدع يومين، وحينئذ يظن المريض أنها تركته، لكنها ما تلبث أن تعود فى اليوم الرابع.. وهكذا همومه تصارعه وتعاركه، ويطردها فتأتيه هموم من كل صوب وحدب.. فأنى له بصراعها؟!.

ثم يشبه نفسه بالحية -وقيل البقرة الوحشية- بارزًا معرضًا للحر والقر، وهو حافى القدمين، مع عرى لا يستره شئ كابنة الرمل مكشوف جلدها -كما قال قبل- فمهاده الأرض، وغطاؤه السماء... وذلك كله يوحى بحاله من شدة الفقر والفاقة، ولكن المخبر مختلف، فهو مولى الصبر، متمكن منه غاية التمكن، وإذا كان قد تعرى من الثياب فإنه استبدل به أحسن ثياب الصبر، وقلبه حديد، وإذا كان قد حفى من النعال فإنه استبدل بها نعالا أخرى، إنها نعال الحزم.. ثم إن الغنى ليس همه، ولا جمع المال غايته، ولذلك لا يبذل نفسى فى سبيل ذلك، فهو صاحب همة أعلى..

وليس جازعا مع الفقر، ولا متبطرا مع الغنى، فلا تراه ضعيفا يائسا مع الأول، ولا منوعا مختالا مع الثانى..

وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله عز شأنه **﴿إن الإنسان خلق هلوعا* إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا﴾** (المعارج /١٩/٢١)، وفى قوله عز شأنه **﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا﴾** (الإسراء /٨٣)، وقوله سبحانه **﴿كلا إن الإنسان ليطغى* أن رآه استغنى﴾** (العلق/ ٦، ٧) وقوله سبحانه **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم..﴾** (الحديد /٢٣).

وينفى عن نفسه الطيش والحمق والخفة، فهو رجـل لا يسـتخفه البلهـاء والحمقى، ثم إنه لا يعبأ بأخبار الناس، وأحاديثهم، فهو لا يقفو ما ليس بـه علـم، ويبتعد عن القيل والقال، وينأى بنفسه عن السؤال. إنه ليس رجلا نمامـا، حمـالا للحطب، فهذا دأب صغار الهمة...

غارة ليلية للشنفرى:

٥٤-وليلـة نحس يصطلى القوس ربها	وأقطعـه اللاتـى بهـا يتنبـل
٥٥-دعست على غطش وبغش وصحبتى	سعـار، وإرزيـز، ووجـر، وأفكل
٥٦-فأيمـت نسـوانـا، وأيتمت إلـدة	وعدت كمـا أبـدأت والليـل أليـل
٥٧-وأصبح عنى بالغميصـاء جالسـا	فريقـان: مسئـول، وآخـر يسأل
٥٨-فقالـوا: لقد هـرت بليـل كلابـنا	فقلنا: أذئب عس أم عـس فرعـل
٥٩-فلـم تـك إلا نبـأة ثـم هـومـت	فقلنا: قطاة ريـع أم ريـع أجـدل
٦٠-فإن يك من جـن لأبـرح طـارقـا	وإن يـك إنسا ماكها الإنس يفعـل

يتذكر غارة ليلية شنها على بعض القوم من الخصوم، وقد كان الجو شديد البرودة فى تلك الليلة، حتى إن صاحب القوس الذى لا غنى له عنها لا يجـد مـا يوقده نارا ليستدفئ به فيضطر إلى إيقاد قوسه، وسهامه التى يختار لرميه.. وهنا لا يجب أن ننسى إطراءه لقوسه ووصفه لها فى أبيات سابقة، وهذا يوحى بمدى شـدة البرد فى هذه الليلة.

أغار الشنفرى فى هذا الجو الرهيب – الذى اجتمع فيه برد شديد، ومطـر خفيف، وظلمة حالكة– ومعه أصحاب له يعانون جوعا شديدا، وخوفا، وارتعـادا، ولم يمنعه ذلك كله من شن الغارة حتى تكون نتائجها أفظع، وآثارها أشنع... وهذا ما تحقق له :

لقد قتل رجالا، فتأيمت نساؤهم، وتيتم أبناؤهم، وعاد هو كما بدأ، لم يمسسه أى سوء، وقد أتم مهمته ولا يزال الظلام حالكا.

لقد تركت غارته هذه حيرة واضطرابا لدى المغار عليهم، فحين أصبح الصبح أخذ يسأل بعضهم بعضا عنه... كيف استطاع أن يقوم بما قام به فى هذا الجو؟! وكيف تمكن من تحقيقها فى هذا الوقت الخاطف فى جزء من الليل؟!

وهنا أجاب بعضهم : لقد نبحت كلابنا بالليل، ولكن كان نباحها ضعيفا فظننا أنه ربما اقترب من ديارنا ذئب، أو ضبع، فلم نعبأ بذلك لأن الكلاب سوف تكفينا الأمر، حيث تقوم بطرد هذا أو ذاك.

ولما كان الصوت ضعيفا حسب البعض أنه صوت قطاة مروعة فطارت، أو لعله صوت صقر هو الذى أفزع فطار فهرت الكلاب، ثم انقطع هريرها، فالأمر لم يكن داعيا إلى نهوض فى ذلك الجو المرعب..

من أين عرف الشنفرى ذلك الحديث الذى دار بين القوم؟ هل كان كامنا هناك فى مكان قريب يتسمع ويتحسس أصداء الغارة عليهم؟ أم أنه تخيل لما قد يدور؟.. كل دلك وارد.

المهم أنهم ظلوا فى حيرة من أمرهم، وأسقط فى أيديهم، واختلفوا فى تفسير المصيبة التى حلت بهم: أيكون هذا المغير من الجن المعروفين بسرعتهم وخطفهم، وشدة تأثيرهم؟ إنه إذا لجنى بارع...

أم يكون من الإنس، مع أن الإنس ليس بمكنتهم تحقيق غارة خاطفة فى وقت قصير، ولها أثر خطير؟؟.

نهار الشنفرى (ابن الصحراء وأليف الحيوان):

٦١-ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه فى رمضائه تتململ

٦٢-نصبت له وجهى ولا كن دونه ولا ستر إلا الأتحمى المرعبل

٦٣-وضاف إذا هبت له الريح طيرت لبائد عن أعطافه ما ترجل

٦٤-بعيد بمس الدهن والفلى عهده له عبس عاف من الغسل محول

٦٥-وخرق كظهر الترس قفر قطعته بعاملتين ظهره ليس يعمل

٦٦-فألحقت أولاه بأخراه موفيا على قنة أقعى مرارا وأمثل

٦٧-ترود الأراوى الصحم حولى كأنها عذارى عليهن الملاء المذيل
٦٨- ويركدن بالآصال حولى كأننا من العصم أدفى ينتحى الكيح أعقل

وإذا كان قد رسم فى اللوحة السابقة صورة لغارة من غاراته، وحياته الليلية، فإنه هنا يرسم صورة حياته نهارا.. فهو فى النهار يعيش أياما حرها شديد، حتى بلغ من شدة حر ذلك اليوم أن سال لعاب النهار وذاب، وقد أصاب الأرض رمضاؤه، حتى إن الأفاعى التى نشأت واعتادت على هذه الأرض لم تطقها وأخذت تململ وتتقلب، واختار الأفاعى لأنها زواحف لا خلاص لها من الاحتكاك بالأرض المتقدة بنار ذلك الحر.

الشنفرى يعرض وجهه لحر ذلك اليوم، لا ساتر له من شعاع الشمس، فوجهه هو الساتر، ولا غطاء له إلا البرد الأتحمى الممزق الذى لا يحجب الشمس ولا يقى من الحر. كما أنه لا يملك سوى شعر طويل ملبد، إذا هبت الريح عليه ظلت لبائده متماسكة، فلا يتطاير، وذلك لعدم تسريحه وادهانه..

لقد مر عليه حول لم يعرف الغسل إليه سبيلا، وفيه من الأوساخ والأقذار ما أشبه العبس، وهو ما يتعلق بأذناب الإبل والغنم من الأدران والأوساخ.

إننى أقطع القفر الواسع – الذى تنخرق الريح فيه انخراقا، حيث لا بناء به ولا شجر يوقف تلك الريح– كما أنه خال من السائرين، لأنه مخيف، يضل فيه السالكون.. أقطعه سيرا على قدمى فأصل أخراه بأولاه، فأحيانا أقعى على قمة الجبل، وأخرى أقف، وإنما يفعل ذلك ليشن غارة أو يخطط لها، وليرقب أعداءه، فربما كان هناك من يترصد هنا أوهنالك.

هذا الجبل تسكنه الأراوى. وهى تذهب وتجئ من حوله، إذ ألفته وألفها، كما قال تأبط شرا:

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا
رأين فتى لا صيد وحش يهمه فلو صافحت إنسا لصافحنه معا

والأراوى هنا لا تنفر من الشنفرى، وكأنها عذارى لبست ملاء مذيلا، وذلك لذيولها الطويلة وشعرها.. وهو يذكرنا بقول امرئ القيس فى المعلقة:

٦٨- فعن لنـــا ســـرب كـــأن نعاجـــه عـــذارى دوار فـــى مـــلاء مذيـــل

إن الأروية من فرط أنسها به يرقدن قريبا منه، فأشبهت إناثا أمنت علـــى نفسها، ولم يعرف الخوف إليها سبيلا، لأنها حول ذكر قوى صلب يخشـــى بأســـه، ويخاف خطره...

هكذا ألف الوحوش وألفته.. وقد زاد هنا أنه سيدها وأميرها.

* * * *

التعليـــق*

١- الوحدة الموضوعية :

لما كان الصعاليك متمردين على الأعراف والتقاليد القبلية تمردوا -كذلك- على تقاليدهم الشعرية، ومن مظاهر هذا التمرد: أن القصيدة الجاهلية - كمـا هـو معروف- تتعدد موضوعاتها، من وقوف على أطلال، إلى غزل، ووصف رحلـة الظعن، ووصف الحصان، أو الناقة... إلخ.

بيد أن الصعاليك لم يقفوا على الأطلال، أو يتغزلوا، وإنمـا دخلـو إلـى موضوعهم مباشرة، وموضوعاتهم تتعلق بحياتهم هم..

ويرى الدكتور مصطفى ناصف أن هناك أطلالا أخرى لـدى الصـعاليك، "فالماضى ليس هو الزمن الوحيد الذى يروع ضمائرهم، فحياتهم التى يصـورونها فى شعرهم طلل من طراز آخر: بقايا الحيوان، وبقايا العتاد، والهرب. هذه أطلال أو معالم فقد متكررة. فإذا تجنب الصعلوك ذكر الأطلال التى يبكيها الشعراء فليس يعنى ذلك أن مشكلة الإحساس بالتغير أو المضى أو الموت لم تشغلهم. فالوحشـة الكامنة فى وصف الطلل تعبث بعقل الصعلوك كمـا تعبـث بعقـل كـل شـاعر آخر..."[1].

واللامية - على طولها- تدور حول حيـاة الشـنفرى، وعالمـه الجديـد (الصعلكة)..

وبدأ الشاعر بالحديث عن اعتزامه الخروج، والأهلين الجـدد، ومـؤهلات الأهلية، ثم تحدث عن قيم خلقية اتصف بها، وأخذ يتحدث عن طوائف من العـالم الجديد فتناول صورة لجماعة الذئاب الجائعة المتكاتفة، وجماعة النحل المروعة بفقد

---

* راجع المزيد من خصائص شعر الصعاليك فى : شعر الصعاليك د/ عبـدالحليم حفـنى، الشعراء الصعاليك د/ يوسف خليف، وكتابنا/ من الأدب الجاهلى.. دراسة وتحليل ونقد (قصيدة أليف الوحش).

(١) دراسة الأدب العربى ٢٩٩/٣٠٠.

خلاياها، والمأتم الذى أقامته تبكى فيه بيوتها المهدمة.. ثم أسراب القطا التى توافت من هنا ومن هناك طالبة الماء...

وذكر مؤهلات صعلكته، من قوة وشدة بأس، وسرعة عدو، وصبر على الجوع.

كما وصف إحدى غاراته الليلية وآثارها الرهيبة، وسرعة تنفيذه لها، مما حير المغار عليهم..

وذكر حاله فى وقت النهار مع شدة الحر، والجوع.. وكيف ألفته الوحوش والوعول الجبلية... إلخ

٢- عدم التصريع:

ومن مظاهر تمرد الصعاليك على التقاليد الشعرية أنهم لا يصرعون مطالع قصائدهم، وها هى اللامية غير مصرعة:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم   فإنى إلى قوم سواكم لأميل

ويبدو أن ذلك مقصود منهم، كصدى من أصداء التمرد..

٣- المعجم الشعرى:

من خلال ألفاظ القصيدة يستطيع المتلقى أن يتلمس المعنى الخفى الذى لم يبح به الشاعر..

والشنفرى أعلن رفضه للمجتمع الإنسانى – القبيلة–، واستبدل به عالما آخر من الوحوش، إلا أننا حين نمعن النظر فى الألفاظ التى استخدمها الشاعر، وحديثه عن عناصر الطبيعة، والصور التى رسمها، يمكننا أن نقول مطمئنين: إن الشنفرى قد افتقد الجماعة، وأنه كان يتمنى أن لو كان فى جماعة، يعيش فى كنفها، ويحيا فى ظلها...

- تجد ذلك فى قوله (قوم سواكم – أهلون– أهل – أضاميم– سفر القبائل – أصاريم...).

- كما تلمسه فى لوحة الذئاب المتجمعة المتكاثفة التى أجابت الذئب بمجرد أن (عوى فأجابته). – وفى لوحة النحل الذى أقام مأتما جماعيا لفقد خلاياه..،– وتجده ثالثا فى صورة القطا وهى مقبلة على الماء، وأيضا وهى تصدر عنه...

ومن المعانى التى حازت اهتمام الشاعر (الجوع والفقد والضياع والقهر والسحق...) تجد ذلك فى الألفاظ: (فقد– حنت– مرزأة – عجلى– ترن– تعول– مجدعة – أميته – أطوى على الخمص الحوايا– القوت الزهيد – لواه القوت– نظائر نحل– مهلهلة– شيب الوجوه– ضج وضجت – نوح – ثكل – مراميل– عزاها وعزته– نكظ– أحناؤها تتصلصل– تكبو – سناسن قحل – منحوض– أحفى – لا أنتعل – أعدم – لا ستر إلا الأتحمى المرعبل..).

وكذلك تجد ألفاظا تدور حول (البعد والاغتراب) مثل : (منأى– القلى– متعزل– الظلام– يهماء– هوجل – أتحول– البراح– وليت عنها– طريد جنايات– إلف هموم– كابنة الرمل – وليلة نحس– والليل أليل– ويوم من الشعرى...).

٤– التصوير :

فى القصيدة صور رائعة، منها لوحات جزئية صغيرة، وأخرى كبيرة. فمن اللوحات الكبرى:

- **لوحة الذئاب المتكاثفة** التى أغاثت الذئب من فورها (دعا فأجابته)، وهو يريك كيف أنها جميعا نظائر فى الجوع، والنحول، وشيب الوجه..

وقد أبدع الشنفرى فى هذه اللوحة أيما إبداع، ولا عجب، فالذئب معادل موضوعى للشاعر الصعلوك، فهو أحد ذؤبان العرب "الذئب هو الشاعر نفسه، ذاب فيه واندمج وإياه فى كيفية واحدة، أو هو النائب والممثل لمشاعره وبنيانه الداخلى. وبذلك استطاع اللاشعور أن يصوغ صورا فنية

من محتوياته... إن الوحوش تتعرض لقمع الطبيعة تماما كما تعرض هو لقمع المجتمع. إنها الفجيعة فى كل مكان.."[1].

بيد أن الفارق بين الشنفرى والذئب: أنه دعا فلم يأبه به أحد، بل خذلوه وأسلموه إلى خصومه، أما الذئب فقد أغاثه بنو جنسه، وتكاتفوا معه ولم يخذلوه.

- **لوحة النحل** – وقد روع بفقد خلاياه–، وهى لا تقل إبداعا عن لوحة الذئاب، فالشاعر يريك كيف أن مشتار العسل كان رجلا ظالما وغبيا فى آن، فقد قابل الإحسان بإساءة. لقد جنى العسل، وكان عليه أن يترك بيوت النحل وخلاياه كى يعود للجنى منها مرة أخرى –لكنه هدمها، وترك النحل يولول باكيا أطلاله.. وأدرك النحل بعد حين أن البكاء لا يرد البيوت المهدمة، وعليه أن يستأنف.. (وفاء وفاءت بادرات).
- **لوحة القطا..**

وقد ركز فيها على التكاتف والاجتماع والتضام حين ورودها وصدورها، مما جعلنا نشعر بافتقار هذه الروح الجماعية.

ومن البيت (هممت وهمت..) تنبعث موسيقى سريعة تضج بالحركة، وتنسجم مع ما ينتظر منها فى وصف السبق وما فيه من تحفز، فانطلاق، فمبادرة من المتسابقين، فجرى، فاسترخاء، فى نهاية الشوط... [2].

- وهناك صور أخرى جزئية مثل :

تشبيه رنين القوس بالمرأة المرزأة المفجوعة وقد تناوبتها المصائب، وكأن هذه القوس فى شوق وحنين وتعطش لإصابة هدفها وإراقة الدماء، كما أن المرأة الثكلى تحن إلى ولدها ولا يرتاح لها بال إلا بإدراك ثأره.

---

(١) مقالات فى الشعر الجاهلى ٢٢٥.

(٢) أثر الصحراء فى الشعر الجاهلى ٣١٨.

- **صورة مصارعته الهموم**، حيث جسدها وجعل منها مصــارعا يصــول ويجول، ويخاتل ويراوغ، حتى إنه ألفها واعتاد على ذلك منهــا وعــرف مواقيتها.
- **تشبيه نفسه بالأفعى** التى تزحف على الأرض فيؤذيها الحر الشديد لأنه لا ساتر له منها.
- **تشبيه أمعائه** – لشدة جوعه– وهى متضامة متلاصقة كحبال أحكم فتلهــا كل الإحكام.
- **جعله الصبر لباسا يتدرع به**، والحزم نعلا يلبســه، ومــن قبــل أمــات الجوع...

وهناك صور أخرى غير ذلك، والملاحظ أن التشبيهات أكثر من الاســتعارات والكنايات..

٥– الألفاظ والأساليب:

فى القصيدة بعض الألفاظ الغامضة التى لا يتبين معناها إلا بالرجوع إلــى المعاجم، بل إن المعاجم اللغوية لا تجد ما تستشهد به على بعض مفرداتها إلا مــن خلال شعر الصعاليك... فلولا شعرهم لضاعت هذه الألفاظ..

ومن الألفاظ الغامضة فى اللامية:

(عل – الهوجل– العسيف – جبأ – أكهى – خرق– هيق– خشرم– حثحث دبــره– محابيض– نكظ...) ..إلخ.

وقد غلب الأسلوب الخبرى على القصيدة، فهو فى معرض قص ووصــف وذلك يتطلب الأسلوب الخبرى.. إلا أن المطلع جاء بأسلوب طلبى، وكان ذلك آخر عهد له بهذا الأسلوب، لأن مجتمع الصعاليك ليس فيه أمر ونهى، فالكــل مخــدوم وخادم، ومن ثم ناسب الأسلوب الخبرى عالم الشاعر الجديد.

* * * *

٦- أصداء اللامية فى الشعر العربى:

كانت لامية العرب – وستظل– من عيون الشعر العربى على مر العصور، ولذا نجد أصدءاها فى كثير من القصائد.. فهذا المتنبى –شاعر العربية العظيم – تلتقى أبياته – فى ميميته التى يصف فيها الحمى – مع اللامية فى كثير من المعانى:

* فالشنفرى يقول :

٣-وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى	**وفيها لمن خاف القلى متعزل**
٤-لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ	**سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل**

ويقول :

وأستف ترب الأرض كيلا يرى له	**على من الطول امرؤ متطول**

ويقول المتنبى :

٧- ولا أمسى لأهل البخل ضيفا	**وليس قرى سوى مخ النعام**

ويقول :

١١-وآنف من أخى لأبى وأمى	**إذا ما لم أجده من الكرام**

وقال الشنفرى :

١٠-وإنى كفانى فقد من ليس جازيا	**بحسنى ولا فى قربه متعلل**
١١-ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع	**وأبيض إصليت وصفراء عيطل**

وقال المتنبى :

يذم لمهجتى ربى وسيفى	**إذا احتاج الوحيد إلى الذمام**

وقال الشنفرى :

ولست بمحيار الظلام إذا انتحت	**هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل**

وقال المتنبى :

٤-عيـون رواحلـى إن حـرت عينـى وكـل بغـام رازحـة بغامـى
٥- فقـد أرد المياه بغيـر هـاد سـوى عـدى لهـا بـرق الغمام

* والشنفرى فى معرض وصفه للهموم يقول :

٤٧-وإلـف همـوم، ما تـزال تعـوده عيـادا كحمى الربع أو هى أثقـل
٤٨- إذا وردت أصـدرتهـا، ثم إنهـا تثوب فتأتـى من تحيت ومن عل

والمتنبى يصف الحمى فيقول :

٢١-وزائـرتـى كـأن بهـا حيـاء فليـس تـزور إلا فـى الظـلام
٢٣- يضيـق الجلد عن نفسـى وعنهـا فتوسعـه بأنـواع السقـام
٢٦-أراقـب وقتهـا مـن غيـر شـوق مـراقبـة المشـوق المستهام

* وقـال الشنفـرى :

٥٠- فإنى لمولى الصبـر، أجتاب بـزه على مثل قلب السمع والحزم أنعل

وقـال المتنبـى :

٣٩- فإن أمرض فما مرض اصطبـارى وإن أحمـم فمـا حـم اعتزامـى

*وقـال الشنفـرى :

٦١-ويوم من الشعـرى يـذوب لوابه أفاعيـه فـى رمضائـه تتملمـل
٦٢-نصبـت لـه وجهى ولا كن دونه ولا سـتـر إلا الأتحمـى المرعبـل

والمتنبـى يقـول[1]:

٢-ذارنـى والفـلاة بـلا دليـل ووجهـى والهجيـر بـلا لثـام

(١) راجع تحليل قصيدة المتنى فى كتابنا: ميمية المتنبى.

المصـــــادر والمراجـــــع

- أثر الصحراء فى الشعر الجاهلى- د/ سعدى ضناوى- دار الفكر اللبنانى.
- بلوغ الأرب فى شرح لامية العرب/ الزمخشرى- المبرد- العكبرى - ابن زاكور - ابن عطاء المصرى - جمع وتحقيق عبدالحكيم القاضى- محمد عبدالرازق عرفان- دار الحديث- مصر.
- تمرد طرفة د/ زكريا النوتى- مطبعة الحسين الإسلامية - ١٩٩٣م.
- دراسة الأدب العربى- د/ مصطفى ناصف - دار الأندلس - ط ثانية ١٩٨١م.
- الذئب فى الأدب القديم - د/ زكريا النوتى إيتراك للطبع والنشر- ٢٠٠٣م.
- شعرنا القديم والنقد الجديد - د/ وهب رومية- عالم المعرفة - رقم (٢٠٧).
- شاعر الصعاليك - الشنفرى ولامية العرب- د/ عبدالحليم حفنى- هيئة الكتاب.
- متعة تذوق الشعر- د/ أحمد درويش- دار غريب- مصر.
- مقالات فى الشعر الجاهلى- يوسف اليوسف-ط ثانية ١٩٨٣- دار الحقائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات- الجامعة الجزائرية.
- نهاية الأرب فى شرح لامية العرب- للشنفرى الأزدى- عطاء الله المصرى- دراسة وتحقيق د/ عبدالله الغزالى- حوليات كلية الآداب- جامعة الكويت- ١٩٩٣م.

دراسات فى الأدب الإسلامى

بُرْدَة كَعْب بْن زُهَيْر

قراءة فى النص الشعرى

كعب بن زهير*

هــو: كعــب بن زهير أبى سُلمى ، وأبو سُلمى (ربيعة بن رياح المزني).. أبوه زهير بن أبى سلمى ، وأمه : كبشة بنت عمار، وكعب من بيــت شعر ، يقول ابن قتيبة : لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلــية مــا اتصــل فــي ولد زهير .[١] فأبوه زهير بن أبى سلمى أحد أصحاب المعلقات ، وحكيم شعراء الجاهلية ، وجده أبو سلمى كان شاعرا، وابنه عقبة بن كعب الملقب بــ (المضرب) شاعر ، وحفيده العوام بن عقبة شاعر ، وأخوه بجير شاعر .

قــيل لخلف الأحمر : زهير أشعر أم ابنه كعب ؟ قال : لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت إن ابنه كعبا أشعر منه [٢]. ونحن لا نوافقه على ذلك .

وكعب من الشعراء المخضرمين ، وهو من الفحول .

كما أنه أحد أعلام مدرسة الصنعة التي وضع حجر أساسها (أوس بــن حجــر)، وتخرج فيها أعلام كبار مثل : زهير ، وكعب ، والحطيئة وغيرهم.

---

* راجع ترجمته في : أسد الغابة ٤٧٥/٤ دار الشعب ، الإصابة ٢٨٩/٨ برقم ٧٤٠٥ تحقيق د/ طه الزينى – مكتبة الكليات الأزهرية – ط أولى ١٩٧٦ ... والمراجع الآتية بعد .

(1) الشعر والشعراء ١٣٧/١ .

(2) نفسه ١٣٩/١ .

هــذه المدرســـة لا ترتجل الشعر ارتجالا ، بل كانت تعنى بتثقيفه وتقويمه ، حتى إن زهيراً يطلق على قصائده (الحوليات) ، لأنها تستغرق حولا كاملا قبل أن يذيعها في الناس .

وكان كعب والحطيئة راويتين لزهير، وقد طلب الحطيئة إلى كعب أن يقول شعراً يذكرهما ،ويسير في الناس ،حيث يرى أنهما آخر الفحول ، قـــال الحطيئة : قد علمت روايتي لكم أهل البيت ، وانقطاعي إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ، وتضعني موضـــعاً بعـــدك ، فإن الناس لأشعاركم أروى ، وإليها أسرع .. فاستجاب كعب وقال :[١]

فَمَنْ للقوافى شأنها من يحوكُها	إذا ما ثَوَى كَعْبٌ وفَوَّزَ جَرْوَلُ
يقــول فــلا يَعْيَا بشَئٍ يقولُــه	ومن قائليها من يسئ ويعْجِـل[٢]
يقوّمــها حتى تقــومَ مُتُونُــها	فيقصــر عنها كُلُّ مـــا يُتَمَثَّل
كفيتُك،لا تلقى من الناسِ واحدا	تنَخَّــلَ منهـــا مثــل ما نتنخّل

* * * * * * * * * * * *

---

[1] طبقات ابن سلام ٧٧

[2] في رواية (ويعمل) أى يتصنع ويتكلف .

مناسبة القصيدة

كان بُجَير وكعب يرعيان في مكان يسمى (أبْرَق العَزّاف) ، وذات يـوم قـال بُجَيْر لكعب : اثبت لى في الغنم حتى آتى هذا الرجل ، فأسمع كلامـه ، وأعـرف ما عنده .. فأقام كعب ، ومضى بجير ، فعرض عليه الرسول ﷺالإسلام فأسلم .. لأن زهيرا - فيما روى - كان قد قال لبنيه : يـا بـنى ! إنـي رأيـت كأنى رُفعت بسبب إلى السماء ، ثم قُصر بى ، وأوصاهم إن أدركوا النبىﷺ أن يسلموا ، لأنه كان قد جالس أهل الكتاب ، وعرف أنه آن أوان مبعثه ﷺ ...

وعلم كعب بإسلام أخيه بجير ، فقال[1] :

ألا أبلغا عنى بجيـراً رسالـــة	فهل لك فيما قُلتَ وَيْحَك هـل لكـا
سقاك بها المأمون كأسـا رَوِيَّةً	فأنهـلك المأمـون منهـا وعلكـا[٢]
ففارقت أسباب الهدى واتبعتـه	علـى أى شئ -وَيْب غيرك- دلكا
على مَذْهَب لم تُلْف أمًّا ولا أبـًا	عليه ، ولم تعرف عليه أخـًا لكـا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسـف	ولا قائـل إما عثـرت لعـاً لكـا

---

(1) الأبـيات فـي الشعر والشعراء ١٥٤١١ وغيره ، وهناك اختلاف فى بعض الألفاظ ففى البيت الأول ورد (بالخَيْف) بدلا من (ويحك) .

(2) معنى البيت أنه اغتر بكلام محمد ، أو سحر به .. وهو اتهام للنبى ﷺ .

فاتصل الشعر برسول الله ﷺ ، فأهدر دمه،فكتب بجير إلي كعب : النجاء النجاء ، فقد أهدر الرسول دمك ،وما أظنك ناجياً ، وكتب له قائلا :

من مبلغٌ كَعْباً فهل لك في التي ... تَلُوم عليها باطلاً وهي أحْزَم

إلى الله – لا العزى ولا اللات – وحده ... فتنجو إذا كان النجاة وتسلم

لَدَى يَوْمٍ لا يَنْجُو،وليس بمُفْلِتٍ ... من النَّار إلا طَاهِرُ القَلْبِ مسلمُ

فدينُ زهير – وهو لا شيء دينه ... ودين أبي سلمى – عليَّ محرَّم

وقال بجير لكعب في رسالته : إن رسول الله ﷺ . ما جاءه أحد قط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، إلا قَبِله ، ولم يطالبه بما تقدم الإسلام . فلما ورد عليه كتابُه توجه إلى الرسول ﷺ ....

يقول كعب :

فأنخت راحلتى على باب المسجد ، ودخلت المسجد ، ودنوت من النبى ﷺ فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . الأمان يا رسول الله ! قال :من أنت ؟ قلت كعب بن زهير . قال : الذى يقول ما يقول . ثم أقبل على أبى بكر فاستنشده ..

فقال الرسول ﷺ : مأمون والله ! فأنشده القصيدة[1] فخلع عليه الرسول ﷺ بردته تقديراً ، وهى البردة التى قيل إن معاوية بن أبى سفيان أخذها بعد وفاة كعب بعشرين ألفا .

****

[1] راجع لذلك : أسد الغابة ١٩٧/١ ، ٤٧٥/٤ ، الإصابة ٢٧٩/٣ ، سيرة ابن هشام ١٥٠/٤ -١٥١ .. وغيرها ..

بـردة كعب

١-النص*

١- بانَتْ سُعَـادُ فقلبى اليـوم مَتْبُـول   مُتَيَّـمٌ إثْرَهـا لـم يُفْـدَ مكْبـول

٢- وما سعادُ غَـدَاةَ البَيْن إذْ رحـلوا   إلا أغَنُّ غضيضُ الطرف مكحـول

٣- تَجلو عَوارضَ ذى ظَلْم إذا ابتسمت   كأنـه منْهَـلٌ بالـرَّاح مَعْلـول

---

* قصـيدة الـبردة لكعب بن زهير / شرح أبى البركات ابن الأنبارى - دراسة وتحقيق د/ محمود حسن زينى - الكتاب العربى السعودى (١٤) مطبوعات تهامة - ط أولى ١٩٨٠م .

ب١ بـان : فارق ، ومصدره البَيْن والبينونة . سعاد : اسم امرأة ، وسيأتى تعليق عليها . فقلـبى : يطلق ويراد به : الفؤاد ، العقل ، خالص كل شئ ومحضه .. متْبُول : أصيب بتَبْل والمقصـود بـه آثار الحب والهيام من الضعف والوهن . متيّم : ذلّله الحب . (مكبول) من الكبْل وهو القيد .

ب٢ الأغَـنّ : الذى فى صوته غنّة ، والغُنَّة : صَوْت لذيذ يخرج من الأنف ، والأغنّ هنا : ظبى فى صوته غنة تنبئ عن حسن صوت ، قال عدى بن الرقاع العاملى :

تُزْجى أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِه   قَلَمٌ أصَابَ من الدَّوَاة مِدَادَهَا

غضيض الطرف : وغَضُّ الطرف فى الأصل ترك التَّحديق واستيفاء النظر ، والمراد هنا : فاتـر الطـرف أو ناعسـه ، متكسر الأجفان . مكحول : إما أن يكون من الكَحَل أى الكحل الخلقى ، أومن الكُحْل الذى يكتحل به .

ب٣ تجلـو: تكشـف . والعوارض : قيل هى الأسنان كلها ، وقيل هى الضواحك أى ما بعد الأنـياب ، وقـيل : هـى الرباعيات . ظَلْم : بفتح الظاء وضمها ، والفتح أحسن ، وهو ماء الأسنان وبريقها ، وقيل : رقتها وشدة بياضها . مُنْهَل : من أنهله إذا سقاه ، والنَّهَل : الشرب الأول . والـراح : الخمـر . معلـول : من علّه يعُلّه أى سقاه ثانيا . وَالعوارض - أيضا - النواحى ، وظلم : من الظلام .

٤- شُجَّتْ بِذِى شَبَمٍ من ماء مَحْنِيَةٍ صافٍ بأبْطَحَ أضحَى وَهو مَشْمولُ

٥- تنفى الرياحُ القَذَى عنه وأفْرَطَهُ من صَوْبِ سارِيَةٍ بيضُ يَعَاليلُ

٦- أكرِمْ بها خُلَّةً لو أنها صَدَقَتْ مَوْعُودَها أو لَوَانَّ النُّصْح مقبول

٧- لكنها خُلَّةٌ قد سِيط من دَمِها فَجْعٌ ، وَوَلْعٌ ، وإخلافٌ ، وتبديلُ*

---

* ب٤ شُجَّتْ : من الشج وهو الكسر والشق ، وقال ابن الأنبارى : شُجَّت أى مُزِجَتْ . ذى شَبِمٍ : البَرد الشديد ، يقال : شبم الماء إذا اشتد بَرْده . مَحْنِيَة – مَفْعِلة – من حَنَوْت ، وهى ما انعطف من الوادى ، لأن ماءها يكون أصفى وأرق.والأبطح : ما اتسع من الأرض ، أو هو مسيل فيه دقاق الحصا . المشمول : الذى ضربته ريح الشمال حتى برد .

ب٥ تنفى : تطرد . القَذَى : ما يسقط في العين والشراب ، وقوله [تنفى الرياح القذى عنه] لها معان ثلاثة :

- أن تكون تعليلا لقوله (صاف) .
- أن تكون توكيداً له وتتميماً .
- أن يكون احتراسا ، وذلك لأن الماء الصافى قد يشوبه شئ من الأقذار .

أفرطه : ملأه . الصَوْب: المطر . السارية : السحابة تسرى ليلا . بيضٌ يعاليل : سحائب بيض ، وقيل : الجبال المرتفعة ، وقيل : السحاب التى تجئ مرة بعد أخرى .

ب٦ أكرم بها : أسلوب تعجب . خلة : خليلة أو صديقة . موعودها : الشخص الموعود ، أو الوعد نفسه .

ب٧ سيط : خُلط ، وقيل للآلة التى يضرب بها سوط لأنه يسوط اللحم بالدم . فَجْع : إصابة بمكروه . ولْع : كذب . إخلاف : أى فى وعدها . وتبديل : أى بصاحبها .

٨- فما تَـدُومُ على حـالٍ تكونُ بها | كما تلوَّنُ فى أثوابها الغـُولُ
٩- ولا تَمَسَّكُ بالعَهْـد الذى زعَمَتْ | إلا كما يُمْسك المـاء الغرابيل
١٠- ولا يَغُرَّنْك ما منَّتْ وما وَعَدَتْ | إنّ الأمانىّ والأحلام تَضْليـل
١١- كانت مواعيدُ عرقوب لها مثلاً | وما مواعيدُهـا إلا الأباطيـل
١٢- أرجـو وآمل أن تدنو مودتـها | وما إخـال لدينا منك تنويـلُ*

* ب٨ الحال : تذكر وتؤنث ، وقد أنثت هنا . تلون : أصلها تتلون . الغول : من المستحيلات الثلاث [الغول ، العنقاء ، الخلّ الوفى] ، والغول : حيوان خرافى ، وقد ورد ذكره كثيرا فى شعر الصعاليك ، وفسره بعض النقاد بأنه (الغوريللا) . وقال امرؤ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى | ومسنونة زرق كأنياب أغوال

والغـول : كـل مـا يغتال الإنسان فيهلكه . وقيل : المراد هنا واحدة السُعالى ، وهى إناث الشياطين ، سميت بذلك لأنها تغتالهم ، أو لأنها تتلون فى كل وقت .

ب١٠ الأمانىّ : جمع أمنية وهى ما يتمناه الإنسان ويشتهيه . والأحلام : جمع حلم .

ب١١ عـرقوب : رجـل مـن بنى عبد شمس اسمه : عرقوب بن معبد بن زهير ، وقيل : عـرقوب بن صخر .. يضرب به المثل في خلف الوعد ، وذلك : أنه وَعَد أخاً له ثمر نخلة وقال : ائتنى إذا طلع النخل ، فلما أطلع قال : ائتنى إذا أبلح ، فلما أبلح قال : إذا أزهى ، فلما أزهـى قال : إذا أرطب ، فلما أرطب قال : إذا صار تمراً ، فلما صار تمراً جذّه من الليل ، ولم يعطه شيئاً ، فضربوا به المثل فى الإخلاف ، فقالوا : أخلف من عرقوب ، وقال الشاعر:

وعدت وكان الخُلفُ منك سجيّةً | مواعيد عرقوبٍ أخاه بيثرب

ب١٢ الرجاء : التأميل ، قيل وإنما عطف عليه لأنه يكون فى الممكن والمستحيل ، والرجاء يخص الممكن . قال البغدادى : إنما هذا الفرق بين التمنى والرجاء . إخال : أظن . تنويل : عطاء .

١٣- أَمْسَتْ سُعَـادُ بِأَرْضٍ لا يُبَلِّغُهـا إلا العِتَـاقُ النَّجِيبـاتُ المَرَاسِيـلُ

١٤- ولَـنْ يُبَلِّغَهَـا إلا عُذَافِـرَةٌ فيهـا علـى الأَيْنِ إرْقَالٌ وتَبْغِيـلُ

١٥- من كل نَضَّاخَةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقَتْ عُرْضَتُها طَامِسُ الأَعْلامِ مَجْهُـولُ

١٦- تَرْمِى الغُيُوبَ بِعَيْنَىْ مُفْرَدٍ لَهِـقٍ إذا تَوقَّـدَت الحُـزَّانُ والميـلُ

١٧- ضَخْـمٌ مُقَلَّدُهـا، فَعْـمٌ مُقَيَّدُهَـا فى خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ الفَحْـلِ تَفْضِيلُ*

---

* ب١٣ أمسـت : صـارت ، يقـول : ارتحلت غدوة وأمست بأرض بعيدة . لا يبلّغها : لا يوصّـل إلـيها . العتاق من الإبل والخيل : جمع عتيق وهو الكريم . النجيبات : جمع نجيبة وهـى الكـريمة النادرة [ويروى : النجيبات أى السريعة] . المراسيل : جمع مرسال وهى الناقة سريعة رجع اليدين فى السير .

ب١٤ عذافـرة : ناقة صلبة عظيمة . الأَيْن : الإعياء والتعب . الإرقال : ضرب من السير السريع ، قيل هو من الخبب . تبغيل : مشى فيه اختلاف بين العنق والهملجة . وقيل : سرعة مع سلاسة وانفراد .

ب١٥ النضـاخة : هى التى يرشح عرقها ، والذِّفْرى : عظم فى أصل الأذن ، والذفرى من القفـا هـو الموضع الذى يعرق من البعير خلف الأذن ، والذفرى أول ما يعرق من البعير . عُرْضَـتُها : مـن قولهـم ناقة عرضة للسفر ، أى قوية عليه . طامس الأعلام : أى طريق طمست أعلامه .

ب١٦ الغـيوب : جمـع غَيْـب وهو ما غاب عنها . المفرد : ثور الوحش . لهق : أبيض . الحزّان : جمع حزين وهو المكان الغليظ . والميل من الأرض معروف .

ب١٧ ضخم : غليظ . مُقَلَّدها : موضع القلادة . فَعْمٌ : ممتلئ . مُقَيَّدها : موضع القيد.

١٨- حَرْفٌ أَخُــوهَا ، أَبُوها من مُهَجَّنَةٍ وعمهُــا خَالهـــا قَــوْدَاءُ شِمْلِيلُ

١٩- يمشى القـــراد عليها، ثــم يزلقـــه عنهـــا لبـــان وأقـــراب زهاليــل

٢٠- عيرانة قذفت بالنحض عن عــرض مرفقها عن بنـــات الزور مفتـــول

٢١- كأن ما فـــات عينيهـــا ومذبحهـــا من خطمهـــا ومن اللحيين برطيل

٢٢- تُمرٌ مِثلَ عسيب النخل ذا خصـــل في غـــارز لم تُخَوِّنْــه الأحاليـــل

٢٣- قنواء فى حُرَّتَيْهـــا للبصيـــر بهـــا عِتقٌ مُبينٌ وفـــى الخَدّين تسهيل*

---

* بـ١٨ حَرْف : ناقة ضامرة صلبة ، شبهت بحرف الجبل . وقيل : حرف أى ناقة ضامر ، فكأنها شبهت بحرف من حروف الكتابة ، وقيل : شبهت بحرف السيف . مُهَجَّنَة : من قولهم أهجَنَت الناقة : إذا حُمِل عليها فى صغرها والهجان من الإبل : البيض الكرام الخالصة اللون والعتق . قوْداء : طويلة العنق . شمليل : سريعة خفيفة وقوله :[أخوها أبوها وعمها وخالها] يعنى أن أخاها مثل أبيها ، وعمها مثل خالها في الكرم ...

ب١٩ القراد : دودة متطفلة ذات أرجل كثيرة ، تعيش على الدواب والطيور ، ومنها أجناس. اللّبــن : الصــدور . الأقراب : جمع قرب وهى الخاصرة . الزهاليل : واحدها زهلول وهو الأملس .

ب٢٠ عَيْرانة : هى الناجية فى نشاط ، وقيل : الصلبة . قُذِفَتْ : رميت . بالنحض : باللحم . عن عُرُض : عن اعتراض . بنات الزُّور : ما حواليه ، والزور : الصدر . مفتول : محكم.

ب٢١ مـــا فات عينيها : ما تقدم من بين عينيها . قال الأصمعى : الوجه كله فائت العينين إلا الجــبهة ، وقـــال : هـــو ما انقطع من المذبح . ومذبحها : موضع الذبح . خطمها : موضع الخطام . اللّحيان : العظمان اللذان تنبت عليهما اللحية . برطيل : حجر مستطيل .

ب٢٢ لم تخوّنه : لم تنقّصه . الأحاليل : جمع إحليل وهو مخرج اللبن من الضرع .

ب٢٣ قنواء : القنا احديداب فى الأنف . الحُرّتان : الأذنان . وفى الخدّين تسهيل:أى سهولة ، وذلك مستحب فى الإبل .

٢٤- تَخْدى على يَسَرَات وهْــى لاحِقَةٌ ذَوَابِـل وَقْعُهُــنَّ الأَرْضَ تَحْليــلُ
٢٥- سُمْرُ العُجَايَات يَتْرُكْنَ الحَصَا زِيمًا لــم يقهــنَّ رءوس الأُكْــمِ تَنْعيــلُ
٢٦- كأنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَــا إذَا عَرِقَــتْ وقــد تَلَفَّــعَ بالقُــورِ العَسَاقِيــلُ
٢٧- يَوْمًا يَظَــلُّ به الحَرْبَاءُ مُصْطَخِداً كــأنَّ ضَاحِيَــه بالنــــار مَمْلُــول
٢٨- وقَالَ للقَوْم حاديهم وقــدْ جَعَلَــتْ وُرْقُ الجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الحصا قِيلُوا
٢٩- شَدَّ النَّهَارُ ذِرَاعَــا عَيْطَلٍ نَصــفٍ نَاحَتْ فَجَــاوبَهَــا نُكْــدٌ مَثَاكِيــلُ*

---

* ب٢٤ تَخْـدى : تسـير الخَدْى ، وهو ضرب من السير السريع . وفى رواية [تخذى] . وهما بمعنى . يَسَرَات : قوائم ، وقيل القوائم الخفاف خاصة . لاحقة : ضامرة خفيفة اللحم . ذوابـل : جمع ذابل وهو اليابس . مستهن الأرض تحليل : إشارة إلى سرعة رفعها قوائمها ، والمعنى : أن مسهن الأرض خفيف قليل .

ب٢٥ العُجايـات : جمـع عُجَايَـة وهى عصب القوائم . قيل : هى لحمة متصلة بالعصب المـنحدر مـن ركـبة البعير إلى الفرسن . زِيماً : متفرقاً . الأكم : جمع أكمة وهى التل أو الهضبة المرتفعة . تنعيل : إلباس النعل فى الرجل .

ب٢٦ أوْب ذراعـيها : رجع يديها فى سيرها . تلفَّع : تفعّل من اللّفاع وهو اللثام . والقُور : جمع قارة ، وهو الموضع المرتفع الذى لا يبلغ أن يكون جبلاً . العساقيل : السراب .

ب٢٧ مصـطخداً : صَـخَدَتْه الشمس : إذا آلمتْ دماغه ، وأصْخَد الحِرباءُ : إذا تصلى بحر الشـمس . ضـاحيه : ما برز للشمس منه . مملول : من ملَلْتُ الخبزة فى النار أمُلُّها ملاًّ إذا عملها فى المَلَّة ، وهو التراب الحار .

ب٢٨ وُرق : جمـع أورق وورقاء ، وهو من الورقة : لون يضرب إلى السواد . الجنادب : جمع جُنْدُب وهو ذكر الجراد . قيلوا : من القيلولة وهو نوم نصف النهار .

ب٢٩ شـد الـنهار : أعلاه . العَيْطل : الطويلة الجسيمة . النُكدُ : جمع نكْدَاء ، وهى التى لا يعيش لها ولد . مثاكيل : جمع مثكال وهى التى تثكل أولادها .

٣٠- نَوّاحَةٌ ، رِخْوَةُ الضَبْعَيْنِ ، ليس لهـــا - لمّا نَعَى بِكْرَهَا النّاعُونَ- مَعْقُولُ

٣١- تَفْــرِى اللَّبَــانَ بِكَفَّيْهــا ومِدْرَعَهَــا مُشَقَّــقٌ عــن تراقيهــا رَعَابيــلُ

٣٢- تَسْعَى الوُشَــاةُ جَنَابَيْهــا وقيلُهُــم : إنَّكَ يــا ابــنَ أبى سُلْمَى لمقتُولُ

٣٣- وقــال كــلُّ خَليــلٍ كنــتُ آمُلُــه : لا أُلهِيَنَّــك ، إنى عنــك مشغـــولُ

٣٤- فقلتُ : خَلُّوا سبيلى - لا أبا لَكُــمُ - فكُلُّ ما قَــدَّرَ الرَّحْمــنُ مَفْعـــولُ

٣٥- كلُّ ابْنِ أُنْثَى - وإنْ طَالَتْ سَلامَتُــه- يومًا علـــى آلــةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُـــولُ *

---

* ب٣٠ الضبع : العضُد . بِكْرُها : أول ولدها . معقول : عقل .

ب٣١ تفــرى : تقطع . اللّبان : الصدر . مِدْرَعُهَا : قميصها . تراقيها : جمع ترقوة ، وهى عظام الصدر التى تقع عليها القلادة . رعابيل : قطع .

ب٣٢ فى رواية [يَسْعَى الغُوَاةُ] . والسعى والسعاية : الوشاية . والسعى بالوشاية : العَدْوبها. والوشاة : جمع واش وهو الذى يزور الحديث ويزينه حتى يصدقه السامع .جنابيها : ناحيتيها، أو حواليها . والضمير يعود إلى الناقة ، أو إلى سعاد . مقتول : صائر إلى القتل .

ب٣٣ الخلــيل : مــن الخُلّة وهى الصداقة ، وهو أعظم منزلة وأشد قرباً من الصديق ، فهو الذى يسدّ خلل صاحبه . آمله : أرجوه وأنتظر مساعدته وعونه وقت الحاجة . لا أُلْهِيَنَّكَ : أى لا أشغلنك عما أنت فيه بأن أسهّله عليك وأسلّيكَ ، فاعمل لنفسك ، فإنى لا أغنى عنك شيئاً ، وإنما أنا مشغول بأمر نفسى .

ب٣٤ خلّوا سبيلى : اتركونى وشأنى .

ب٣٥ آلــة : نعش . حدباء : صعبة ، أو مرتفعة ، وأصل الحدب الميل وهو تقوس الظهر ، والمراد وصف الآله التى يحمل عليها الميت .

٣٦- أنبئــت أن رســـول الله أوعدنـــى والعفــو عند رســـول الله مأمـــول

٣٧- مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ قــرآن فيه مواعيــظ وتفصيـــل

٣٨- لا تأخذنـــى بأقـــوال الوشـــاة ولم أذنب ولـــو كثرت عنى الأقاويـــل

٣٩- لقد أقوم مقامـــاً لـــو يقـــوم بـــه أرى وأسمـــع ما لـــو يسمع الفيل

٤٠- لظـــل يرعـــد إلا أن يكـــون لـــه مـــن الرســـول بـــإذن الله تنويـــل

٤١- حتـــى وضعت يمينى لا أنازعـــه فـــى كف ذى نقمـــات قيله القيـــل

٤٢- لـــذاك أهيـــب عنـــدى إذ أكلمـــه وقيـــل إنـــك منســـوب ومسئـــول*

---

* ب٣٦ أنبئت : أُخْبِرت ، والنبأ : الخبر الصادق . أو عدنى : أى تهددنى ، من الإيعاد ، ولا يكون إلا فى الشر .

ب٣٧ نافلة : زيادة فى العطاء .

ب٣٨ الوشاة : سبق تفسيرها .

ب٤٠ يرعد : أى يرتعد ويرتعش من شدة الخوف . تنويل : عطاء . وبعد هذا البيت فى رواية الشعر والشعراء :

ما زلت أقتطع البيداء مدرعا جُنْح الظلام وثوب الليل مسدول .

ب٤١ نقمات : جمع نقمة . قيلُ وقولُ وقالُ : بمعنى .

ب٤٢ أهيب : من الهيبة . ويروى [أرهب] من الرهبة .

٤٣- من خَادِرٍ من لُيُوث الأُسْد مَسْكَنُه ... بِبَطْنَ عَثَّرَ غِيلٌ دونــه غِيــلُ

٤٤- يَغْدُو فيَلْحِمُ ضِرْغَامَيْن عَيْشُهمــا ... لحْمٌ من القوم مَعْفُورٌ خراديــل

٤٥- إذا يُسَاوِرُ قِرْنًــا لا يحــلُّ لــه ... أنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إلا وهو مفلــول

٤٦- منه تَظَلُّ حَمِيرُ الوَحْش ضَامِزَةً ... ولا يُمَشَّى بواديــه الأراجيــل

٤٧- ولا يــزالُ بواديــه أخــو ثقَــة ... مُطَرَّحَ البَزِّ والدِّرْسَان مأكــول

٤٨- إن الرســول لسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ به ... مُهَنَّدٌ من سيــوف الله مَسْلُــول

٤٩- فى عُصْبَةٍ مَنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائلُهُم ... بِبَطْن مكَّةَ لما أسْلموا : زُولوا

٥٠- زَالُوا فَمَا زَالَ أنكاس ولا كُشُــفٌ ... عنْدَ اللِّقَاءِ ولا مِيــلٌ مَعَازِيــل*

---

* ب٤٣ خادر : داخل فى الخِدر وهو الأجمة . عثّر : مكان معروف بكثرة الأسود . والغِيل: الشجر الملتف ، والمراد به هنا أجمة الأسد . وبيت الأسد يقال له : خِدْر ، وأجمة ،وخيس ، وعرين ، وعريسة ، وزأرة ، مشتق من اسم صوته وهو الزئير .

ب٤٤ عيشــهما : قوتهمــا . لحم من القوم : أيِ لحم بنى آدم . معفور : أى مُلْقًى فى العَفَر وهو التراب . الخراديل : القطع ، يقال : خردلتُ اللحم أى قَطَّعتُه .

ب٤٥ يســاور : يواثــب وينازل ويبارز . القِرْن : النظير المماثل لك فى شجاعة أو علم . ويســاور قــرنا : ينازله ويبارزه . مفلول : مهزوم . وفى رواية [مجدول] ، والمجدول : الملقى بالجدالة وهى الأرض .

ب٤٦ حمير الوحش يروى [سباع الجو] أى الطيور المفترسة . ضامزة : ممسكة . يُمَشَّى : يمشى . الأراجيل : المقصود به هنا الصيادون .

ب٤٧ أخو ثقة : يثق بشجاعته . البزّ : السلاح . الدّرسان : الأخلاق من الثياب .

ب٤٨ يستضاء به : يهتدى ، أى هو سيف هداية . مهنّد : منسوب إلى الهند .

ب٤٩ العُصبة : من العشرة إلى الأربعين . زولوا : هاجِروا أو اتركوا مكة .

ب٥٠ زالــوا : هاجــروا . أنكاس : جمع نِكس وهو الضعيف من الرجال . الكُشُف : جمع أكشــف وهو الذى لا ترس معه فى الحرب ، أوهم الشجعان الذين لا ينكشفون فى الحرب . ميل: جمع أميل وهو: الذى لا سيف معه ، أو الذى لا يحسن الركوب ولا يستقر على السرج.

٥١- شُـمُّ العرانيـن ، أبطـالٌ لبُوسُهُـمُ   من نَسْج داودَ فى الهَيْجا سَرَابيـــل
٥٢- بيضٌ ، سوابغُ ، قدْ شُكّـتْ لها حَلَقٌ   كأنهـــا حلَـقُ القَفْعـاء مجْـدولُ
٥٣- لا يَفْرحـونَ إذا نالـتْ رمـاحهُـمُ   قومًا ، وليسُوا مَجازيعًا إذا نيلــوا
٥٤- لا يَقَعُ الطّعْـن إلا فـى نُحُورهـمُ   ومالهُمْ عن حِيَاض المــوت تَهْليل
٥٥- يمشون مَشْىَ الجمال الزُّهْر،يعْصِمُهُمْ   ضَــرْبٌ إذَا عَـرَّدَ السُّودُ التَّنابيلُ*

****

* ب٥١ شُـمّ : جمـع أشمّ وشمّاء ، وهو ذو الرفعة والعلو . العرانين : جمع عرنين ، وهو طـرف الأنف ، وفيه كناية عن الإباء والعزة . الأبطال : جمع بطل ، وهو الذى تبطل عنده الدماء ، وقيل : هو الذى تبطل عنده الحيل . لبوسهم : لباسهم . نسج داود : الدروع ، وإنما أضـيفت إلـيه لأنه أول من صنعها ، قال تعالى : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم .. ﴾ . الهيجا : الحرب . سرابيل : جمع سربال والمقصود الدروع .
ب٥٢ بيض : جمع أبيض وبيضاء ، أى مجلوّة صافية . سوابغ : طوال تامة ، يقصد الدروع الطـوال . شُـكّت لها حلق : أى أدخلت حلقاتها بعضها فى بعض . قفعاء : نبت ، أو شجر ينبسط على وجه الأرض له حلق مثل حلق الدروع . مجدول : محكم الصنعة .
ب٥٣ لا يفـرحون : أى فـرحاً خارجـاً عن الحد ، وفى رواية (ليسوا مفاريح) . نالت : أصابت . مجازيع : جمع مجزاع وهو شديد الجزع . نيلوا : أصيبوا .
ب٥٤ الـنحور : جمـع نحـر ، وهو أعلى الصدر ، كناية عن شجاعتهم وأنهم لا يفرون . حياض الموت: موارد الهلاك . تهليل : جبن وفرار ، من هلّل الرجل إذا تأخر و نكص .
ب٥٥ الزهـر : جمـع أزهر وهو الأبيض المشرق الوجه . يعصمهم : يحميهم ويمنعهم عن أعدائهم . عرّد : فرّ و أعرض . التنابيل : جمع تنبال أو تِنْبل وهو القصير .

٣- التَّحْليل

المطلع الغزلى:

فــى مقدمات كثير من القصائد القديمة ترد أسماء نساء مثل(سلمى، هــند ، مــيّة ، ســعاد ، هرّ ، الرّباب ، سُعدى ، سعاد .... الخ) ، وهنا يسارع كثير من القراء إلى القول بأن هذه هى محبوبة الشاعر ، أو زوجه، و أنه يتغزل فيها ، ويقف على أطلالها ...

بــيد أنــك حيــن تواصل قراءة القصيدة تجد شاعراً يعانى غربة ووحشــة ، وتفرداً ووحدة ، وآخر أبعد عن القبيلة فصار الموت أقرب إليه مــن شــراك نعلــه ، وثالثا يذهب للاعتذار ، وقد يقبل منه ، أو يرفض، وحينئذ إما القتل وإما السجن .

هذا طرفة بن العبد ، يُبعد عن القبيلة ، ويُفرد إفراد البعير المعبّد – على حد قوله – ، فيرى الموت محيطاً به ، بل ممسكاً برقبته ، ولا فكاك له منه ، يقول :

لعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ مــا أخطأ الفتى لكالطِّوَل المُرْخَى وثِنْياه باليد
متى ما يَشَــأْ يَوْمًا يَقُــدْه لحَتْفِــه ومَنْ يَكُ فى حَبْل المنيّة يَنْقَد

ولــذا تجده وهو يشرب الخمر كأنه يشربها فى جمجمة .. فهل من المقبول أن نفسر (خَوْلة) فى مطلع معلقته بأنها محبوبته ؟! وكذا (هر) فى مطولته الرائعة الأخرى [١].

---

[١] راجع كتابنا : تمرد طرفة أسبابه وأصداؤه فى شعره .

وها هو النابغة الذبياني يرتجف ويرتعد من تهديد النعمان بن المنذر له ، ويتوقع أن يبطش به ، فلا يأمن جانبه ، وقصيدته الدالية – المعلقة – تـنطق بذلك ، من خلال حديثه عن ثور الوحش ، وتربُّص الصياد وكلابه بـه ، ثـم تلك الأمواج الهادرة ، والإرغاء والإزباد ... الخ [1] . كل ذلك يجـبر القـارئ على البحث عن مدلول آخر لاسم (ميّة) الوارد في مطلع القصيدة .

يقول الشاعر مالك بن زغبة الباهلى :

وما كان طبّى حبّها غير أنه تقام بسلمى للقوافى صدورها

قال ابن رشيق : " وللشعراء أسماء تخفّ على ألسنتهم ، وتحلو فى أفواههم ،فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً نحو ليلى ، وهند ، وسلمى ،ودعد ، ولبنى ، وعفراء ، وريا ، وفاطمة ، ومية ، وأشباههن " [2]

ويعلق الدكتور (لطفى عبد البديع) على هذا قائلا : [3]

" وعفـا الله عـن ابن رشيق ، ومن ذهب مذهبه فى اتهام زغبة ، ومن سلك سبيله من الشعراء بالكذب والزور ... وإنما أخطأ ابن رشيق ، وأصـاب زغبة ، فما كان للشعراء أن يعكفوا على تلك الرياضة الغزلية ، لمجرّد أنها تخفّ على ألسنتهم ، وتحلو فى أفواههم .. ولكن الشأن فى هذا

---

(1) راجع كتابنا : ثور الوحش بين النابغة وذى الرمة .

(2) العمدة / ١ / ٢١٧ نقلا عن التركيب اللغوى صـ١٢٩ .

(3) التركيب اللغوى للأدب صـ١٢٩ .

ومثله للقيمة التى يريد الشاعر أن يبثّها فى اللفظ ، لينطلق فى الزمان على أجنحة الخلود ، لقد شدا الشعراء بهذه الأسماء،لأن معناها يتجاوز مسمياتها من بنات حواء ، فهنّ لسن اللائى يأكلن الطعام ، ويسكنّ الخباء ... "

وإن معـــرفة الظروف والملابسات التى تكتنف النص ذات شأن فى هدايـــة مفسّر الشعر ، على أنه لا ينبغى أن نعامل الشعر معاملة التاريخ ، فلقـــد " كان من الدواعى التى صرفت البحث فى الشعر العربى عن جهته إنزاله منزلة التاريخ ، والشاعر لا يحذو حذو التاريخ ... " (١)

وإذا كـــان من المشهور قولهم (المعنى فى بطن الشاعر) فإن ذلك لـــيس معـــناه أن نقـــف عـــند مقصد الشاعر حتى ولو صرّح به ، فذلك " التصـــريح لا ينـــبغى أن يقيد الباحث ، وربما تجاوزت مقاصدُ المؤلف العمل الفنى ... ولو قدّر لنا أن نسأل (شكسبير) عن المعنى الذى قصد إليه من كتابة (هملت) لما كان فى جوابه ما يشفى الغليل ، ومع ذلك فنحن نجد فى (هملت) معانى من الراجح أنها أبعد ما تكون عن ذهن (شكسبير). (٢)

وبمعـــاودة القراءة فى القصائد القديمة التى ورد فيها أسماء (سعدى ، سعاد ...) نواجه بما يحول بيننا وبين تفسيرها بأنها أسماء نساء .. وحينئذ نضطر إلى البحث عن مدلول آخر ..

---

(1) نفسه ١٢٢ .

(2) نفسه ١٢٣ ناقلا عن رينيه ويليك .

هـــاهو عُبَيْد الله بن قيس الرقيات فى قصيدته التى يعتذر فيها إلى عبد الملك بن مروان ، قائلا :

بَشَّر الظبْىُ والغُرَابُ بسُعْــدى   مَرْحَباً بالّذى يَقُول الغُرَاب

قال لى : إنَّ خَيْر سُعدى قريبٌ   قَدْ أنى أنْ يكون منه اقتراب

لقــد كان الشاعر مرعوباً من عبد الملك ، وهو يحاول استرضاءه بهــذه القصيدة ، لكنه لا يأمن جانب حاشيته ، فربما غدروا به ، والمعجم الشعرى فى القصيدة ينبئ بما فى نفس الشاعر من ذعر ، وتوقّع غدر ... ولــذا تجــد ألفاظ [الغراب – الحصون – الأبواب – القصر – مؤصد – مصــفق – عليه الحجاب – شرطة غضاب – لا تطعم الماء – ذئاب ...] إنه السجن والأسر ، والتعذيب والتنكيل ، والغدر ، وربما القتل ...

فهل بعد ذلك كله يتأتى أن نقول إن (سعدى) امرأة حبيبة ؟! .

سعاد كعب من تكون ؟

وكذا (سعاد) هنا ، فى بردة كعب ، الذى بلغه إهدار الرسول دمه ، وهو يعلم أن المسلمين يتسابقون إلى تنفيذ أوامره ﷺ ، ولذا تجده قد اتخذ كافة التدابير الوقائية التى تحقق له الوصول إلى مسجد النبى ﷺ بالمدينة ، فأنّى له أن يتغزل والموت محيط به ؟! ثم أنّى له أن يتغزل فى مسجد الرسول ﷺ وقد لا يقبل منه هذا الغزل ؟! كيف يبيحّ الشاعر لنفسه – وهو يخوض هذه التجربة المأساوية – أن ينسى حزنه الشاغل لها ، وأن يعطف صوب هذا المتجه الحسى فى تغزله ، وهــو يعلم أن الغزل – حتى العفيف منه – قد يصادر على شاعره فى مثل هذا الموقف ، وفى حضرة هذا الإنسان النبى بالذات " .[1]

[1] البعد الآخر فى الإبداع الشعرى ٧٣ د/ محمد أحمد العزب .

إنه ليس من المقبول " في مثل هذا المناط ، وأمام قائد دعوة أخص خصائصها رفض التدني إلى حوار الجانب الشهوي فيمن نحب من الناس أن يجــيش شاعر مطارد بالموت هكذا بعذاب الشوق إلى سعاد ، والجوع إلــى طــيفها مقبلة ومدبرة، وفضح طبيعتها الأنثوية المراوغة التي تبذل الوعــد ، وهــي مصــرة على الإخلاف ، وكشف الستار عن طبيعة فيها مجبولة على مزيج من الهجر والكذب وإحباط الأماني ...

" فلنبحــث عن بديل حقيقي لهذا الفهم المسطح ، ولنحاول أن نقرأ هذا المدخل الغزلي المهاجم قراءة جديدة ... " [١]

– ربمــا كانت سعاد هي الأمل الذي يراود الشاعر في أن تكتب له حــياة جديــدة ، بعد أن يكتب له سلامة الوصول ، ويعرض اعتذاره إلى الرسول ، خاصة أن أخاه بُجَيْرًا قد أخبره أن الرسول ﷺ لا يردّ معتذراً .

لكن هذا الأمل يتضاءل حين يذكر كعب مدى حرص الصحابة على تنفيذ أوامر رسول الله .. ولذا تجد الأمل ذاهبا ، آتيا ، مراوغاً ، ... الخ .

– إذاً يمكن أن تكون سعاد هذه الحياة المراوغة ،التي تجئ وتفلت ، وتفلت وتجئ ... "[٢]

– وهــل يمكن أن تكون سعاد "صورة من صور الجاهلية الغادرة بــزيفها ، وقد بانت وانقطع ما بين الشاعر وبينها بفضل الله ؟!"[٣] لعل مما يؤيد ذلك قول كعب :

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

---

(1) نفسه ٧٣ ، ٧٤ .

(2) نفسه ٧٤ .

(3) د/ كامل سعفان / مجلة الشعر عدد ٢٤ أكتوبر ١٩٨١ صـــ ٣٠،٣١

فقد استضاء كعب بهذا النور ، وخرج من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان.

– " هل يمكن أن تكون سعاد ، ليست سعاد ، وليست هى الحياة ، وإنما رمز الحب والدفء وقرار الوجود ؟ إن الحب والدفء والقرار فى لحظة مثل هذه اللحظة التى يواجهها الشاعر المطارد بالموت ، تبدو مخيفة فى حضورها ، لأنها تشير إلى حتمية فقدانها الوهلى ..

– " هــل يمكــن أن نقول بأن سعاد المديخل في القصيدة هي الحب المطــارد ، والدفء المهدد ، والقرار الآيل للغروب ؟ وليست سعاد الأنثى هــنا سوى معادل موضوعى لهذه الأحضان الوثيرة الثلاثة التي توشك أن تنطفئ فى لحظات ؟".[1]

إن هذه المقدمة قد تكون " معادلاً موضوعيا لتجربة كعب التي عبر عنها بطريقة فنية ، دفعت بالرسول ﷺ إلى الإعجاب والطرب ، لا بالغزل المكشــوف كما كان يتوهم ، بل بهذا الخلق الفنى المتكامل لتجربة الشاعر الشخصية التى يمرّ بها " .[2]

وهــل يمكن أن تكون سعاد " رمزاً لما فى نفسه من مشاعر ، ففى نفســه أعظــم أمنية يهفو إليها قلبه وهى عفو الرسول عنه ، وقد عبر عن هذه الأمنية بشخصية سعاد وحبها .... " [3]

" إذا كــان الــنص يحــتمل هذه القراءات فلسنا نستطيع رفضها ، والعكوف على مجرد القراءة المباشرة ، لأن توسيع قاعدة النص هكذا من خلال قراءته قراءات متعددة تمنح هذا النص ثراء فنياً هائل العطاء ... "[4]

---

(1) البعد الآخر ٧٥ .

(2) د/ محمد عبد المنعم خاطر / مجلة الكاتب عدد ١٩٤ / مايو ١٩٧٧ صـــ٢٠ .

(3) من الأدب القديم صـــ١٠٢ د/ عبد الحليم حنفى .

(4) البعد الآخر ٧٥ .

ومن خلال هذه القراءة يمكن أن يكون النص وحدة واحدة متماسكة .

إن قراءة أبيات سعاد فى النص تؤكد هذا الفهم :-

١- بانَتْ سُعَـادُ فقلبى اليـوم مَتبُـول مُتَيَّـمُ إثْرَهـا لـم يُفْـدَ مكبـول

لقـد أصاب قلبى من جرّاء فراق سعاد داءٌ لا دواء له ، وصرت مريضاً بـ (التبل) ، وها أنذا أسيرٌ لا أستطيع الفكاك .

وتـأمل الألفاظ (بانت - قلبى متبول - إثرها - لم يُفد - مكبول) تجدهـا موحـية بخيـبة الأمـل ، والفشل .. إنها من معجم الأسر والقيد والحبس ..

وكلمـة (إثرها) لها دلالة عظيمة ، فأمله هناك (فى إثرها) ، هذا الأمل -على ما فسرنا- فى مدينة الرسول ﷺ .

٢- وما سعادُ غَـدَاةَ البَيْن إذْ رحـلوا إلا أغَنُّ غضيضُ الطرف مكحول

٣- تَجلو عَوارضَ ذى ظَلْم إذا ابتسمت كأنـه منْهَـلٌ بالـرَاح مَعْلـول

٤- شُجَّتْ بِذِى شَبَم من مـاء مَحْنِيَةٍ صافٍ بأبْطَحَ أضحَى وَهُو مَشْمولُ

٥- تنفى الرياحُ القَذَى عنـه وأفرَطَـهُ من صَوْبِ سارِيـةٍ بيضٌ يَعَـاليلُ

ونلـتقط من الأبيات قوله (غداة البين - رحلوا) ويبدو لنا أنه يشير مـن طـرف خفى إلى تخلى الأهل والأقارب عنه ، فالكل قد رحل حُكماً وليس حقيقة .. (والأغن غضيض الطرف) نلتقط منه (الغض) وهى مادة تفـيد: خفـض الطرف ذلاً - من بين معانيها العديدة - وتفيد السكوت .. والسـاكت هنا - فيما نرى - الشاعر نفسه ، الذى يتوقع أن يسكت سكوتاً أبدياً . وكذا (الإغضاء) من حياء ، وذلة ، وانكسار ...

والابتســامة – أى الأمل – تضئ الظلام ، وما الظلام إلا الخوف المطبق عليه . والذى يتمنى أن لو بددته الابتسامة .

وقولــه (شــجت) وإن كان معناه خلطت ومزجت ، إلا أن المعنى الأشــهر لهــا والذى يسبق إلى الذهن أولا هو الأولى ، فالشَّجُّ هو الكَسْر والشَق ، وذلك واقع على الشاعر .

ثم يأخذ الشاعر فى الحديث عن صدق الوعد،ويتمنى أن لو تحقق ، فبه تكون حياته ، ويتحقق أمله . البيت (٦) .

وســرعان مــا يتلاشى الأمل فتجد المعجم الدموى (سِيط – دمها) والخلــف (إخــلاف ، تــبديل) (البيت٧) . كما تجد (الغول) ومن معانيه الاغتيال والهلاك (البيت٨) . هذا التلون والتبدل إن هما إلا الأمل والخيبة ، الحياة والموت ...

والحياة ستتبخر وتذهب هدراً مثلما (يمسك الماء الغرابيل) ، والأمل فــى الحــياة إن هو إلا أحلام وأمانىّ لا ينبغى أن تغتر بها (البيت١١) ، ويستبد به هذا الشعور فيرى الحياة مستحيلة (البيت١١) .

لكن الرجاء والأمل – هكذا معاً – يراودانه مرة أخرى ،فيقول:ولم لا ؟، ولذا كرر أو رادف (أرجو وآمل) إلحاحاً منه ، وكأنه دعاء . (البيت١٢).

وتأتى الأبيات بعد ذلك مؤكدة ما ذهبنا إليه من أن (سعاد) هى أمله فــى الحياة ، أو الحياة نفسها ، حين يذكر أن (سعاد) أمست هناك بأرض بعيدة لا يصل إليها إلا عتاق نجيبات مراسيل . (البيت١٣)

ويكـــرر قوله (يبلّغُها) مما يوحى بأن ذلك منتهى أمله ، أن يصل إلى حيث توجد سعاد فلا يقطع عليه طريق الوصول إليها قاطع ، ولا يمنعه مانع، وبذلك يكون قد قطع خطوات كثيرة فى سبيل الوصول إلى هدفه(البيت ١٤)

وقـد ذهـب أستاذنا الدكتور عبد الحليم حفنى [١] إلى أن "عنصر الغزل – على ما فيه من دقة وتنويع معانٍ – يُعتبر أضعف صور القصيدة وجوانبها ... " وهذا الحكم يكون مقبولاً لو فسرناه على أنه غزل تقليدى ، لكننا حين نفسره على ما ذهبنا إليه نجده يحمل من الرموز والإشارات والإيحاءات كماً هائلاً ، يرفعه إلى أن يكون أبرز لوحة فى القصيدة ،فضلاً عن أن التفسير السطحى الظاهرى يجعل القصيدة أجزاء متناثرة .

الناقة : سبيل الوصول إلى الهدف المنشود .

وناقـة كعب هى وسيلته إلى (المدينة) حيث (الأمل فى الحياة) بعد عفـو الرسول ﷺ عنه ، ولذا جعلها عظيمة ، قوية ، تصل إلى أماكن لا يصـلها سواها . إنها متفردة بين النوق ، فها هى ترمى الغيوب ، و"كأنما هى مؤهلة للقبض على النهايات "[٢] . وهذا البيت والذى بعده يذكران بقول المتنبى فى ميميته :[٣]

عيون رواحلى إن حِرْتُ عينى وكل بغام رازحة بغامى

---

[1] نصوص أدبية من العصر الإسلامى ١٥٤ .

[2] البعد الأخر ٧٦ .

[3] راجع كتابنا ميميــة المتنبى .

وعيـــنا ناقـــة كعـــب اللتان ترى بهما إنما هما عينا ثور وحشى ، (مفرد) ، وما هذا المفرد إلا كعب نفسه ، والشاعر سلك مسلك الشعراء فى تشبيههم نوقهم بالثور الوحشى ، لكنه لم يسترسل فى وصفه كما يفعلون ، وللثور دلالات مهمة فى مثل هذا الموقف .[١]

وربما كانت"الناقة هنا ليست هى الناقة ، وإنما هى الحرية الباحثة ، فـــإذا كانت سعاد هى الحياة أو الحب أو الدفء أو القرار ، فلماذا لا تكون الناقة هى حرية المعاناة فى نشدان كل أولئك ، أو معاناة الحرية فى نشدان كل أولئك ؟" .[٢]

وإذا كـــنا قد صرفنا " المفتتح الغزلى عن سعاد إلى الحياة – وهو كذلك فى أغلب الظن – فإن اللوحة الثانية ينبغى أن نصرفها عن الناقة إلى حـــرية البحـــث فى الجدوى ، وإلى العذاب الجميل فى جدوى البحث عن الحـــرية .. وهكـــذا يولـــد على الفور بين لوحات القصيدة نوع من الجدل الحتمى الذى يمكن أن نسميه فى النهاية (الوحدة العضوية) .."[٣]

وحيـــن تـــتأمل لوحة الناقة تجد فيها : (أخوها – أبوها – عمها – خالهـــا) .. فهل لذلك من مدلول إسقاطى ؟ ـــ ربما .. لكأن الشاعر افتقد كـــل أولـــئك وهـــو يبحث عمن يؤازره فى هذا الجو الذى تتلبد فيه غيوم الموت،ووجد ذلك كله فى تلك الناقة المنسَّبة، ومن ثم كان اعتماده عليها ..

---

(1) راجع كتابنا : ثور الوحش بين النابغة و ذى الرمة .

(2) البعد الأخر ٧٦ .

(3) نفسه ٧٧ .

- وهل لمشى (القراد) من إيحاء يمكن أن نتلمسه فى هذه الظروف النفسية ؟ إن هذه الدويبة المتطفلة علقت بكعب قبل أن تعلق بناقته ، وهى ليست قراداً وإنما هى المنايا أحاطت به من كل اتجاه . والإزلاق هو تغلب الحياة على الموت ، إنه الحلم والرجاء والأمل ..

تخلّى الناس عن كعب :

ويصل الشاعر إلى اللوحة الثالثة التي يستسلم فيها لقضاء الله وقدره ، فـيريك تخلي جميع الناس عنه ، وليتهم إذ تخلوا عنه سكتوا ، كلا ، إنهم يؤكدون له أن سعيه بلا جدوى ، وجهده سدى ، فهو مقتول مقتول ..
حتى الأخلاء - جميعهم - الذين كان يؤمل فيهم مساندته ومظاهرته ، قال كل منهم : نفسى نفسى .. فيئس منهم ..

وهـنا أمـرهم أن يبتعدوا عن طريقه ، ويخلّوه وشأنه ، وليكن ما يكون ، فكل ما قدّر الله لابد أن يكون ..

إن المـوت أمـر لابد منه ، ولا مفر عنه ، فكل ابن أنثى - طال عمـره أو قصر - حتماً سيموت ، ويحمل على نعش .. ففيم الشماتة أيها الشامتون ؟!
وهو كقول القائل:

فقل للشامتين بنا أفيقوا　　　سيلقى الشامتون كما لقينا

وكثـير من الدارسين يقولون إن حديث كعب عن الموت و أنه قدر مقدور .. أثر إسلامى .. ونقول : ليس بالضرورة أن يكون أثر إسلامياً .. فكم من الجاهليين من نظر إلى الموت هذه النظرة !!

الوعيد:

وكانت تلك الأبيات توطئة لبيت الوعيد الذى يقول فيه :

٣٦- أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

وفى هذا البيت أمور :

١- قوله (أنبئت) ولم يقل أخبرت ، لأن النبأ خبر صادق لا يتطرق إليه شك ، والخبر الذى وصله يتصف بذلك ، لأنه موثق ، فقد جاءه عن طريق أخيه بجير.

٢- وقد بنى الفعل للمجهول لسببين :-

أ- أنه لا يتعين بتعيينه غرض ، فما فائدة الإخبار بالمنبئ طالما أن الخبر صادق ؟

ب- أن مقام الاستعطاف يناسبه ألا يحقق الخبر بالوعيد .

٣- فى البيت تكرار لذكر (رسول الله) وذلك لإظهار التضخيم والتعظيم من جهة ، ومن جهة أخرى إقرار بالشهادة من كعب وإظهار لإسلامه ، وذلك مقتض للعفو ، ومستجلب للرضا .

٤- قال (عند رسول الله) ولم يقل (من رسول الله) لأن (عند) أدل على التضخيم ، ولتقوية الرجاء ، لأنه قد ثبت وتواتر أن الصفح من أخلاق الرسول ﷺ ، وأنه لا يجزى السيئة بالسيئة ، ولكنه يعفو ويغفر ..

وقد ذكروا أن النبى ﷺ لما سمع هذا البيت قال : (العفو عند الله) ..

٣٧- مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ قرآن فيه مواعيظ وتفصيل

وفيه نقاط :

١- أنه تتميم للاستعطاف ، والاستعطاف من جهات :

أ- ما اشتمل عليه طلب الرفق به والأناة فى أمره بقوله (مهلا) .

ب- الدعـــاء ، فى قوله (هداك الذى) أو ربما كان ذكراً لنعمة من نعم الله عليه .

جـ- التذكير بنعمة الله عليه ، ليكون ذلك أدعى للعفو ، شكرا للنعمة ، المتمثلة فى (الهداية) و (نافلة القرآن) ..

د- الاعـــتراف والإقـــرار بالقرآن وأنه منزل من عند الله ، وذلك بعد الإقرار بنبوة رسول الله فى البيت السابق .

و- يـــبدو أن كعـــبا كـــان قد سمع من الذكر الحكيم من آيات ما جعله يصف القرآن هذا الوصف (فيه مواعيظ وتفصيل) .

الاعتذار :

٣٨- لا تأخذنـــى بأقـــوال الوشـــاة ولم   أذنب ولـــو كثرت عنى الأقاويـــل

٣٩- لقد أقوم مقامـــاً لـــو يقـــوم بـــه   أرى وأسمـــع ما لـــو يسمع الفيل

٤٠- لظـــل يرعـــد إلا أن يكـــون لـــه   مـــن الرســـول بـــإذن الله تنويـــل

٤١- حتـــى وضعت يمينى لا أنازعـــه   فـــى كف ذى نقمـــات قيله القيـــل

هـــنا يـــبدأ الاعتذار للرسول ﷺ ، وقد جاء اعتذاره فى صورة لا تبعد عن صورة اعتذار النابغة للنعمان بن المنذر .

- فكلاهما اتهم الوشاة بتدبير الوشاية .
- وكلاهما برّأ نفسه من التهمة .
- ثم وصف كلاهما نفسه بأنه لا حول له ولا قوة أمام بطولة المعتذر إليه .

• لكـــنهما اختلفا فى تصوير ضعفهما ، فبينما رأينا النابغة يتخذ من المـــلاح – الـــذى تـــتقاذف سفينته الأمواج الهادرة وتكاد تغرقه – معـــادلاً موضوعياً له ، والنعمان يرغى ويزبد ... الخ . نجد كعباً يصور ضعفه وزلزلته أمام قوة النبى ﷺ فى صورتين :

– يخـــتار فى الصورة الأولى أثقل الحيوان وزناً ، وبالتالى فهو أكثر ثباتاً على الأرض ، ويقول : لو أن هذا الفيل وقف موقفى (لظل يرعد) أى لبســـت رجفـــة طارئة ، أو رعدة سريعة ، بل لاستمر فى زلزلته وارتجافه حتى يعفو عنه النبى ﷺ .

– وإذا كان – فى الصورة الأولى – قد ركز على موقفه هو ، فإنه فى الثانـــية يركز على قوة النبى ﷺ فاختار الأسد وشبهه به ، ولكنه ليس أسداً عادياً ، وإنما وفّر له من الصفات ما جعله فريداً بين جنسه :

١– فهو فى عرينه ، وما أدراك ما الأسد فى عرينه ؟! كأن كعباً تَخَيَّل أن قدميه ساقتاه إلى عرين ذلك الأسد ، فهل هناك بصيص من أمل فى نجاته ؟! .

٢– وانظر كيف جمع بين اسمين من اسمائه (من ليوث– الأسد) .

٣– ومسكنه (ببطن عثر) أى ليس مكاناً ظاهراً واضحاً حتى يُجْتنب .

٤– ثـــم هـــناك الغابات الكثيفة و الأشجار الملتفة ، فلا أمل فى إغاثة مستغيث تسوقه قدماه إلى ذلك الموضع .

٥- وإذا كانـــت الأســـود معروفة بشدة ضراوتها ، فإن هذا الأسد أشد ضراوة ، ذلك لأن له شبلين يقوم على إطعامهما .

٦- ثم إنه عودهما على طعام معين ، إنه لحم الآدميين ..

٧- ويقـــوم الأسد الأب بتقطيع فريسته (جسد الآدمى) قطعا صغيرة ، لييسر أكل الشبلين لذلك اللحم .

٨- وهو أسد لم يعرف للهزيمة طعماً ، فقد اعتاد النصر على الأقران، إنه أسد الأسود .

٩- والحمـــر الوحشـــية لا تجـــرؤ أن تقترب من هذا المكان ، وكذلك الصيادون يؤثرون السلامة فلا يقربونه .

١٠- بـــل إن الفـــارس المغوار الذى يقول هاأنذا ، واثقاً بنفسه ، مدلاً بشجاعته مفتخراً ببطولته ، تجده ممزق الثياب ، وأمره ينتهى إلى أن يصير مأكولاً .

١١- ثم جعله مالكاً للوادى كله ، فقال (بواديه) ..

كل هذه الصفات خلعها كعب على ذلك الأسد ، ثم جعل الرسول ﷺ أهيب منه .

فى البيت رقم (٣٦) قال : (والعفو عند رسول الله مأمول) .

وفى البيت رقم (٤٠) قال : (من الرسول - بإذن الله تنويل) .

ويبدو صحة ما ورد من أنه حين ذكر البيت الأول صحّح له النبى ﷺ قائلاً :بل العفو عند الله.ومن ثم استدرك فى البيت الثانى فقال (بإذن الله).

وظـــل كعب مرتعدا مرتجفا حتى وضع يده فى كف رسول الله ﷺ ، ويصف كعب كف النبى قائلاً – (فى كف ذى نقمات) .

فما المراد بـــ (نقمات) ؟

نقمـــات : جمـــع نقمـــة ، وفى الذكر الحكيم ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ [البروج / ٨] والمعنى : كرهوا ، وعابوا ، وأنكـــروا . ونقم منه نقماً أى عاقبه ، والنقمة : العقوبة . قال تعالى على لسان سحرة فرعون :

﴿ ... وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا .. ﴾ [الأعراف / ١٢٦] وقال تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ ...

ومن المعلوم أن النبى ﷺ ما انتقم لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمات الله .. فإهدار النبىِّ دم كعب إنما هو لذمّه الرسالة ، وليس شخص محمد ..

وقولـــه فى البيت (٤٢) وقيل إنك منْسُوبٌ ومَسئول ، أى ستسأل عن نســـبك واســـمك ، وعمـــا نسب إليك من أقوال فيها ذم للرسالة وتعريض بالإسلام ..

وقـــيل : المعنى مع أن الناس يعرفون أننى صاحب نسب ، ومع أننى مسئول عن كلامى لشهرتى بين الناس ونسبى فيهم ، مع هذا كله أعترف أن رسول الله ﷺ أخوف عندى من الأسد .

ثـــم يؤكد إسلامه ببيان أن النبى ﷺ نورٌ أرسله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فهو هُدًى يضئ للسارين ، وكأن كعباً يشير إلى أنه

مـــن هـــؤلاء الذين أخرجوا – على يد النبى ﷺ من ظلمات الجاهلية إلى أنـــوار الإسلام .. والنبى ﷺ سيف سلّه الله على المشركين ، للقضاء على ظلمهم و بغيهم وفسادهم .

مدح المهاجرين:

ولمـــا كان مادحاً للنبى ﷺ مَدَح قومه وهم المهاجرون ، القرشيون .. فيصفهم بأنهم (عصبة) والعصبة من العشرة إلى الأربعين ، ومن المعلوم فى كتب السيرة أن المهاجرين ربما كانوا فوق ذلك بقليل ، فإذا خصصت القرشيين ربما كان العدد قريباً جدا من الأربعين .

ويركز على أمر الهجرة ،وينفى أن تكون تلك الهجرة ضعفاً أو جبنا ، فهؤلاء المهاجرون كانوا فرسانا بواسل ، وما كان لأمثال هؤلاء أن يهربوا أو يجبـــنوا ، بـــل هاجـــروا أقويـــاء ، وكتـــب السيرة تذكر أمثلة لبعض المهاجرين تؤكد ذلك ، وتبرز مدى شجاعتهم ، من أمثال صهيب الرومى ، وعمـــر بن الخطاب ، وغيرهما ، رضى الله عنهم أجمعين .. ثم أليس هؤلاء هم الذين دحروا المشركين فى بدر ؟! .

وهـــم قوم لا يطغيهم فرح بنصر ، ولا يجزعهم حزن لهزيمة ، وهو قريب من قول حسان :

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خَوَرٌ ولا هلع

شبهة التعريض بالأنصار :

قـــالوا : إن كعـــبا عرّض بالأنصار فى هذه القصيدة . يقول ابن رشيق – تحت عنوان الإشارة : ومن أنواعها التعريض ، كقول كعب بن زهير لرسول الله ﷺ :

فى فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

فعّرض بعمر بن الخطاب ، وقيل بأبى بكر – رضى الله عنهما – ، وقيل برسول الله ﷺ تعريض مدح . ثم قال :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضَرْبٌ إذا عَرَّد السُّود التنابيل

فقيل إنه عرض فى هذا البيت بالأنصار ، فغضبت الأنصار ، وقال المهاجرون : لم تمدحنا إذ ذممتهم .[1]

وقـــد أيدوا وجهة نظرهم بما ورد من أن المهاجرين توسطوا للعفو عن كعـــب ، فانتهوا به إلى النبى ﷺ وعفا عنه ، بينما همّ بعض الأنصار بضرب عنقه مستأذناً النبى ﷺ .

وهذه الشبهة تتهاوى وتنتفى بعدة أمور :

١– أن كعـــبا أحد أعلام مدرسة الصنعة ، التى لا ترتجل الشعر ارتجالاً ، وإنما تعدّه إعداداً قبل إنشاده . فكعب – بناء على ذلك – أعدّ قصيدته قبل أن يركب ناقته ، ويبدأ رحلته للقاء الرسول فى المدينة .

فمـــن أين له أن يعلم أن الأنصار سوف يحرّضون الرسول ضده ، بينما يتوسط له المهاجرون للعفو عنه ؟! .

---

[1] العمدة ١ / ٣٠٣ ، ٣٠٤

يقــول ابــن قتيبة : "فقال قصيدته التى أولها (بانت سعاد) ثم أتى رسول الله ."

٢- مــن عادة الشعراء المادحين أن يمدحوا الرجل ويمدحوا قومه ، وقوم النبى ﷺ - هم قريش - وليس كل المهاجرين ، ومن هنا قال (فى عصبة من قريش) ولم يعمّم .. فمدْح قوم النبى إنما هو مدْح له ، ورفع من شأنه كما تقضى التقاليد الشعرية فى فن المدح .

٣- لم يكن كعب يعلم بالنسيج الجديد فى المدينة المنورة ، وأنه يتكون من مهاجريــن وأنصار ، فربما لم يسمع قط بهذا الاسم (الأنصار) كما أنه لم يعرف اسم (المهاجرين) وإنما سمى الهجرة زوالا .

٤- موقــف كعب يجعله أحوج ما يكون لاسترضاء النبى ﷺ ، فكيف يبيح لنفســه أن يعرض بأصحابه جهاراً نهاراً ، وهو لا يدرى نتيجة ذلك ، فقد تكــون العاقــبة وخيمة .. ثم إنه إذا كان فى موقف اعتذار وتكذيب للوشاة أيلــيق به أن يجهر بالشتم والسب حتى يؤكد اتهامه الذى جاء لتبرئة نفسه منه ونفيه عنه ؟ .

كل ذلك ينفى هذا الاتهام لكعب ...[١]

* * * * * * * * * * * * * *

---

[١] راجع مزيدا لذلك فى كتاب الدكتور عبد الحليم حفنى / نصوص أدبيّة من العصر الإسلامى صـــ١٥٣ ط ١٩٧٥م .

تعقيبات فنية

١- الأسلوب بين الرقة والقوة

القصـــيدة تضـــم عـــدة مواقف ، الموقف الغزلى ، ووصف الناقة والـــرحلة ، والاعتذار،وتشبيه لموقف الشاعر أمام الرسول ﷺ بموقف فيل عظـــيم ، ثقـــيل ، إلا أنـــه يرتجف .. ثم تشبيه الرسول بالأسد .. ومدح للمهاجرين ...

وكـــان مـــن الطبيعى أن يختلف أسلوب الأداء فى الغزل عنه فى الـــناقة، فبينما كان فى الغزل رقيقاً ، سلساً ، عذباً ، ينساب انسياباً ، نجده فى لوحة الناقة قوياً ، خشنا ، وهذا ما تطلبه الموقف،لأن هذه الناقة قوية ، صلبة ، وهى التى ستحمله فى هذا الموقف الصعب ، والظروف العصيبة والرحلة الطويلة .

والمعجم الشعرى واضح بيّن فى الأولى ، بينما فى الثانية به غرابة تضطرنا إلى الرجوع إلى قواميس اللغة .

وفـــى حديـــثه عـــن رحلته نجده كأنه ينحت الألفاظ نحتا ، لتحمل المعانى التى يريد أن يبوح بها :

تـــأمل قولـــه[1] : (مـــا زلت – أقتطع – البيداء – مدرعاً – جنح الظلام – وثوب الليل – مسدول)

---

[1] البيت ذكرته فى هامش النص لأنه ليس فى روايتنا .

فكـل كلمـة من هذه الكلمات – التى تألف منها البيت رقم ٤٢ – وضـعت بدقـة وعـناية . فقوله (مازلت) تدل على طول زمن الرحلة ، وبالتالى طول المعاناة – وقوله (أقتطع) تصور لك رجلا ممسكاً معولاً أو أداة لقطـع الصخور ، ولكنه لا يقطع ، وإنما يعاود الضرب بالآلة مرات ومـرات حـتى يقطع قطعة صغيرة – وهو يوحى بمدى المعاناة النفسية والجهـد المـبذول . والاقتطاع إنما هو لـ (البيداء) التى اشتق معناها من الإبـادة والإهلاك ، على أن لها أسماء كثيرة جداً[1] ، لكنه آثر هذا الاسم لأن الإبـادة قريبة منه ، وكأنما صار لزاماً عليه أن يقتطعها – ولو قطعة قطعة وبجهد مضاعف – قبل أن تقطعه .

وقوله (مدّرعا) أى لابساً درعاً ، ولكنه ليس درعا كسائر الدروع ، فهو ليس فى حاجة إليه ، وإنما هو فى حاجة إلى درع آخر ، إنه درع من جنح الظلام .. فهو يلبس الليل البهيم .. وقوله (جنح الظلام) يمكن أن يفهم منها أنه سلك طريقا جانبية ، حتى يكون بمبعد عن عيون أصحاب النبى[2]

وبذلك اتخذ كعب كافة التدابير الوقائية التى تمكنه من الوصول إلى مسـجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة ، وبذلك يكون قد قطع معظم الطريق للوصول إلى الحياة ..

---

(1) راجع لذلك : المخصص لابن سيده ، وأثر الصحراء فى الشعر الجاهلى .

(2) راجع : من الأدب القديم ١٠٦ .

ويـــرى الدكتور عبد القادر القط[1] أن الاختلاف فى الأسلوب ظهر حـــتى فى داخل المقطوعة الواحدة من مقطوعات القصيدة ، فقد بدأ يعتذر إلـــى النبى فى أسلوبه السهل ، إلى أخذ يتحدث عن تهيّبه وهو مقبل عليه لأول مرة ، فشبه نفسه بالمقبل على أسد يثير الخوف والرهبة ، فارتد إلى الغرابة والجزالة ، مستمداً صورة من التراث الجاهلى . انظر الأبيات من [٤٢ إلى ٤٧]

****

٣- التصوير الأدبى:

فى القصيدة بعض الصور البيانية الرائعة ، منها :

- وما سعاد .... إلا أغن ..
- تجلو عوارض ذى ظلم .. كأنه منهل ..
- كما تلـــــون فى أثوابها الغـــول
- .... إلا كما يمسك الماء الغرابيــــل
- .... مدرعا جنح الظلام وثوب الليل مسدول
- يمشون مشى الجمال الزهر ....

- وهناك صورة الفيل ، وقد أشرنا إليها .
- وكذا صورة الأسد ..

****

---

(1) فى الشعر الإسلامى والأموى ٢٢ دار النهضة العربية .

٣- القصيدة بين الجاهلية والإسلام:

في هذه القصيدة لا نجد أثراً كبيراً للإسلام ، ذلك أن كعبا لم يكن قد عرف عن الإسلام شيئاً ، سوى :

- حديثه عن الرسول ﷺ [رسول الله] ، [العفو عند رسول الله مأمول] وربما عرف هذه من رسالة بجير .
- حديثه عن القرآن الكريم وأن فيه مواعيظ وتفصيلا .
- حديثه عن هجرة صحابة النبي من مكة إلى المدينة لكنه سماها (زوالا).

قالوا : وإيمان كعب بالقدر ، وأن الموت كأس يشربه كل الناس ... أثر إسلامي .

ونقول : ليس بالضرورة .. فقد ورد ذلك في شعر الجاهليين ..

فالقصيدة – فنيًا – شكلا وموضوعا ، أدخل في الجاهلية ..

****

المصادر والمراجع

أ- المصادر

قصيدة البردة لكعب بن زهير / شرح أبى البركات ابن الأنبارى .

ب- المراجع :

- أسد الغابة / طـ دار الشعب .
- الإصابة / تحقيق د/طه الزينى مكتبة الكليات الأزهرية ط أولى ١٩٧٦.
- البعد الآخر فى الإبداع الشعرى / د/ محمد أحمد العزب .
- التركيب اللغوى للأدب / د/ لطفى عبد البديع . لونجمان .
- تمرد طرفة / د/ زكريا النوتى - مطبعة الحسين الإسلامية .
- ثور الوحش بين النابغة وذى الرمة د/ زكريا النوتى / إيتراك .
- الشعر والشعراء / لابن قتيبة .
- طبقات الشعراء / لابن سلام .
- العمدة لابن رشيق - تحقيق محى الدين عبد الحميد - طـ دار الجيل.
- فى الشعر الإسلامى والأموى/ د / عبد القادر القط دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٧م .
- من الأدب القديم / د/ عبد الحليم حفنى ١٩٨١.
- نصوص أدبية من العصر الإسلامى د/ عبد الحليم حفنى ١٩٧٥.

عينيــة أبى ذؤيب الهذلــى

فى ضوء وحدة "القصيدة"

عينية أبى ذؤيب

القصيدة والشاعر

١- القصيدة :

وهى من روائع الشعر العربى بعامة، والمراثى خاصة، ولا سيما رثاء الأبناء.

ولعلها أبرز وأشهر قصائد أبى ذؤيب، فهى تسامى -بجدارة- عيون الشعر الجاهلى، لذا ضن كثير من الدارسين بها على الشعر الإسلامى، فأقحموها ضمن الشعر الجاهلى، وراحوا يدرسونها على أنها منه، وذلك ليسلم لهم رأيهم بأن : الشعر قد ضعف فى عصر صدر الإسلام.

مع أن مناسبة القصيدة واضحة مشهورة، إذ هى فى رثاء أبنائه الذين ماتوا بالطاعون فى عام واحد زمن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-.

وذكر الأصفهانى(١)، أن الخليفة أبا جعفر حين مات ابنه الأكبر (جعفر) طلب أن تنشد عليه هذه القصيدة من أهل بيته، حتى يتسلى بها، فلم يجد حاجبه فى الحاضرين من بنى هاشم من يحفظها، ثم وجد له شيخا كبيرا مؤدبا من غيرهم، أنشده إياها وأجازه، وقال - أى الخليفة- : والله لمصيبتى بأهل بيتى ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذا - لقلة رغبتهم فى الأدب- أعظم وأشد من مصيبتى بابنى .أ.هـ. وفيه نظر.

---

(١) الأغانى ٢٧٣/٦.. ترجمته وأخباره فى : الأغانى ٢٦٥/٦، طبقات ١٣٢/١، معجم الأدباء ٨٦/١١، العمدة ٨٣/١-٨٤، الشعر والشعراء ٦٥/١، خزانة الأدب ٤٢٠/١، العقد ١٨٤/٢، تاريخ التراث العربى/ العصر الجاهلى جـ٢/ ٢٥٥، شعر الهذليين د/أحمد كمال زكى٣٢٩.

٣- وأما الشاعر فهو:

خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم... ينتهى نسبه إلى تميم بن سعد بن هذيل..

اشتهر بكنيته (أبى ذؤيب).. عاش فى الجاهلية والإسلام، ومات فى خلافة عثمان بن عفان -رضى الله عنه-.

شاعر فحل، من شعراء هذيل المعدودين، قال أبو عمرو بن العلاء : سئل حسان من أشعر الناس؟ قال: حيا أو رجلا؟ قيل حيا. قال: أشعر الناس حيا هذيل، وأشعر هذيل - غير مدافع- أبو ذؤيب. وهو -عند ابن سلام- فى الطبقة الثالثة، مع النابغة الجعدى ولبيد والشماخ. وقال عنه: كان أبو ذؤيب شاعرا فحلا، لا غميزة فيه ولا وهن. وشهد له بالشاعرية: ابن رشيق، وابن قتيبة، والبغدادى، وابن عبدربه، والخالديان.. وقد حظيت القصيدة باهتمام الدارسين، فقامت حولها دراسات، وكتبت فيها بحوث ومقالات، منها:

دراسة للدكتور محمد أبى موسى فى كتابه: قراءة فى الأدب القديم، ودراسة للدكتور مصطفى ناصف فى كتابه صوت الشاعر القديم، وثالثة للدكتور كمال أبوديب فى كتابه : الرؤى المقنعة - نحو منهج بنيوى فى دراسة الشعر الجاهلى. ودراسة عن مقطع حمار الوحش وأتنه فى القصيدة للدكتور زكريا النوتى. وتحليل لها فى كتاب الأسلوبية والتقاليد الشعرية للدكتور محمد أحمد بريرى.. والدكتور محمد النويهى فى كتابه الشعر الجاهى -منهج فى دراسة وتقويمه، وتناولها من المنحى الموسيقى الدكتور عبدالله الطيب فى كتابه المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها... وغيرها.

* * *

والقصيدة مقسمة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول فى خمسة عشر بيتا، حاول الشاعر من خلاله أن يعزى نفسه ويسليها، ويكفكف من شدة حزنها ولوعتها، لأن التوجع لا يرد ما فات، والموت حتم لا مفر منه، وهو مصير كل حى **﴿كل شـــئ هالك إلا وجهه﴾** ... هذا الموت حين ينشب أظفاره لا يستطيع كائن من كان أن يرده، فمن ذا الذى يدرأ الموت عن نفسه؟!. وما من طريق لتفادى الموت أو تحاشيه..

السبيل إذاً أن نحاول تهدئة النفس، وتعويدها على أقل القليل من الحزن، وألا نرغبها فيه..

ثم يأتى المقطع الثانى بدءا بالبيت السادس عشر، وبمفتاح يتكرر فى المقاطع الثلاثة:

والدهـــر لا يبقـــى على حدثانـــه ....

وفى هذا المقطع يتناول صراع الحمار وأتنه مع الموت من خلال واحد وعشرين بيتا، يركز فيها على حياة الحمار السعيدة مع أتنه حيث توافرت له مقومات الحياة السعيدة.. والأتن تأكل وتشرب وتلعب وتمرح، فيشاركها الحمار أحياناً.. وما هو إلا أن انقلبت بهم الحياة، وقادتهم سريعاً نحو الموت..

أما المقطع الثالث، الذى بدأ بالبيت السابع والثلاثين منتهياً بالبيت الخمسين، فعالج فيه صراع الثور الوحشى مع الموت.. وكيف أنه عاذ بالأرطى هروباً من عوادى الزمن، وما أن زالت هذه العوادى وراح يعرض متنه للشمس حتى فوجئ بالخطر الأكبر (الكلاب)، ولم يجد بدًّا من منازلتها، وقد أحرز النصر فعلا، لكن صاحب الكلاب تدخل فحسم المعركة.

والمقطع الرابع والأخير استغرق خمسة عشر بيتاً من الحادى والخمسين إلى الخامس والستين.. وفيه صراع بطل صنديد مغوار، أخذ للموت أهبته، فلبس كامل الثياب الحربية، والدروع السابغة وهو يصارع كفئاً له وندًّا، كلاهما حريص على المجد، واثق فى قدراته وشجاعته، وانتهى صراعهما معاً بقتلهما..

* * *

ومقاطع القصيدة كلها ليست منفصمة بعضها عن بعض، بل يربطها وينتظمها خيط جامع:

* فصراع الحياة والموت هو عنوان المقاطع كلها، والموت لم يسلم منه أحد، وقد كانت البداية بأبنائه الذين تخرموا واحدًا بعد الآخر، ثم الأب – الشاعر– الذى يوقن أنه لاحق بهم، وهناك من سيتبعه (وإخال أنى لاحق مستتبع).

* ثم ينتقل من عالم الذات، والمستوى الفردى، إلى المستوى الجمعى، من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان، الذى لم يسلم فيه حمار الوحش وأتنه من الموت، على الرغم من أن الحمار اتخذ كافة التدابير الوقائية لتسلم حياته وحياة أتنه، وليتفادى أى خطر أو فقد وضياع. ضياع إناثه بأن يختطفها حمار آخر، أو بتخطف الموت له ولها. وقد بذل الحمار– فى سبيل ذلك– كل ما فى وسعه، وليس فى وسعه سوى بذل الجهد فى سلوك الطرق الوعرة، ثم الجرى عند تحسس خطر الصياد المتربص..

غير أن ذلك كله لم يجد نفعاً.. وكانت النهاية المحتومة : الموت.

* وإذا كان الحمار ضعيف الحيلة، لا سلاح له إلا الجرى، فإن الثور يمتلك الوسيلة للدفاع عن نفسه، والذود عن حياته.. لقد عاذ بالأرطى أولا، وراح يرهف سمعه، ويحد بصره، لكن الكلاب بادأته بالشر، وفكر فى الجرى والفرار، لكن عِزَّتَه أبَتْ عليه ذلك.. فتذكر أن له سلاحا فتاكاً، فاستخدمه، إنهما القرنان الرهيبان اللذان يشبهان السفودين وها هو يجرح

بعض الكلاب، ويردى البعض، وحينئذ تدخل الصياد ليحسم الصراع، وليبقى على بقية الكلاب.. فصوب سهامه تجاه الثور فأرداه قتيلاً.

ثم يعود إلى عالم الإنسان، وهنا فارسان مجربان خبيران بالحروب، يعرفان طريق المجد، وكلاهما حريص على الانفراد به، وقد أخذ كل منهما أهبته للحرب، من سيف ورمح ودرع وقناع وفرس... إلخ..

ومع ذلك لم يسلم واحد منهما، بل ضرب كل منهما الآخر فخرّا صريعين.. كأن الشاعر يريد أن يقول:

وهكذا يموت الجميع، فمنهم من يمرض كأبنائه الذين أصابهم الطاعون، ومنهم من يحاول الفرار والهروب كالحمار، ولكنه يموت هناك، عند مصدر الحياة (الماء).. ومنهم من يستخدم أسلحته الفتاكة ولكن هناك ما هو أشد فتكاً..

بل إن المجرّبين، خبراء الحروب، محققى المجد.. يموتون كذلك.. إذًا فعلام الحزن؟! ولم التوجع طالما أن : (لكل جنب مصرع)؟!

وكأنه أراد أن يقرر: أن الإنسان الذى طغى وبغى وتعدى على الحمار فقتله، وأغرى كلابه بالثور ثم تدخل هو فقتله.. انتصر كلاهما، ولكن: ماذا بعد النصر؟! إنه الموت. إن المنتصر اليوم سيأتيه حتفه غداً.

النص*

١- أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِهَا تَتَوجَّعُ ... والدَّهْرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[1]

٢- قالتْ أُمَيْمَةُ : ما لِجِسْمِك شَاحِبًا ... مُنْذُ ابْتُذِلْتَ، ومِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ[2]

٣- أَمْ مَا لِجَنْبِكَ لا يُلَائِمُ مَضْجَعاً ... إِلَّا أَقَضَّ عَلَيْكَ ذَاكَ المَضْجَعُ[3]

٤- فأَجَبْتُهَا : أَمَّا لِجِسْمِي أَنَّه ... أَوْدَى بَنِيَّ مِنَ البِلَادِ فَوَدَّعُوا[4]

٥- أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ[5]

٦- سَبَقُوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[6]

٧- فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ ... وَإِخَالُ أَنِّي لَاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ[7]

٨- ولَقَدْ حَرَصْتُ بأَنْ أُدَافِعَ عَنْهُمُ ... فَإِذا المنيَّةُ أَقْبَلَتْ لاَ تُدْفَعُ

٩- وإذا المنيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ[8]

---

* هو فى المفضليات ٤١٩ تحقيق شاكر وهارون ق ٦٢١ وشرح أشعار الهذليين للسكرى ٢٠٧/١، ٢١١ وديوان الهذليين – ط دار الكتب ١٩٥٠، وانظر: الأغانى ٢٦٥/٦، خزانة الأدب ٤٢٠/١، ٤٢١، العقد ١٠٦/٦–١٠٧، وهى فى الأشباه والنظائر للخالديين ٣٥٥/٢، جمهرة أشعار العرب ٦٦٦/٢.

(١) ب١المنون: الدهر أو المنية. بمعتب، يراجع ما فات ومات. الجزع: ضد الصبر.

(٢) ب٢ الشحوب : تغير اللون إلى الصفرة لحزن أو هم أو مرض، وشحوب الجسم: نحوله وهزاله. ابتذلت: امتهنت.

(٣) ب٣ أقض المضجع: صار خشناً كأن به حجارة صغيرة.

(٤) ب٤ أودى: هلك .. ودعوا: ماتوا.

(٥) ب٥ لا تقلع: لا تمسك أو لا تتوقف عن الدمع.

(٦) ب٦ هويّ: هواى على لغة هذيل. أعنقوا: خضعوا، أو ساروا العنق أى سارعوا. فتخرموا: أخذوا واحداً بعد واحد.

(٧) ب٧ غبرت : بقيت ، أو عشت. ناصب: ذو نصب وهو التعب والشدة.

(٨) ب٩ التميمة: هى كل ما يعلق فى صدر أو رقبة أو أذن الصبى كتعويذة له.

١٠-فالعين بعدهُمُ كأنّ حِدَاقَها سُمِلَتْ بشَوْك فهْىَ عُورٌ تَدْمعُ[(١)]
١١- حَتّى كأنّى للحَوادِثِ مَرْوَةٌ بصَفَا المُشَرّق كلَّ يَوْم تُقْرَع[(٢)]
١٢- وتَجلُّدى للشّامتين أُريهمُ أَنّى لريْب الدَّهْر لا أتَضَعْضَعُ[(٣)]
١٣- والنَّفْسُ راغبةٌ إذا رَغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قليل تَقْنَعُ
١٤- ولئن بهم فَجَعَ الزمانُ وريْبُه إنى بأهل مودّتى لمُفَجَّع
١٥- كَمْ من جَمِيع الشَّمْلِ مُلْتَئم القُوَى كانُوا بعَيْشٍ قبْلَنا فتَصَدَّعُوا

* * *

-٢-

١٦- والدَّهْرُ لا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانه جَوْنُ السَّرَاة له جدائدُ أَرْبَعُ[(٤)]
١٧- صَخِبُ الشَّوَارب لا يَزَال كأنَّه عَبْدٌ لآل أبى رَبيعَةَ مُسْبَعُ[(٥)]
١٨- أكلَ الجَميمَ وطَاوَعَتْه سَمْحَجٌ مثْلُ القَنَاة وَأزْعَلَتْه الأمْرُعُ[(٦)]
١٩- بِقَرَارِ قيعَانٍ سَقَاهَا وَابِلٌ وَاهٍ فأثْجَمَ بُرْهَةً لا يُقْلِع[(٧)]

---

(١) ب ١٠ الحداق: جمع حدقة.. سملت: فقئت.

(٢) ب١١ المروة: واحدة المرو، وهى حجارة بيض يقدح منها النار. المشرق: المصلى، وخصه هنا لكثرة المارين به.

(٣) ب١٢ أتضعضع: أضعف.

(٤) ب١٦ حدثان الدهر : مصائبه ونوازله. الجون : الأسود إلى الحمرة. السراة : الظهر. الجدائد : جمع جدود، وهى الأتان التى خف لبنها.

(٥) ب١٧ صخب الشوارب : كثير النهيق. والشوارب : مجارى الماء فى الحلق أو العنق، أو مخارج الصوت فى الحلق. آل أبى ربيعة: أبو ربيعة هو ابن ذهل بن شيبان، وقيل: إنه من بنى عامر. المسبع: الذى دخلت السباع فى غنمه. وقيل: هو الذى أهمل مع السباع فصار كالسبع لخبثه.

(٦) ب١٨الجميم : النبت الكثير، تراكم بعضه فوق بعض حتى صار كأنه جمة الشعر، وأصله من جم أى اجتمع. سمحج: أتان طويلة. أزعلته: نشطته. الأمرع: جمع مرع وهو الروض المخصب.

(٧) ب١٩ القرار : مستقر الماء.القيعان: جمع قاع. الواهى : المتكسر. أثجم: أقام وثبت.

٢٠- فَلَبِثْنَ حيناً يَعْتَلِجْــنَ برَوْضِــهِ　　فَيَجِدُّ حيــنًا فى العِــلَاجِ ويشمــع [١]

٢١- حتَّى إذا جَــزَرَتْ مياه رُزُونـــه　　وبــأَىِّ حيــنِ مــــلَاوَةٍ تَتَقَطَّــــع [٢]

٢٢- ذَكَــرَ الوُرُودَ بها، وشَاقَى أَمْرَهُ　　شُـــؤْمٌ، وأَقْــبَلَ حَيْنُـــه يتَتَبَّــع [٣]

٢٣- فافْتَنَّهُــنَّ مِــنَ السَّوَاءِ ومَـــاؤُه　　بَثْــرٌ، وعَانَــدَه طريــقٌ مَهْيَــعُ [٤]

٢٤- فَكَأَنَّهَــا بالجِــزْعِ بَيْــنَ نُبَايِــعٍ　　وأُولَاتِ ذى العَرْجَــاءِ نَهْبٌ مُجْمَعُ [٥]

٢٥- وكأَنَّهُــنَّ رِبَابَـــةٌ، وكَأَنَّـــه　　يَسَرٌ يَفيضُ على القِــدَاحِ ويَصْــدَع [٦]

٢٦- وكأنَّمَــا هُوَ مِــدْوَسٌ مُتَقَلِّــبٌ　　فى الكَــفِّ، إلا أنَّــه هُــوَ أَضْلَــع [١]

---

(١) ب٢٠ لبثن : أى الحمار وأتنه. يعتلجن: يتسابقن ويتصارعن ويعض بعضهن بعضا وذلك من فرط نشاطهن. فيجد حينا: أى الحمار يأخذ الأمر مأخذ الجد، ويشمع: أى يشارك الإناث اللعب أحيانا.

(٢) ب٢١ جزرت: جف الماء وظهرت الأرض فى صورة جزر بعد انحسار الماء. رزونه : جمع رزن وهو مكان فى الجبل يسكن فيه الماء. الملاوة: الزمن والدهر.

(٣) ب٢٢ ذكر : أى الحمار. الورود بها: أى بتلك العيون وذلك حين انقطعت ماء السماء، شاقى: من الشقاء. الحين : الهلاك.

(٤) ب٢٣افتنهن: فرقهن يطردهن فنونا وأنواعا من الطرد. السواء : رأس الحرة، وهى الأرض ذات الحجارة السوداء. بثر: كثير. عانده: عارضه. المهيع: البين الواضح.

(٥) ب٢٤ الجزع: منقطع الوادى. نبايع: موضع. العرجاء: أكمة أو هضبة. أولاتها: قطع حولها من الأرض. أى كأن العير والأتن وهو يطردها فى هذه الأماكن نهب مجمع: أى إبل انتهبت فأجمعت فجعلت شيئاً واحداً.

(٦) ب٢٥ الربابة –بكسر الراء- : رقعة تجمع فيها قداح المسير، والمراد بها هنا القداح، وإنما شبه الحمار باليسر، وهو صاحب الميسر، وشبه الأتن بالقداح لاجتماعهن. يفيض: يدفع. على: بمعنى الباء. يصدع : يشق ويفرق.

٢٧-فوردن والعيوق مقعد رابىء الضـ ... رباء فــوق النظم لا يتــتلع

٢٨-فشرعن فى حجرات عذب بارد ... حصب البطاح تغيب فيه الأكرع

٢٩- فشربن ثم سمعن حسًّا دونه ... شرف الحجاب وريب قرع يقرع

٣٠- ونميـمـةً من قـانصٍ متَلَبِّب ... فى كـفـه جشء أَجَشُّ وأَقْطع

٣١- فنكرنه، ونفرن، وامترست به ... سطعــاء هادية، وهادٍ جــرشع

٣٢- فرمى فأنفذ من نجود عائط ... سهـمـا، فخر وريشه متصمع

٣٣- فـبـدا له أقـراب هذا رائغاً ... عجلاً، فعيث فى الكنانة يرجع

٣٤- فرمى فألحق صاعديا مطحراً ... بالكشح فاشتملت عليه الأضلع

٣٥- فأبدهن حتوفهن فهارب ... بذمـائه أو بارك متجـعـجع

٣٦- يعثرن فى حد الظباة كأنما ... كــسيت برود بنى يزيد الأذرع

ب٢٧ العيوق: نجم من النجوم الشائعة الذكر، وهو من النجوم ذوات القدر الأول في الحجم، ومكانه وراء الثريا لجهة الشرق والشمال، ويطلق عليه «رقيب الثريا»، ويكاد لا تذكر الثريا إلا ومعها العيوق . قال حاتم الطائي:

وعاذلة هبت بليل تلومني ... وقد غاب عيوق الثريا فعردا

ويطلع العيوق والثريا معا في الصباح عند اشتداد الحر . انظر (النجوم في الشعر العربي القديم ١٧٤، د/ يحيى عبد الأمير شامي -دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط أولي ١٩٨٢)

مقعد: ظرف منصوب . الضرباء: قوم يضربون بالقداح، الواحد ضريب، ورابئهم: رجل يقعد فوق القوم الذين يضربون بالقداح ينظر ما يعملون، ويحفظ ما يتهد منها مخافة أن يبدل .

النظم: نظم الجوزاء . لا يتتلع: لا يتقدم ولا يرتفع.

ب٢٨ شرعن: أي مدت الحمر أعناقهن ليشربن . الحجرات: النواحي، الواحد حجرة . الحصب: الذي فيه حصباء . البطاح: بطون الأودية . الأكرع: جمع كراع يعني أكرع الحمير.

ب٢٩ الحجاب: الحرة. وشرف الحجاب: ما ارتفع منها عند منقطعها . ريب قرع يقرع: أي سمعن ما يريبهن من قرع قوس وصوت وتر.

ب٣٠ نميمة القانص: أي ما نم عليه من حركة، متلبب: متحزم بثوبه أو متقلد كنانته . الجشء: القضيب الخفيف من النبع تعمل منه القوس . الأجش: الذي في صوته جشة كالجشة في حلق الإنسان، أقطع جمع قطع وهو النصل القصير العريض.

٣١- السطعاء: الطويلة العنق. الهادية: المقدمة. الجرشع: الغليظ المنتفخ الجنبين . امترست: دنت ولزقت .أي نكرت الحمير الصائد فلزمت الحمار أتان سطعاء هادية، وامترس هو بها أيضا.

ب٣٢ فرمي: أي الصياد . النجود: الأتان السمينة . العائط: التي اعتاطت رحمها فبقيت أعواما لا تحمل ، متصمع: منضم من الدم.

ب٣٣ أقراب: خواصر . رائغا: عادلا . عيث: مد يده إلي كنانته ليأخذ سهما.

ب٣٤ الصاعدي: المرهف، نسبة إلي قرية باليمن يقال لها صعدة . المطحر - بكسر الميم -: السهم البعيد الذهاب . وبالضم -: الذي ألزقت قذذه أي ريشه . الكشح: ما بين الخاصرة إلي الضلع الخلف، وإنما رمي الكشح لحذقه بالرمي، لأنه ليس بينه وبين الجوف عظم يرد السهم عليه . علي السهم.

ب٣٥ أبدهن حتوفهن: أعطي كل واحدة منهن حتفها علي حدة، لم يقتل اثنتين بسهم واحد، ولم يقتل واحدا ويدع واحدا .الذماء: بقية النفس . المتجعجع: الساقط المتضرب.

ب٣٦ أي تعثر الحمير والسهام فيهن . تزيد: ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، تنسب إليهم البرود، شبه طرائق الدم على أذرعها بطرائق في تلك البرود، لأن فيها حمرة.

٣٧- والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَدَثانِــه ... شَبَـبٌ أَفزَتْــهُ الكلابُ مُـرَوَّعُ(1)

٣٨- شَعَفَ الكلابُ الضَّارِيَات فُؤَادَه ... فإذا رَأى الصُّبْحَ المُصَدَّقَ يَفْزَعُ(2)

٣٩- ويَعُوذُ بالأَرْطَــى إذا ما شَفَّــه ... قَطْرٌ ورَامَتْــه بَليــلٌ زَعْــزَعُ(3)

٤٠- يَرْمِى بعَيْنَيْه الغُيُوبَ وطَرْفُــه ... مُغْضٍ يُصَدِّقُ طَرْفُــهُ ما يَسْمَعُ(4)

٤١- فَغَــدَا يُشَــرِّقُ مَتْنَــه فبَــدَا له ... أُولَى سَوَابقِهــا قَرِيبًــا تُــوزَعُ(5)

٤٢- فاهْتَاجَ من فَزَعٍ وسَدَّ فُرُوجَــه ... غُبْرٌ ضَوَارٍ : وَافِيَان وأَجْــدَعُ(6)

٤٣- يَنْهَشْنَهُ، وَيَذُبُّهُــنَّ، ويَحْتَمِــى ... عَبْلُ الشَّــوَى بالطُّرَّتيْــن مُوَلَّعُ(7)

---

(١) ب٣٧ الشبب: المسن. أفزته الكلاب: أفزعته وأزعجته وطردته. مروع: أصابه الروع.

(٢) ب٣٨ شعف الكلاب فؤاده: حيرته وأذهبت عقله. الصبح المصدق: أى الصادق المضئ.

(٣) ب٣٩ يعوذ: يلجأ. الأرطى: واحدته أرطاة، شجر شوكى ينبت فى الرمال يلوذ به الثور دائما من المطر والريح العاصف. شفه: أذاه وأجهده. والبليل: الريح الباردة والزعزع: الشديدة التى تزعزع الأشجار.

(٤) ب٤٠ الغيوب: جمع غيب وهو المكان المنخفض من الأرض.. طرفه مغض: يتسمع أو يحدق النظر، يقول: إن الثور إذا سمع شيئا رمى ببصره فكان ذلك تصديقاً له.

(٥) ب٤١ يشرق متنه: يعرض ظهره للشمس وقت الشروق. فبدا له: للثور. أولى سوابقها: أول كلب من الكلاب. توزع: أى يقوم صاحبها بمنعها من المهاجمة منفردة حتى تجتمع الكلاب.. وقيل: توزع: تغرى بالثور.

(٦) ب٤٢ فاهتاج من فزع: أخذه الهياج بسبب الفزع. سد فروجه: الفروج ما بين القوائم أى أن الثور حين رأى الكلاب مقبلة عليه اشتد فى الجرى حتى سد ما بين قوائمه من فروج تلك الغبر: الكلاب. والمعنى: أن ثلاثة من الكلاب أدركته من خلفه فدخلت بين قوائمه لتعوقه عن الجرى. وافيان: سالمان من القطع. وأجدع: مقطوع الأذن علامة وسمة مميزة له.

(٧) ب٤٣ ينهشنه: النهش بالمهملة الأخذ بمقدم الفم، وبالمعجمة أخذ من بعيد. عبل الشوى: ضخم القوائم غليظها. والطرتان: الخطان فى الجنب. مولع: التولع اختلاط اللون بين سواد وبياض.

٤٤- فَنَحَا لَهَـا بِمُذَلَّقَيْـنِ كَأَنَّمَـا ‏ ‏ بِهِـمَا من النَّضْخِ المُجَـدَّحِ أَيْدَعُ[١]

٤٥- فَكَـأَنَّ سَفُّودَيْـنِ لَمَّا يُقْتَـرَا ‏ ‏ عَجِلا له بِشِـوَاءِ شَـرْبٍ يُنْـزَعُ[٢]

٤٦-حتى إذا ارتدَّتْ وأَقْصَدَ عُصْبَةً ‏ ‏ منـها وقَـامَ شَرِيـدُها يَتَضَـوَّعُ[٣]

٤٧- فَبَدا لـه ربُّ الكِـلاب بكَفِّهِ ‏ ‏ بيـضٌ رِهَـابٌ، رِيشُهُـنَّ مُقَزَّعُ[٤]

٤٨- فَرَمَـى لِيُنْقِذَ فَرَّهَا فَهَوَى له ‏ ‏ سَهْـمٌ وأَنْفَـذَ طُرَّتَيْـهِ المِنْـزَعُ[٥]

٤٩- فَكَبَا كَمَا يَكْبُو فَنِيـقٌ تَـارِزٌ ‏ ‏ بالخَـبْتِ إلَّا أَنَّـه هُـوَ أَبْـرَعُ[٦]

٥٠- فَصَرَعْنَه تحت الغُبَار وَجَنْبُه ‏ ‏ مُتَتَرِّبٌ، ولِكُـلِّ جَنْـبٍ مَصْـرَعُ[٧]

* * *

---

(١) ب٤٤ نحا لها : انحرف لها. مذلقين: قرنين محددين. النضخ: الرش بما ثخن. المجدح: المحرك. الأيدع: الزعفران أو هو صبغ أحمر.

(٢) ب٤٥ السفود: عود الحديد الذى يشوى عليه اللحم. لما يقترا: لم ينضج الشواء عليهما بعد، أى أنهما نزعا قبل تمام النضج. والشرب: جماعة الشاربين وخصهم هنا لأنهم يشربون الخمر مع أكل اللحم المشوى، وهناك من الناس من يفضل اللحم قبل تمام النضج.

(٣) ب٤٦ أقصد: قتل.. شريدها: ما بقى منها. يتضوع: يصيح ويبكى.

(٤) ب٤٧ بيض رهاب: نصال رقاق مرهفة. مقزع: ملتف من كثرة ما رمى به. وفى رواية (رهاء) جمع رهو.

(٥) ب٤٨ رمى: أى الصائد. لينقذ فرها: لينقذ بقية الكلاب الفارة من الثور. هوى له سهم: أصابه سهم. طرتيه: جنبيه. المنـــزع: السهم.

(٦) ب٤٩ كبا: أى الثور سقط لوجهه. الفنيق: فحل الإبل. التارز: اليابس وبمعنى الميت من ساعته. الخبت: المطمئن من الأرض ليس به رمل. أبرع: أتم وأكمل.

(٧) ب٥٠ فى رواية (العجاج) بدلاً من التراب. متترب: أصابه التراب ذلا.

٥١- والدهرُ لا يَبْقَى على حَدَثانِه | مُسْتَشْعِرٌ حَلَقَ الحَديدِ مُقَنَّع[١]
٥٢- حَمِيَتْ عليه الدِّرْعُ، حَتَّى وَجْهُهُ | من حَرِّهَا يَوْمَ الكريهةِ أَسْفَع[٢]
٥٣- تَعْدُو به خَوْصَاءُ، يَفْصِمُ جَرْيُها | حَلَقَ الرِّحَالة فَهْيَ رِخْوٌ تَمْزَع[٣]
٥٤- قَصَرَ الصَّبُوحَ لها فَشُرِّجَ لَحْمُها | بالنَّيِّ فَهْيَ تَثُوخُ فيها الأُصْبُعُ[٤]
٥٥- مُتَفَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عن قانِئٍ | كالقُرْطِ صَاوٍ غُبْرُهُ لا يُرْضَعُ[٥]
٥٦- تَأْبَى بِدِرَّتِها إذا ما اسْتُغْضِبَتْ | إلا الحَمِيمَ فإنَّهُ يَتَبَضَّع[٦]
٥٧- بَيْنَا تَعَنُّقِهِ الكُمَاةَ ورَوْغِهِ | يَوْمًا أُتِيحَ له جَرِيءٌ سَلْفَع[٧]

---

(١) ب٥١ مستشعر حلق الحديد: اتخذ الحديد له شعارا، والشعار: هو الثوب الذى يلى البدن. حلق الحديد: الدروع. مقنع: لابس المغفر وهو (الخوذة) يغطى بها الرأس.

(٢) ب٥٢ أى هذه الدروع حميت حتى إن لون وجهه تغير فصار أسفع. والسفعة: سواد مشرب بحمرة.

(٣) ب٥٣ الخوصاء: الفرس غائرة العينين. يفصم – بالموحدة- يصدع من غير بينونة، وبالمثناة: يكسر، وذلك لشدته. الرحالة: السرج من الجلود يتخذ للركض السريع، فى ميدان الحرب أو الهرب والفرار. رخو: سهلة مسترسلة. تمزع : تمر مرا سريعا.

(٤) ب٥٤ قصر: حبس. الصبوح: شرب الغداة. شرج: خلط. بالنئ: بالشحم. تثوخ فيها الأصبع: أى صارت سمينة، وذلك لأنه حبس اللبن لفرسه ليسقيها فسمنت واختلط لحمها بالشحم. وقد عاب الأصمعى ذلك وقال: هذا من أخبث ما نعتت به الخيل، وإنما توصف الخيل بصلابة اللحم.

(٥) ب٥٥ متفلق أنساؤها: النسا: عرق ينبع من الورك ويبلغ الحافر.. يقول: انفلقت فخذاها عن موضعا النسا بلحمتين. القانئ: الضرع حين يذهب عنه اللبن فيحمر. كالقرط: طرف الفتيلة المحترق، شبهه به لصغره. صاو: يابس. غبره: بقية اللبن. يريد أنها لم تحمل منذ زمن وهذا أدعى لصلابتها وقوتها.

(٦) ب٥٦ الدرة: الصدر. الحميم: العرق. يتبضع: يرشح جلدها بالعرق. أى أنها حين تستكره تتأبى لعزة نفسها، وإن دوريت أعطت ما عندها عفوا وهذا من علامات الفرس الجيد.

(٧) ب٥٧ فى الوقت الذى كان هذا الفارس يعانق الأبطال ظهر له فجأة بطل آخر جرئ الصدر.

٥٨- يَعْدُو به نَهْشُ الْمُشَاش كَأَنَّه   صَدَعٌ سَلِيمٌ رَجْعُه لا يَظْلَعُ[(١)]

٥٩- فَتَنَادَيَا وتَوَاقَفَتْ خَيْلاهُمَا   وكلاَهُمَا بَطَلُ اللِّقَاءِ مُخَدَّعُ[(٢)]

٦٠- مُتَحَامِيَيْنِ الْمَجْدَ، كُلٌّ وَاثِقٌ   بِبَلاَئِه واليَوْمُ يَوْمٌ أَشْنَعُ[(٣)]

٦١- وعليهما مَسْرُودَتَان قَضَاهُمَا   داوُدُ أو صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ[(٤)]

٦٢- وكلاهُمَا فى كَفِّه يَزَنِيَّةٌ   فيها سِنَانٌ كالمَنَارَة أَصْلَعُ[(٥)]

٦٣- وكلاهما مُتَوَشِّحٌ ذَا رَوْنَقٍ   عَضْبًا إذا مَسَّ الضَّرِيبَةَ يَقْطَعُ[(٦)]

٦٤- فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بنَوَافِذٍ   كَنَوَافِذِ العُبُطِ الَّتى لا تُرْقَعُ[(٧)]

٦٥- وَكِلاهُمَا قَدْ عَاشَ عِيشَةَ مَاجِدٍ   وَجَنَى العَلاَءَ لَوَ انَّ شَيْئًا يَنْفَعُ[(٨)]

* * *

---

(١) ب٥٨ نهش المشاش: فرس خفيف القوائم سريع لا يقر. والمشاش: العظام. الصدع: الوسط ليس بالعظيم ولا الصغير. رجعه: عطفه بيديه عند الجرى. الظلع: العرج.

(٢) ب٥٩ تناديا: نادى كل منهما صاحبه للنـزال. بطل اللقاء: حرى بالبطولة والنصر. المخدع: المجرب وهو الذى قد خدع مرة بعد مرة حتى فهم وحذر بحيث لا يلدغ مرة أخرى.

(٣) ب٦٠ متحاميين المجد: أى كل منهما يحمى مجده لنفسه ويحرص على الاستئثار به. اليوم الأشنع: الفظيع الكريه.

(٤)ب٦١ مسرودتان: درعان. قضاهما : أحكم صنعهما. والصنع: الحاذق الماهر فى صنعته، ووصفه بذلك لأنه كان يجيد استعمالها، وهو خبير بها ويعلم جيدها من رديئها.

(٥) ب٦٢ اليزنية:الرمح المنسوبة إلى ذى يزن الحميرى. والسنان فيها كالمنارة وهى الشمعة ذات السراج. أصلع: لا صدأ به فهو بارز ظاهر.

(٦) ب٦٣ متوشح ذا رونق: متقلد سيفا ذا صفاء. والعضب : القاطع. الضريبة: ما وقع عليه السيف من كل شئ، وفى رواية (الكريهة) وهى كل شئ صلب صعب القطع.

(٧) ب٦٤ تخالسا نفسيهما: أخذ كل واحد منهما يختلس نفس صاحبه بطعنة نافذة. النوافذ: جمع نافذة وهى الطعنة التى تنفذ إلى العمق. عبط: جمع عبيط، والعبط: شق الجلد الصحيح، ولا ترقع، تعظيما لشأنها فلا يرجى منها برء، ولا تداوى.

(٨) ب٦٥جنى العلاء: اكتسب الشرف.

انتهى بعض الدارسين إلى أن "ثمة وحدة تسود شعر الرثاء فى العصر الجاهلى، تلك الوحدة يمكننا تسميتها وحدة الصراع بين الحياة والموت، أو وحدة الإحساس بوحشة الحياة وقسوتها،وبالجزع من فداحة الموت وفظاعته، وبالتالى الإحساس بالفقد والحزن والأسى واليأس"[1].

وقد دلل على رأيه هذا بقصيدة أبى ذؤيب وقال: "نحن نصر على توفر هذه الوحدة فى كل الظروف فى المراثى الطويلة، آية هذا عينية أبى ذؤيب التى تضمنت أربعة أقسام، فى كل قسم صورة من صور التعبير الحزينة[2].

١- أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ والدَّهْرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

تبدأ القصيدة باستفهام إنكارى، فيه عتاب للنفس، وتخطئة لها، هذا السؤال قد يكون موجهاً من الشاعر إلى النفس، وقد يكون من جملة كلام أميمة الآتى بعد..

ومعناه: أتتوجع وتتألم من حوادث الدهر ومصائبه – ومنها الموت- وأنت تعلم أن ذلك التوجع لا يجدى نفعا، لأن الدهر لا يرد ما فات، ولا يعتب الجازع؟!

فالإنكار ليس للتوجع فى ذاته، وإنما الإنكار منصب على التوجع من الموت والمصائب عموما.. لأن ذلك قدر مقدور..

ولعل ذلك أثر إسلامى فى الشاعر، ففى الذكر الحكيم **﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن**

(١) مصطفى الشورى صـ١٢٩ شعر الرثاء فى العصر الجاهلى.
(٢) نفسه ١٣١.

ذلـــك علـــى الله يسير﴾[1]. وفى حديث النبى -صلى الله عليه وسلم- لابن عــباس (...واعلـــم أن مـــا أصــــابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك...)

وما دام الأمر كذلك فلا جدوى من التوجع والجزع، وعلى المرء أن يكـــتم أحـــزانه... وليس معنى ذلك أن الشاعر غير حزين، بل إننا نشعر أن قلبه يتفطر حزناً وأسى، والقلق والتوتر يكادان يعصفان به...

٢- قالت أُمَيْمَةُ : مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا	مُنْــذُ ابْتُذِلْــتَ، ومِثْلُ مَالِكَ يَنْفَــعُ
٣- أَمْ مَا لِجَنْبِكَ لا يُلاَئِــمُ مَضْجَعًــا	إلا أقــضَّ عَلَيْــكَ ذَاكَ المَضْجَــعُ

ترى من أميمة هذه؟ أهى زوجه؟ أم ابنته؟ أم أمه؟ ... أم أم؟ لا ندرى. ولكن لماذا آثر هذا الاسم (أميمة)؟ إن (أميمة) تصغير أم .. فلعلها أم للشاعر، وربما أم لهؤلاء الأبناء أو بعضهم... وربما لم تكن هذه ولا تلك، وإنما هى نفسه التى بين جنبيه، تستنكر أساه ولوعته وحزنه..

وممـــا يؤيد ذلك البيت رقم (١٣) ... والنفس راغبة... وكذلك البيت رقـــم (١٥) علـــى تفسيرنا الثانى له ... على أنه ليس هناك قرينة تمنع هذا الاحـــتمال أو ترده ... كما أن أحد الدارسين أحصى أسماء النساء فى شعر أبى ذؤيب فلم يذكر منها (أميمة)، بل إنه تناسى ذكرها فى هذه القصيدة[2].

---

(١) سورة الحديد الآية رقم (٢٢).

(٢) الواقع والأسطورة فى شعر أبى ذؤيب د/ نصرت عبدالرحمن ١١٤-١١٩.

وأميمة تستنكر منه أمرين:

الأول : شحوب جسمه وتغير لونه، وترد ذلك إلى أنه أهان نفسه، وبذل جهداً جهيداً حين راح يعمل بيديه، بعد أن فقد أبناءه الذين كانوا يكفونه ذلك، وهى تضع حلاً لهذه المشكلة حين تقول (ومثل مالك ينفع) أى يمكنك أن تبذل مالك فتستأجر من يقوم بذلك بدلاً من أن تهين نفسك.. وإلا فما فائدة المال إذا لم يكن سنداً لك ومعيناً؟ وهو كما يقولون: أهن قرشك ولا تهن نفسك.

والثانى : أنه مؤرق مسهد، قلق مضطرب حيران، فما أن يلامس جنبه الفراش حتى يتململ، ويطير النوم من عينيه، كأن تحته حجارة مؤرقة وليس فراشاً ممهداً..

هذا الرجل الذى يكد ويكدح نهاراً هو فى حاجة إلى الراحة والنوم ليلاً، لكنه قد جمع على نفسه تعب الليل والنهار..

٤- فأجبتُها : أَمَّا لِجِسْمِى أَنَّهُ ... أَوْدَى بَنِىَّ من البلاد فودَّعوا

٥- أوْدَى بَنِىَّ وأَعْقَبُونى حَسْرَةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ

٦- سَبَقُوا هَوَىَّ وأَعْنَقُوا لهواهُمُ ... فتَخُرِّمُوا و لكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

٧- فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بعيشٍ نَاصِبٍ ... وَإِخَالُ أَنِّى لَاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ

٨- ولَقَدْ حَرَصْتُ بأنْ أدافع عنْهُمُ ... فإذا المنيَّةُ أَقْبَلَتْ لا تُدْفَعُ

يجيب أميمة تفصيلاً: أما شحوب الجسم وهزاله فالسبب فيه معروف لأميمة وغيرها، ولكن لا مانع من ذكره فهو سبب تعاسته: لقد هلك أبنائى وفارقونى إلى غير رجعة.. فارقونى أولاً حين غادروا إلى بلد أخرى ليشاركوا فى الفتح الإسلامى، وفارقوا ثانياً فراقاً أبدياً إلى الدار الآخرة، فودعوا تماما..

إن عمق المأساة وعظم الفجيعة واضح من خلال هذا التكرار لجملة (أودى بنى)... لقد هلكوا جميعهم مرة واحدة، تخطفهم الموت وهم فى ريعان الشباب ... وتركوا لى غصة دائمة لا تزول.. وعبرة دائمة لا تقلع ولا تنقطع.

والغصـــة[1]: ما اعترض فى الحلق من طعام وشراب، وقد يكون عظمًا أوغيره.. فأما غصة الطعام فتزول بالماء، وأما غصة الماء فخطيرة، إذ لا مزيل لها، قـــال الشاعـــر :

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يفعل من قد غص بالماء

وغصة الشاعر هنا أعمق من غصة الطعام، فهى أخطر وأقسى.. وقد قيدها بالرقاد.. وذلك لأنه فى نهاره قد يكون مشغولاً بالعمل ولقاء الناس وشئون الحياة، وما أن يجئ الليل بسكونه وينفرد بنفسه حتى يعاوده هم الفقد.. وهذا شأن الليل، ولذا رأيناه كموج البحر يرخى سدوله على امرئ القيس، وظرفا تؤثره الحمى فى زيارتها للمتنبى ، ومسرحا للمهمومين عموماً، يسهرون ليعدوا نجومه...

ونحن نختلف مع الدكتور النويهى حين ذهب يقلل من شأن الغصة والعبرة قائلا:

"... اللهم إلا غصة تأخذ حلقه، وعبرة تترقرق فى مقلته، حين تشتد به الذكرى فى خلوته. أما الغصة فتدل هى نفسها على محاولته القوية أن يكبح حزنه كبحا يؤدى إلى اختناق حلقه بمرارة نكبته، وأما العبرة فلاحظ كيف أنه لا يدعى أنه يذرف الدموع مدرارا، ويفجرها أنهارا وبحارا، أو يبكى بدل الدموع دما، كما يقول النظامون الكاذبون..."[2].

(١) قال الثعالبى: غص بالطعام، شرق بالماء، شجى بالعظم، جرض بالريق. فقه اللغة.
(٢) الشعر الجاهلى ٦٨٦/٢.

فالغصة ليست أمراً هيناً -كما أسلفنا-، وفى الذكر الحكيم ﴿ **إنا لدينا أنكالاً وجحيما. وطعاماً ذا غصة وعذابا أليما**﴾ [1]. ومع هذه الغصة لا ينساغ طعام، إذ يتوقف بالحلق، فلا هو نازل ولا هو خارج... ترى لماذا آثر القرآن هذا النوع من العذاب للمكذبين؟ لأنهم أكلوا نعمة الله وجحدوها وكفروا بها...

وكون العبرة واحدة وليست عبرات ليس دليلاً على قلتها، وإلا فما معنى قوله بعد: (لا تقلع)؟!! إنها إذا عبرة دائمة الهطول، مقدارها ثابت، لا يقل بمرور الأيام...

وقول الدكتور النويهى[2]: "لكنها عبرة واحدة وحيدة تجول فى مآقيه، حائرة لأنه يبذل جهده فى كبحها، ولا يسمح لها بالانحدار على خده، فهى فى مقلته تذهب وتجئ كالسحابة الحائرة على صفحة السماء لا هى تمطر، ولا هى تولى" فمردود أيضاً بقول الشاعر (لا تقلع).

مـــاذا كـــان هـــوى أبـــى ذؤيب؟ إنه هوى كل أب، يؤمل فى أبنائه المســـتقبل الزاهر، والحياة المشرقة، الزاخرة بالهناء والسعادة... إنه يحلم أن يرى أبناءه وقد حققوا ما لم يستطعه هو ..وأن يموت هو قبلهم.. لكنهم سبقوا ذلك، (وأعنقوا لهواهم) أى ساروا سير العنق، سارعوا إلى هواهم..
فهل كان هواهم أن يموتوا؟

- أم يمكنـــنا أن نلمح من طرف خفى أن أبا ذؤيب لم يكن راضيا تمام الرضا عن مشاركة جميع أبنائه فى الفتح، وأنهم كانوا على النقيض من موقفه مصرّين على المشاركة، ساعين للمجد، محبين للجهاد؟!.

---

(١) سورة المزمل الآيتان (١٢، ١٣)
(٢) السابق ٢/٦٨٦.

- أم أن "الوالد المقروح الذى أطاش الألم رشده يخيل إليه حقاً فى تلك الأوقات أن ولده قد تعمد الموت...."[1].
- أم أن ذلك من باب المشاكلة؟

ثم يختم البيت بالحكمة (ولكل جنب مصرع) ... تعزية لنفسه ومواساة لها.

تأمل كلمة (غبرت) فقد فسرت بأنها بمعنى: بقيت، أو عشت، بل هى فى رواية (فبقيت). وهى مشتقة من (غ ب ر) وهذه المادة اشتق منها كذلك: الغبار، والغابر، والغبرة...

أما غبر: فهى بمعنى بقى منقطعا عما معه، وبمعنى: مضى، قيل: فهى إذا من أفعال الأضداد .. ونحن لا نرى ذلك، وإنما الذى بقى منقطعاً عن أهله وذويه وأترابه وأقرانه وخاصته يعد نفسه من الماضين الهالكين، ولذا وجدنا زهيرا يمل الحياة ويسأمها قائلا:

سئمـــتُ تكاليفَ الحَـــيَاةِ ومن يَعِشْ ثمانيـــنَ حَـــوْلاً لا أَبَالَـــكَ يَسْـــأم

ورأينا لبيدا يقول:

ذهـــب الذيـــن يُعَـــاشُ فى أَكْنَافِهِـــم وبقيـــتُ فى خَلَفٍ كَجِلْدِ الأَجْـــرَبِ

ووجدنا شاعرنا فى آخر بيته هذا يقول:

وإخـــال أنـــى لاحـــق مستتبـــع

والغابر[2]: الهالك، قال تعالى **﴿إلا امرأته كانت من الغابرين﴾** الأعراف ٨٣، وانظر: الحجر ٦٠، والشعراء ١٧١، والنمل ٥٧، والعنكبوت ٣٢، ٣٣، والصافات ١٣٥.

---

(١) الشعر الجاهلى / النويهى ٢/٦٩٣.
(٢) شرح أشعار الهذليين/ السكرى.

والغبرة: الغبار. ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾عبس/٤٠. وأهل الغبراء: هم الفقراء المحاويج الذين لا يملكون إلا التراب، قال طرفة:

رأَيْتُ بَنِى غَبْرَاءَ لا يُنْكِرُونَنى　　　ولا أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ

فشاعرنا يعد نفسه هالكا، فقيرا معدما حتى ولو كان ذا مال، فما قيمته بعد فقد أبنائه؟. ومن ثم أيقن أنه عما قليل لاحق بهم.. قال السكرى: إخال تعنى فى مثل هذا الموضع اليقين.

أما مستتبع فمعناها أن أحياء بعده سيتبعونه إلى حيث هو ذاهب. وكيف لا يموت وهو يعيش عيشاً ناصباً فيه المشقة والضيق والألم والحسرة؟ إنه لا يأكل ولا ينام ولا يرقأ له دمع...

لقد شعر "الشيخ الكبير بعد أن زعزعه موت أولاده وتوالى موتهم أنه قد اجتثت جذوره التى كانت تربطه بالحياة، وتعقد الصلة الوثيقة بينه وبينها على الرغم من كبره، فأحس الآن أنه كشجرة اجتثت من فوق الأرض، سرعان ما تذوى وتجف فيها عصارة الحياة[1].

كشأن كل الآباء الحريصين على حياة أبنائهم، فيذودون عنهم كل سوء، ويدفعون عنهم كل أذى، ويفتدونهم بحياتهم إن استطاعوا، فعل أبو ذؤيب ذلك .. ولكن هل يستطيع كائن من كان أن يرد الموت أو يدفعه؟!.

المنية وحش كاسر:

٩- وإذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أظْفَارَهَا　　　أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ

---

(١) الدكتور النويهى/ الشعر الجاهلى ٦٩٩ (بتصرف يسير).

هــذا البيت من الأبيات المشهورة لدى البلاغيين، وفيه جعل الشاعر المنــية وحشا كاسرا، أو طائرا جارحا ينشب أظفاره فى فريسته فلا تستطيع فكاكاً، ولا يمكن أن يستخلصها منه أحد... ويبدو تأثر الشاعر فى هذا التشبيه ببيئته التى يعيش فيها...

والتمائم وما شاكلها لا تخلص الطفل من الموت... وأبناء أبى ذؤيب الذين اغتالتهم المنية لم يكونوا أطفالا صغارا ذوى تمائم، بل كانوا مقاتلين أى شباناً...

ولكــنه فــيما يبدو "ارتد بذاكرته إلى الماضى البعيد.. فتبادرت إلى ذاكــرته صــورتهم القديمة حين كانوا أطفالاً صغارا عاجزين يحتاجون إلى حفظه وحراسته، ومن هنا لجأ إلى صورة التمائم..."[1].

وطرفة بن العبد صور الموت فقال:

لعَمْــرُكَ إنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى	لَكَا لطِّــوَلِ المُرْخَــى وَثِنْياه باليَدِ
مَتَــى مَا يَشَأْ يوماً يَــقُدْه لحَتْفِــه	ومَنْ يَــكُ فى حَبْــلِ المَنِيَّةِ يَنْقَــدِ

وإنك لتراه هادئ النفس، غير متوتر، ولذلك أرخى الطول، وكان الموت بعيداً إلى حد ما ...

أمــا أبو ذؤيب فتشبيهه ينم عن توتره، واضطرابه، حتى إنك لتشعر أن هــذا الوحش الكاسر أو الطائر الجارح ما أنشب أظفاره إلا فى قلب أبى ذؤيب، ذاك على الرغم من محاولته التجلد والتصبر..

وهذا ما أكده فى البيت التالى:

١٠- فالعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَــا	سُمِلَــتْ بشَوْك فَهْى عُــورٌ تَدْمَعُ

لقد رحل الأحبة، وها هى الحبيبة (العين) كأنها سملت بشوك فكأنها صارت عوراء، إنها دامعة على الدوام..

---

(١) النويهى ٧٠٣ بإيجاز.

١١- حتـــى كأنـــى للحوادث مَـرْوَةٌ بصَفَا المُشَرّق كُـلَّ يَـوْمٍ تُقْـرَعُ

لقــد تتابعــت عليه مصائب الدهر ونوازله، وكثرة النوازل والمحن جعلــته صـــلباً قويـــاً، حتى صار كالحجر، ولكنه حجر بصفا المشرق- أو المشقر- قيل هو حصن بالبحرين،أو هو سوق الطائف، وكأن الشاعر يحاول أن يقوى نفسه حتى يستطيع أن يقاوم هذه المصائب والحوادث..

أو أن المعـــنى أن هذه الصخرة بادية ظاهرة، يقع عليها القرع الدائم المستمر يوميا بالأقدام، إذاً فمن ذا الذى يرميه ويقرعه؟ لم يذكر الشاعر من يقـــوم بذلـــك، بـــل تـــركه لخيال القارئ. قد يكون القرع من الدهر، أو من الـــناس... وقيل المشرق المصلى، أو هو مسجد الخيف خلف أبى قبيس، أو مسجد العيدين فى منى، وخص المشرق لكثرة مرور الناس به. ويبدو أن هذا المكـــان كلما داسه الناس بأقدامهم أو بخيلهم وإبلهم تولد من حجارته البيض شرر.. وهذا الشرر هو الحرقة التى تقدح بقلب أبى ذؤيب[1]..

ويـــبدو لـــى أن أبا ذؤيب هنا يتمنى أن لو كان حجرا لا يشعر ولا يحس، إن قلبه يتقطع كلما مرت به محنة، وما أكثر محنه!! إنه إذاً يهتف مع تميم بن أبى مقبل:

مـــا أطيب العَيْشَ لو أَنَّ الفَتَى حَجَرٌ تَنْبُو المَصَائِبُ عنه وهو ملموم

١٢- وتَجَلُّـدِى للشَّامِتِيـنَ أُرِيهُـمُ أنى لرَيْبِ الدَّهْـرِ لا أَتَضَعْضَـعُ

وكلمة (تجلد) مأخوذة من مادة (ج ل د) ومنها : الجلد الذى قد يبدو سليماً، ولكن تحته ما تحته من أمراض وعلل خفية.

---

(١) راجع / النويهى ٧٠٥.

والتجلد: إظهار الصبر والرضا والتسليم، مع ما قد يكون وراءه من حـــزن عظـــيم وألم شديد. والتجلد تفعل، فيه معنى المغالبة، وتكلف الصبر، وبـــذل الجهـــد فى ذلك.. فهو يظهر ذلك لكن باطنه يخالفه.. وإنما يفعل ذلك التجلد حتى لا يشمت به الشامتون، فالتضعضع والجزع والسخط غير مقبول مـــن الرجال، أو أن ذلك يقدح فى رجولتهم. حتى إن مالك بن الريب يخفى أساه وحزنه على نفسه وهو يموت خشية أن يلام على ذلك، يقول[1]:

أَجَبْــتُ الهَوَى لمَّا دَعَانِى بِزَفْرَةٍ تَقَنَّعْتُ مِنْهَــا أَنْ أُلاَمَ رِدَائِيَــا

فالبكاء للنساء، قال أبو تمام[2]..

خُلِقْنَــا رِجَــالاً للتَّصَبُّــرِ والأَسَــى وتلْــكَ الغَوَانِــى للبُكَــا والمَآتِــمِ
وأىّ فَتىً فى النَّاسِ أَحْرَضُ من فَتىً غَدَا فى خَفَارات الدُّمُوع السَّوَاجِمِ[3]

١٣- والنَّفْسُ راغبةٌ إذَا رَغَّبْتَهَــا وإذا تُــرَدُّ إلـــى قَلِيــل تَقْنَــعُ

هذا البيت من الحكم السائرة المشهورة، وهو بيت عين فى القصيدة، ويُتمـــثّل بـــه فى موطن تربية النفس وتهذيبها وتعويدها عادات معينة. هذه الـــنفس علـــى حســـب ما عودها صاحبها، فإن عودها الطمع والجشع كانت كذلك، وإن عودها القناعة قنعت..

إن هذه حقيقة واقعة، وقد أقسم الله -عز وجل- أحد عشر قسماً على فلاح من زكى هذه النفس وخيبة من دساها **﴿والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاهــا * والــنهار إذا جلاهــا * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها***

---

(١) راجع كتابنا: مصرع فارس فى بلاد الغربة.
(٢) ديوانه ٣/٢٥٩.
(٣) وأحرض: من قولهم رجل حريض أى لا خير فيه.

والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾.

فـإذا تـرك لهـا العِنان تطلعت إلى ما ليس لها، ثم استشرت حتى يصعب كبح جماحها.. وإذا روضت على القناعة عزفت حتى عن المباحات فكـان الـورع الذى حققه الصالحون، حتى إنهم كانوا يمتنعون عن الحلال تربـية لنفوسـهم.. والشـاعر هنا لا يقصر الأمر على مسألة الحزن، وإنما تحدث عن عموم الأمور، حسها ومعنويها..

إن أبـا ذؤيـب يرى "أن الحزن رغبة يجب مواجهتها على نحو ما نواجه سائر الرغبات.." ونحن "تحزن لأننا رغبنا فى الحزن أو اخترناه"[1]. لكن أبا ذؤيب يحاول ترويض نفسه على تقليل الحزن وكفكفة غلوائه وتعزية نفسه وتصبيرها..

١٤- ولَئِنْ بِهِمْ فَجَعَ الزَّمَانُ ورَيْبُـه　　إِنِّـى بأَهْـلِ مَوَدَّتِـى لمُفَجَّـع
١٥-كَمْ من جَمِيعِ الشَّمْلِ مُلْتَئِمِ القُوى　　كـانوا بعَيْـشٍ قَبْلَنَـا فَتَصَدَّعُـوا

الشـاعر يعـزى نفسه ويواسيها، ذلك أن حدثان الدهر ومصائبه لم تفـرق بينه وبين بنيه وأقربائه فحسب، بل هذا شأن الأحياء جميعاً، وكم من جماعـات وأسر وقبائل فرق بينهم الدهر. وهذا ربط جيد بين المقطع الأول والمقطع الثانى الذى تحدث فيه عن حمار الوحش وأتنه.

ولـذا لا نوافـق الدكتور النويهى حين ذهب إلى أن "نظم البيتين لا يرقى إلى المستوى الذى كان عليه أبو ذؤيب، وأنهما لا يضيفان جديداً ذا بال

---

(١) صوت الشاعر القديم ١٣١.

علـــى أى حـــال، فما فيهما من معان بعضها قد تضمنه ما سبق من أبياته، وبعضها سيصوره فى باقى القصيدة تصويراً قوى التجسيم والتفصيل"[1].

إن البيتين -كما ذكرت- مدخل جيد إلى الحديث عن عالم آخر من الأحياء، وخروج إلى دائرة أوسع وأشمل، يعزى من خلالها نفسه ويصبرها.

ومعنى البيت الثانى يتردد كثيرا على ألسنة الشعراء، قال الشمردل:

أَبَى المَــوْتُ إلا فَجْــعَ كُلِّ بنى أب　　سَيُمْسُون شَتَّى غَيْرَ مُجْتَمِعى الشَّمْل

وقال كعب بن سعد الغنوى[2]:

لعمــرى لئن كانت أصابَــتْ مَنِيَّــةٌ　　أخــى والمنايــا للرجــال شَعُوبُ

لقــد عَجَمَــتْ منى المنيَّــةُ ماجِــداً　　عَرُوفاً لرَيْبِ الدَّهْرِ حــين يَرِيــبُ

وبهذا انتهى المقطع الأول من القصيدة، بعد أن أشرك أبو ذؤيب معه القارئ فى همه وحزنه وأساه، حين يراه موزعاً بين الحزن الشديد والتجلد أمام الشامتين، فلا هو أفرغ ما فى نفسه من حزن، ولا هو سلم من ألسن الحساد..

* * *

---

(١) النويهى ٧٠٩.

(٢) مختارات شعراء العرب لابن الشجرى ١٣٠، ١٣١.

المقطع الثانى

حمار الوحش : السيد المطاع فى أتنه الحسناوات

ويخرج الشاعر من مستوى الإنسان إلى عالم أعم وأشمل وهو عالم الحيوان.. ويبدأ من هذا المقطع ببداية يعلن فيها النتيجة سلفا قبل أن يمضى فى سرد القصة، وكذا فعل فى المقاطع الثلاثة..

(والدهر لا يبقى على حدثانه جون..، شبب، مستشعر)..

1-عيشة راضية وحياة سعيدة :

يتحدث أبو ذؤيب عن حمار وحشى كرمز "للقوة والخلو، يرتع بخير الطبيعة التى تمد له الخضرة، وينعم بأتنه الأربع، يترنم بين الغيث والنضرة تحدقان به من كل جانب، ولعل الحمار ذاك فى مرتع الخصب يمثل إقبال الحياة والتآلف بينها وبين الأحياء، لهم رزقهم ولهم مرتعهم... غير أن الحياة ليست بمثل هذا الإقبال، فإذا عثر الحى على المرعى فإنه لا يعثر على الماء... والطبيعة التى كانت تهبه منذ حين بلا حساب جعلت تصليه بالرمضاء..."[1].

١٦- والدَّهْرُ لا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ جَوْنُ السَّرَاةِ له جَدَائِدُ أَرْبَعَ

لقد تعرض الحمار لريب الدهر، وكان يعيش حياة رغدة سعيدة، ويتمتع باستقرار أسرى بين أتنه الأربع.

والشاعر -فى مقام الحديث عن الدهر والموت- يحرص على أن "يتذوق" أو يتأمل بإعجاب جسد الحمار الوحشى.

---

(١) فى النقد والأدب ١٨٧/٢.

وقد اختار "الظهر" خصوصاً، لأنه هو الاحتمال والنهوض بالعبء والاستعداد العظيم للاستيعاب والاستغراق فى حياة أو ملامسات عادية."من خلال الظهر بدا أن أبا ذؤيب يحارب كثيرا من التأملات القاسية، من خلال العنق يتطلع الكائن الحى إلى أعلى ويجاوز عالمه، ومن خلال الظهر يتطلع الكائن على عكس ذلك إلى مستوى أفقى أدنى أكثر ارتباطاً بالأرض والتراب"(١). والجدائد : أى التى فطم أولادها، فلم تعد مشغولة بها، وإنما صارت طوع أمر الحمار وحده،ورهن إشارته. وفيه أيضا إشارة إلى الخصوبة والتناسل والتكاثر واستمرارالحياة.

والأتن هنا أربع، ولسنا ندرى سر كونها أربعاً...؟ هل لذلك علاقة بما يحل للرجل من نساء (مثنى وثلاث ورباع)؟، أم أن الحمار وأتنه خمس وأبناء أبى ذؤيب الهالكون خمسة؟ هذا أقرب.

١٧- صَخِبُ الشَّوَارِبِ لا يَزَالُ كَأَنَّهُ عَبْـدٌ لآلِ أَبِى ربيعَـةَ مُسْبَـعُ

هذا الحمار له صوت عال، دلالة على السيادة والقيادة، فلا صوت يعلو فوق صوته، وربما كان علو صوته- أيضاً- دلالة على السعادة والبهجة والنشاط والفتوة.

فهو مثل "عبد لآل أبى ربيعة مسبع" وقد فسروا "المسبع" بأنه هو الذى وقعت السباع فى غنمه، فهو يصيح مستغيثا، أو أنه أهمل مع السباع فصار كأنه سبع.

ونرى أن ذلك غير مقصود، فالسياق ينفى ذلك ويأباه، لأن الشاعر يصف حماراً مبتهجا سعيداً، ليس للذعر مكان فى حياته – حتى الآن-.

---

(١) صوت الشاعر القديم ص ١٣٤.

كل ما قصده الشاعر هو أن هناك صوتا قويا، ويبدو أن عبد آل أبى ربيعة هذا كان جهورى الصوت، قويه، يتميز به عمن سواه.

وآل أبى ربيعة هم بنو عبدالله بن مخزوم، قوم كثيرو الأموال والعبيد، وأكثر مكة لهم... ويبدو أن أبا ربيعة هو جد عمر بن أبى ربيعة، وما داموا أثرياء وذوى نعمة إلى هذا الحد فإن عبيدهم يكونون من امتلاء الجسم والقوة والشدة بحيث يصدر عنهم مثل هذه الأصوات العالية عند الاستغاثة.

ويرى الدكتور "محمد أبو موسى": "أن طريقة البيت هى طريقة الكناية التى ترى فيها التراكيب تشير إلى المعانى من بعيد ولا تلامسها، فالعبارة تفيد أنه صخب الشوارب، دائم النهيق، والذى وراء ذلك فرط الحمى والشباب والفتوة"[1].

وإذا كان الشاعر فى المقطع الأول من القصيدة قد جعل صوت الإنسان ضعيفا مثلما كان جسده شاحبا، وإن كان محتجا على الدهر والمنية، فهنا صوت عال، ولكنه خال من آلام الاحتجاج وجزعه، فالجزع هناك كان مقرونا بالأبوة والأبناء، والأزواج هنا مرايا تصقل النفس وتكملها وتعفيها من التطلع، ومن خلال هؤلاء الأزواج يرتبط الحمار الوحشى بالأرض. هنا بهجة وفرح وهناك جزع وحزن[2].

١٨- أَكَلَ الجَمِيمَ وطَاوَعَتْهُ سَمْحَجٌ ــ مثلُ القَنَاةِ وأَزْعَلَتْهُ الْأَمْرُعُ

١٩- بقَرَارِ قِيعانٍ سَقَاهَا وَابِلٌ ــ وَاهٍ فَأَثْجَمَ بُرْهَةً لا يُقْلِعُ

الشاعر هنا يبين سبب سعادة ونشاط الحمار وبهجته، لقد طعم طعاما جيدا، وها هى زوجاته الحسناوات مطيعات له، لا تعصى له أمرا، ولا يعلو

(١) قراءة فى الأدب القديم ص ١٥٢.

(٢) صوت الشاعر القديم ص١٣٥ (بتصرف).

صـــوتها فوق صوته، إذاً توافرت له كل أسباب الحياة الرغدة الهنية، فضلا عن إحساسه بذاته، فهو السيد المطاع، فلم لا يسعد ويبهج؟!

وهل يطمح الحيوان أو يطمع فى أكثر من ذلك؟ وهل عيش الحيوان إلا ذاك؟. ومــاذا تــبقى بعد من مقومات الحياة السعيدة بالنسبة للحمار وقد تحقــق له كــل شئ: الشهوة الجسدية، شهوتا البطن والفرج، **(والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام)**[1]. (ماء، عشب وكلأ)، (ثم إناث جميلات مطيعات).

ولنـــتأمل كلمـــة (قرار) التى توحى بالاستقرار، ولا غرو فالماء قد اســـتقر هـــنا وهـــناك، فلا حزن فى وجود الثلاثة: الماء والخضرة والوجه الحسن...

قـــال الشاعـــر :

ثَــلَاثَةٌ تَجْلُــو عَــنِ القَلْــبِ الحَزَنْ   المــاءُ والخُضْــرَة والوجــه الحَسَنْ

ثم إن الماء قد دام فترة،نَعِم فيها الحمار بالحياة، فقد كان المطر دائم الســقى، وذلــك لأن الســحاب ضــعف عن حمل الماء، وهذا دليل وفرته وغزارته، وبالتالى أعشبت الأرض، وصارت الحياة ربيعا.

---

(١)سورة محمد — صلى الله عليه وسلم — الآية (١٢).

٢٠- فَلَبِثْنَ حيناً يَعْتَلِجْنَ برَوْضِهِ   فَيَجِدُّ حيناً فى العِلَاجِ ويشمعُ

لقد عاش الحمار وأتنه حياة أسْرية سعيدة، فيها المتعة واللعب والمرح والنشاط والحيوية، وها هو يسابق أتنه ويسابقنه، ويصارعها وتصارعه، ويعضها وتعضه، حياة طفولة سعيدة بريئة.. ولكن الحمار – أحيانا– يحيل المرح والهزل واللهو جدا.

"وأبو ذؤيب هنا يحدق تحديقا طويلا فى حال الحمار ومرعاه ومرحه، ويندس فى نفس الحمار وما يجرى فيها من ألوان الجد والهزل فى تلك الحياة الشابة الناعمة الفارغة التى ترى فيها الحركة والنشاط والجد واللعب والمرامحة العابثة والاصطراع اللاهى..."(١).

بداية النهاية

"الموت يبعث نذره"

٢١- حَتَّى إذا جَزَرَتْ مياهُ رُزُونِهِ   وبِأَىِّ حِينِ مَلَاوَةٍ تَتَقَطَّعُ

"حتى" وما أدراك ما هذه الكلمة؟ إنها نهاية تلك المرحلة المرحة السعيدة الراضية الهنيئة. لقد انتهى طور من الحياة، فليبدأ طور آخر، ما أقساه!!.

لقد أخذت المياه فى النضوب، ومع نضوب الماء يقل الأمل فى الحياة.. أين تلك المياه الغزيرة الوفيرة الفياضة التى وهت بها سحابتها؟ لابد لكى تجف هذه المياه من وقت طويل، إنها حياة طويلة تلك التى عاشها الحمار سعيدا..

---

(١) قراءة فى الأدب القديم ص ١٥٣.

(وبأى حين ملاوة تنقطع)

هــل يرمز الشاعر بذلك إلى حياة أبنائه الذين سعد بهم، ثم ما لبث الموت أن تخطفهم؟ ربما.. فهذه هى الدنيا ما جمعت إلا فرقت، وما أسعدت إلا وأشقت، وما حلت إلا أوحلت...

٢٢- ذَكَرَ الوُرُودَ بها، وشَاقَى أَمْرَهُ شُــؤْمٌ، وأَقْبَــلَ حَيْنُــــه يَتَتَبَّــعُ

تــأمل هــذه الكلمــات (شاقى)، (شؤم)، (أقبل حينه يتتبع)، بعد تلك الكلمات فى حياة الحمار الأولى (صخب الشوارب – أكل الجميم – طاوعته- أزعلته الأمرع).. إن الفرق شاسع بين الحياتين...

ها هو السعيد تحول إلى شقى، أشقاه الشؤم، وأحال حياته ضنكا.

لقــد تذكر ورود تلك العيون القديمة حين انقطعت عنه مياه السماء، وبــدأ المــوت خطواته نحو الحمار (وأقبل حينه يتتبع)، و(حينُه) بالضم فيما قرأت من معناها أن الموت بدأ طريقه نحو الحمار، وفى رأيى أنه يمكن أن تكــون (حيــنَه) بالنصـــب، والمعنى: أن الحمار تحرك جهة الموت وهو لا يــدرى، بينما هدفه البحث عن الحياة، (ويتتبع) على الأولى: أى أن الحمار يقابل الموت، كلما سار خطوة قابله الحمار خطوة.

وفى رواية (يتنبع) من النبع.. وهو يتسق مع اقتران الماء والموت[١]. فالنبع نبع ماء، وهو سر الحياة، وهو أيضا مكان الموت.، فمن حيث ظن الحمار أن هذا هو مصدر الحياة كان مصدر الموت..

إن "الحَيْن يتتبع للحمار الوحشى، أى يجرى قليلاً قليلاً، كالماء يجرى على وجه الأرض، فهنا توحد بين الموت والماء.. هناك إذا قوة قدرية تسوق

---

(١) رحلة الذات فى فضاء النص الشعرى صـــ١٧٦، ٢٠٧.

الأحياء إلى مصير لا يدركون منطقه، فبينما يظن الحمار أنه يسوق أتنه إلى منابع الحياة، إذا به يسوقها إلى الصائد رسول القدر الذى أبدهن حتوفهن[1].

إن ورود الماء – عادة– مظنة خطر محدق– ولذلك لا عجب حين تجد الشاعر القديم يرى "الحوض حوض المنية، والورد ورد الموت، والبئر قبرا.." [2]. قال عز شأنه **﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم...﴾** (آل عمران/١٥٤).

٢٣– فَافْتَنَهُنَّ من السَّوَاءِ ومَــاؤُه　　بَثْــرٌ، وعَانَــدَه طَرِيــقٌ مهيَــعُ

الحمار لم يتردد، ولم يقسم أمره، ولم يدر بخلده حوار وتساؤلات مما جعل الدكتور مصطفى ناصف يقول:

"لقد كان عقل الحمار رحبا يتسع لغيره من الحمر والأتن ولا يضيق بها، لم تغلب عليه الفردية التى تضيق عن استيعاب الآخرين، وربما كان إحساس الحمار (المزعوم) بالموت خاصا، فالطريق إلى الموت هو امتداد طبيعى للطريق الواضح الذى كان يتعشقه الحمار ويهفو إليه، كل شئ فى حياة الحمار لا يخلو من الوضوح، وكذلك إحساسه الباطنى بالنهاية أو إقباله عليها، قد "تعانده" هذه النهاية بعض المعاندة، أو قد تذكره بما أفلح فى نسيانه واطراحه، ولكنها تتمثل أمامه فى عالم خال من العوائق... لقد ألف الحمار الحركة الحرة والحياة الحرة، فأقبل على النهاية لا يشوبه خوف مرهق، والدليل على ذلك أن الحمار الوحشى لم يجرب هذا التوزع بين إرادتين...

---

(١) الأسلوبية والتقاليد الشعرية د/ محمد بريرى ١٩٢.

(٢) رحلة الذات فى فضاء النص الشعرى صـــ١٧٦، ٢٠٧.

وأقبل الحمار وأزواجه على الطعام والماء مجتمعين كما أقبلوا على الموت مجتمعين..." (١).

٢٤- فَكَأَنَّهَا بالجِزْعِ بَيْـنَ نُبَايِـعٍ وَأُولاتِ ذِى العَرْجَاءِ نَهْبٌ مُجْمَعُ

وأبو ذؤيب يهدف من هذا التشبيه إلى بيان تكاثفها وتجمعها بينما هى مقبلة على الموت.

٢٥- وَكَأَنَّهُـنَّ رِبَابَـةٌ، وكَأَنَّـه يَسَرٌ يَفِيضُ على القِدَاحِ ويَصْدَعُ
٢٦- وكأنَّمَـا هو مِدْوَسٌ مُتَقَلِّبٌ فـى الكـفِّ، إلا أنه هو أَضْلَـعُ

فالحمار يشبه صاحب الميسر يلعب بالقداح، والأتن مثل القداح يلعب بهن، كما أفاد التشبيه اجتماع الأتن، فالحمار يدفع الأتن ويستحثهن، والحمار سريع الحركة، قوى، صلب، كالسيف القاطع.

المصير المهيب:

٢٧- فَوَرَدْنَ والعَيُّوقُ مَقْعَدَ رَابِـئِ م الضُّرَبَاءِ فَوْقَ النَّظْمِ لا يَتَتَلَّـعُ
٢٨- فَشَرَعْنَ فى حَجَرَاتِ عَذْبٍ بَارِدٍ حَصِبِ البِطَاحِ تَغِيبُ فيه الأَكْرُعُ
٢٩- فَشَرِبْنَ ثم سمِعن حِسًّا دونَـه شَرَفُ الحِجَابِ ورَيْبَ قَرْعٍ يُقْرَعُ

وردت الحمر الماء على مشهد من ذلك النجم الذى يطلق عليه "رقيب الـثريا"، وهـو يطلع معها فى الصباح عند اشتداد الحر، كأنما العيوق ذلك الـرجل الـذى يراقب القوم ضاربى القداح، ما الذى سيشهده هذا النجم؟ إنه سيشهد النهاية الحتمية للحمر.

على أننا "ينبغى ألا نستهين بكلمة "النظم" فى البيت، كل شئ فى السياق التالى- على الخصوص طريقة سوق الأفعال وترابطها برابط مكرر

---

(١) صوت الشاعر القديم صـ١٣٧.

– يوحى بأن الأمر كله مقسوم، يعنى الحمار بمثل ما يعنى العيوق والماء العذب..."[1].

ثم تأمل قوله "لا يتتلع" أى لا يتقدم ولا يتأخر، كأنما أملى عليه دوره، ودوره هو الوقوف فى هذا المكان ليشهد المصير وسط ذلك الحفل المهيب، والكل يعرف وظيفته ودوره فى ذلك الحفل.

أسرعت الحمر تشرب الماء تقتل به الظمأ قبل أن يقتلها الظمأ، شربت ماء عذبا نقيا صافيا، ونزلت إلى الماء بعض الشئ حتى غابت أكرعها.

(تغيب فيه الأكرع) هذا الغياب هل هو مقدمة جزئية للغياب الكلى؟. ربما.

إن الشاعر هنا يصور "اللحظة التى تنذر بالفاجعة، وفيها تتبثق صورة الماء عذبًا صافيًا، يأتلق الحصى فيه معمقًا حس العذوبة والنقاء، سخيا تغور فيه أكرع الشاربين، ولكن لحظة الشرب هنا ليست لحظة ارتواء وهناء، بل هى لحظة النذير الجديد"[2].

شربت الأتن وشبعت من الماء، وإذا بالخطر يتأتى من خلال صوت مزعج، والشاعر يقول (حسا) ولم يقل (صوتًا) وكأن الحمر لم تسمع بأذنها فقط وإنما سمعت بكل جسدها، فنزل بها من الخوف والذعر والهلع ما نزل، كان الصوت عبارة عن قرع قوس وصوت وتر، وقد جاء هذا الصوت من خلف حجاب.

٣٠- ونَمِيمَـــةً من قَانِـــصٍ مُتَلَبِّبٍ   فى كَفِّهِ جَشْءٌ أَجَـــشُّ وأَقْطَعُ

---

(١) نفسه ص١٣٩.

(٢) الرؤى المقنعة ٢١٥.

٣١- فَنَكِرْنَهُ، ونَفَرْنَ، وامْتَرَسَتْ به	سَطْعَاءُ هَادِيَةٌ، وهَادٍ جُرْشُعُ
٣٢- فَرَمَى، فأنْفَذَ من نجُودٍ عَائِطٍ	سَهْمًا، فَخَرَّ، وريشُه مُتَصَمِّعُ
٣٣-فبَدَا له أَقْرَابُ هَذَا رائِغًا	عَجِلًا، فَعَيَّثَ فى الكِنَانَةِ يَرْجِعُ
٣٤- فَرَمَى فَأَلْحَقَ صَاعِديًّا مطحرًا	بالكَشْحِ فاشْتَمَلَتْ عليه الأضْلُعُ
٣٥- فأَبَدَّهُنَّ حُتُوفَهُنَّ: فهَارِبٌ	بِذَمَائِهِ، أو بَارِكٌ مُتَجَعْجِعُ
٣٦- يَعْثُرْنَ فى حَدِّ الظُّبَاتِ كَأَنَّمَا	كُسِيَتْ بُرُودَ بنى تزيدَ الأذْرُعُ

أحست الأتن بما يبيت لها الصياد، ذلك الذى كان على أتم الاستعداد، فقد تحزم بثوبه، أو تقلد كنانته، وحمل من أدوات الصيد: قوساً أجش، ونصالاً عريضة قصيرة.

وهكذا "فى داخل هذا الحفل الكونى المهيب لا يعدو صوت على صوت، لدينا قرع القوس، وصوت الوتر، وهذا صوت ثالث أجش، أصوات مؤتلفات جئ بها للمشاركة فى طقوس الوداع وما يشبه الترانيم..."[١].

أخذت الأتن تلتصق بالحمار، بينما هو يطلب من يلتصق به أيضا من شدة الهول، هى هادية، وهو هاد، اختلط الأمر الآن.

ويرى الدكتور مصطفى ناصف أن هذا معناه: "أن من الحمر من ليس هادياً، ومن الأتن من ليست سطعاء هادية، فنحن إذاً أمام "زعامة" مقصودة ومثل كاملة، وكأنما كانت فجيعة الحمار الأكبر نبراسا لحياة الحمر كلها وقدوة يقتدى بها"[٢].

لقد كان الالتصاق هناك إقبالاً على الحياة، والالتصاق هنا طلباً للنجاة من الصياد، لقد فقد الحمار الأمان، وفاقد الشئ لا يعطيه، فلا سيطرة، ولا

(١) صوت الشاعر القديم ص١٣٩.

(٢) صوت الشاعر القديم صـ١٣٩.

قيادة، والأتن تمترس بالحمار طالبة الحماية كعادتها من قبل... ولكن أنى ذلك!!

واستغل الصياد هذا الموقف (فرمى) سهماً أولاً فأصاب أتانا طويلة الظهر، ممتلئة الجسم، قوية، إنها أتان تأبَّت على الحمل والإنجاب، ومن ثم أتى سمنها وامتلاؤها، وسقط السهم بعد أن حقق هدفه متضاما ريشه بسبب الدم العالق بين فراغاته.

وأدرك الصائد أن الحمار قد هم بالروغان واشتد فى الإفلات، فوضع يده فى كنانته والتقط سهمًا سريعًا بعيد المدى وصوبه تجاه الحمار فى مقتل، إذ رماه فى كشحه، وذلك يدل على حذقه ومهارته بالرمى، ولم يدع الصائد من الحمر واحدا إلا قتله، وهو لم يقتل اثنتين معا بسهم واحد، وإنما قتل كل واحد بسهم خاص.. هذا دال على شدة سرعته، وإلا فكيف يرمى الحمار والأتن الأربع واحداً تلو الآخر، ولم تند أو تفلت واحدةمنها.؟!

ولذا قال أبو ذؤيب (فأبدهن حتوفهن) ... وأخذت الحمر تعثر والسهام فيها، فمن كان به بقية حياة حاول الهرب بها إلا أنه لم يفلح، ومنها ما سقط ميتاً...

وبتأمل الأبيات نجد أفعالاً كثيرة بدئت بالفاء (فوردن – فشرعن– فشربن – فنكرنه– فرمى – فأنفذ – فخرّ– فَبَدَاله– فعيَّث فى الكنانة– فرمى – فألحق صاعديا– فأبدهن)، إنه "نظام من التعاقب يجعل الاقتراب من النهاية مشهد فنان صناع...".

"وكان أبو ذؤيب حريصًا على تكريم الجسم، فقد كسيت الأتن والحمار برود بنى تزيد، ولم يشأ أبو ذؤيب أن يترك الجسم عاريًا ذليلًا، لم

يشأ أن يعطى لطرائق الدم غلبة الموت على الحياة، ولذلك ربط بين الدم والبرود، وجعل الأتن والحمار جميلة فى مَحْيَاها ومماتها..." [1].

هل يمكن أن نفهم هذه الصورة التى اختلط فيها الجمال والسرور والبهجة واللعب والمرح – والدماء وصوت الاستغاثة والعطش والحر الشديد ونذر الموت... إلخ- هل يمكن أن نفهمها بمعزل عن صورة أبناء أبى ذؤيب الذين كانوا يملأون حياته سعادة وبهجة فاستحالت حزنا وأسى وهما وهزالاً وقلقا واضطرابا؟!

كلا...

لقد وصل الامتزاج قمته حين أقبل الحمار وأتنه على الماء حرصا على الحياة، وهى لا تدرى أن الموت كامن هناك.. عند الماء..

* * *

---

(١) صوت الشاعر القديم صــ١٣٩، ١٤٠.

المقطع الثالث
الثور الشَّبَب والكلاب الباغية

٣٧- والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَدَثَانِــه   شَبَبٌ أَفَزَّتْــه الكــلابُ مُــرَوَّعُ
٣٨- شَعَفَ الكلابُ الضارياتُ فؤادَه   فإذا رأى الصُّبْــحَ المُصَدَّقَ يَفْــزَعُ
٣٩- ويَعُــوذُ بالأَرْطَى إذا ما شَفَّــهُ   قَطْــرٌ ورَامَتْــه بَليــلٌ زَعْــزَعُ
٤٠- يَرْمى بعَيْنَيْهِ الغُيُوبَ وطَرْفُــهُ   مُغْــضٍ يُصَــدِّقُ طَرْفُه ما يَسْمَــعُ

يتحدث هنا عن ثور وحشى (شبب) كما هو عند ذى الرمة فى بائيته حين قال[1]:

أذاك أم نَمِــشٌ بالــوَشْــم أَكْرُعُــه   مُسَفَّعُ الخَدِّ، غَادٍ، نَاشِــطٌ، شَبَــبُ

والشــبب: هــو الذى تم سنه وذكاؤه وقوته، إنه مجرب، خبير بهذا الصراع الذى طالما فُرض عليه، وتم له فيه الغلبة على الكلاب والكلاَّب.

بينما هذا الثور فى صحرائه، لم يبغ على أحد، إذا بالظلم يقع عليه، لقد أزعجته الكلاب بوشاية من صاحبها، فصار مروَّعًا...

وهكذا قفز أبو ذؤيب فوق أحداث كثيرة من القصة النمطية، فسقطت من قصته أجزاء كثيرة..

لقد أقضت مضجعه تلك الكلاب الضارية، وصار فؤاده خالياً من كل شــئ إلا منها، ولا سيما عند طلوع النهار حيث اعتادت مهاجمته، لكنه نجا بحياته. إما فراراً – وهذا مستبعد– وإما انتصاراً عليها..

---

(١)راجع كتابنا: ثور الوحش بين النابغة وذى الرمة.

لقـد صــار الصبح المصدق – الذى هو دلالة على الإشراق والنور والوضــوح والصــدق – مشــوهًا، وأصبح بغيضًا لدى الثور، لأنه الزمن المرتبط بهجوم الكلاب..

ولــم يكن الليل أحسن حالاً من النهار، فقد كان مصحوبًا بالأذى من عــوادى الطبيعة: ريح باردة شديدة عاصفة تكاد تزعزع الأشجار، ومن ثم اضطر الثور إلى اللجوء لشجرة الأرطى، يستكن بها.

ثــم يذكر إرهافه سمعه، وإعماله سائر حواسه، حتى لا يفاجأ بما لم يحمــده. لقد أخذ الثور يحدق النظر وكأنه يرسل بصره هناك خلف الأشجار والهضاب التى يتوارى خلفها الصياد وكلابه، وقوله (مُغْضٍ) أى أنه يغمض بصره ليكون فتحه عينه بعد الإغضاء أشد وأحد..

ولم يكتف بالنظر، إنما أعمل السمع، بل كان السمع أشد من البصر، فهــو يتســمع أولا، ثم يرسل بصره ليؤكد ما سمع...أرأيت كيف كانت ليلة الثور وبداية نهاره؟ قلق، وتوجس، وحذر، ولم لا والصحراء دأبها ذلك!!

معركة الثور والكلاب :

٤١ – فَغَـدَا يُشَرِّقُ مَتْنَه فَبَـدَا لَهُ أُولَى سَوَابِقِهـا قريبـًا تــُوزَعُ

٤٢ – فاهْتَاجَ من فَزَعٍ وَسَدَّ فُرُوجَهُ غُبـْـرٌ، ضَوَارٍ : وافيان وأَجْـدَعُ

حين أشرقت الشمس ذهب الثور يعرض متنه لشعاعها ليزيل آثار ليلة ثقيلة فيها ما فيها من مطر وبرد...

ويــبدو أن هــذه اللحظــات تحدث فيها إغفاءة من الثور حين يشعر بــدفء الشمس، والصياد يدرك ذلك جيدًا، ولذا فهو يختار ذلك الوقت ليبث كلابه على الثور فتنال منه على حين غفلة.

وفعلاً ظهرت أولى السوابق، أسرع كلبة من الكلاب، أصبحت قريبة من الثور بعد أن أغراها صاحبها به، إذ إنه عادة يجوعها ولا يطعمها إلا مما تصيد..

وقد فسر الدكتور النويهى[1]، (توزع) بقول: "صاحبها يزعها أى يكفها عن اللحاق بالثور، ويرغمها على أن تظل مع باقى الكلاب حتى تهاجمه فى مجموعة متحدة" ولكن الشعر القديم يرد هذا التفسير، فقد رأينا بعض الشعراء يتحدثون عن كلب بعد كلب.. إذ إن الكلاب تكون متأهبة بجوار الصياد، فيغرى أضراها وأقواها وأفرسها، فإذا فشل فى مسعاه تبين له أن كلباً واحدًا غير مجد مع هذا الثور القوى، فيبث اثنين أو ثلاثة..

فوجـــئ الـــثور وهـــو يستمتع بدفء الشمس بالكلاب قد دخلت بين قوائمـــه، فأنى له أن يتحرك؟!. لقد تعطلت أدوات الجرى، إذ دخلت الكلاب بيـــن الأرجـــل قاصدة شل حركة الثور، لأن سلاحه الأول هو الجرى.. إنها كلاب غبر، اثنان منها سليما الأذن، والثالث مقطوعها.. وقد يكون هذا القطع ناتجًا عن معركة سابقة، أو أنه علامة لهذا الكلب.

احتدام المعركة:

٤٣- يَنْهَشْنَه، وَيَذُبُّهُنَّ، ويَحْتَمِـــى	عَبْـــلُ الشَّـــوى بالطَّرتيْـــن مُولَعُ
٤٤- فَنَحَـــا لَهَـــا بِمُذَلَّقَيْـــن كأنما	بِهِمَـــا من النَّضْـــخ المُجَدَّحِ أيدع
٤٥- فكـــأن سَفُّودَيْـــن لمَّا يقتـــرَا	عَجِلاَ له بشِـــوَاءِ شَـــرْبٍ ينـــزع

وقد برع الشاعر فى نقل هذه الصورة للمعركة، حيث تفيض الأفعال المتتابعة بالحيوية والتدفق والحركة، حتى لنشعر مع قراءتها بأننا أمام معركة حقيقية تدور رحاها الآن..

---

(١) ٧٦٤.

لقد أخذت الكلاب تنهش الثور، وهو يدفعها عنه، كى يفر منها بعد أن يفـك القـيود والأغلال التى على قوائمه.. وإنها لقوائم غليظة ضخمة، فهل يـريد أنـه بإمكانـه استخدامها فى صراعه مع الكلاب بداية بتحريكها لفك الأغلال؟!. ربما..

وأما اختلاط الألوان فربما كان مقصوده أن حركته ورفضه التسليم يجعل الرائى يرى البياض حينًا والسواد حينًا آخر.

فرضـت المعـركة إذًا على الثور، وكان بإمكانه أن يفر بسرعته، وتكتب له الحياة، لكن أى حياة تلك التى يرضاها الثور؟ إنها حياة ذليلة وهى أصعب من الموت، لسان حال الثور يهتف مع الشاعر:

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وَأَنْتَ كريمٌ ... بين طَعْـنِ القَنَـا وخَفْـقِ البنود[1]

وماذا بعد؟ إنه الموت..

وإذا لم يَكُنْ مِـنَ المَـوْتِ بُـدٌّ ... فَمِـنَ العَجْـزِ أَنْ تَكُـونَ جَبَانَـا[2]

والصحراء لا تعرف فيها مكاناً للجبناء...

إذاً نجـح الـثور فـى فـك القيود عن القوائم، وتمكن من الكلاب ومواجهتها، وكان فى قمة عنفوانه، وشدة بطشه وانتقامه من هؤلاء الظلمة.. ولابـد فـى المعـركة من منتصر ومهزوم، من حى ومقتول.. وأخذ الثور يسـتخدم قرنيه العظيمين المدربين اللذين يشبهان سيفين صارمين مصقولين، يدخلهما فى أجساد الكلاب.. ولما كان القرنان غير مستقيمين، بل فيهما بعض الاستدارة كانت الإصابة بهما أخطر وأقسى، فمدى الإصابة بالقرن المستدير

---

(١) المتنبى/ ديوانه ٣٢١/١ بشرح العكبرى.
(٢) نفسه ٢٤١/٤.

أعظم من المستقيم، فضلاً عن قيام الثور بتحريكهما فى جوف الكلب وأحشائه.

ويستطرد أبو ذؤيب فى وصف القرنين، فيشبههما بسفودين. وهما عودا الحديد الذى يشوى عيه اللحم، لكن هذين السفودين نزع اللحم منهما قبل تمام النضج، فبقيت عليهما آثار دماء.. وهو هنا يشعرك بأنه فى صف الثور الذى بُغِى عليه، ولذا ترى أصداء التشفى واضحة من خلال هذا الوصف..

إنه "فى كبر سنه كان الأجدر بالقدر أن يتركه ينهى سنينه القليلة الباقية فى هدوء وسلام، لا يؤذى أحداً ولا يؤذيه أحد. تجد أثر هذه الشهوة فى تنغيم "بمذلقين"... كما تجده فى التصوير القاسى فى ثانى البيتين، إذ يؤكد تعجل هؤلاء الشاربين ونزعهم للسفودين قبل أن يتم إنضاج اللحم الذى عليهما لشوقهم إلى التهامه..."[1].

وما العجلة هذه إلا عجلة أبى ذؤيب فى معرفة آثار الطعن بالقرنين ورؤية الدم الخارج على القرنين انتقاماً من المعتدى...

الكَلَّابُ يحسم المعركة لينقذ الكِلابَ:

٤٦-حتى إذا ارتَدَّتْ وأَقْصَدَ عُصْبَةً   منها وقَامَ شَرِيدُها يَتَضَوَّعُ

٤٧- فَبَدَا لهُ رَبُّ الكِلاَبِ بكَفِّهِ   بِيضٌ رِهَابٌ، رِيشُهُنَّ مُقَزَّعُ

٤٨- فَرَمَى لِيُنْقِذَ فَرَّهَا فهَوَى له   سَهْمٌ وأَنْفَذَ طُرَّتَيْهِ المِنْزَعُ

استطاع الثور أن يرد الكلاب عنه، فقد رأت منه شدة بأس، وقوة، من خلال قتله بعضها، وإصابته بعضاً آخر، وها هو يعوى ويصيح.. ولكن الصياد الذى أصيب فى رأس ماله -وهو كلابه- أبى إلا أن ينتقم وينقذ ما بقى من الكلاب.

---

(١) النويهى ٧٧٠.

إن هــذا الصياد بيده نصال رقاق مرهفة، وما أكثر ما رمى بها قبل ذلك فكانت حاسمة!! رماه بسهم فى أحد جنبيه فدخل فى الخطين وخرج من الجنب الآخر.

كَبْـوَة الجَـوَاد:

٤٩ - فَكَبَا كَمَا يَكْبُو فَنِيــقٌ تَــارِزٌ   بالخَــبْت إلا أنَّــــه هُــوَ أَبْــرَع

٥٠ - فَصَرَعْنَه تحت الغُبَار وَجَنْبُه   مُتَتَرِّبٌ، ولكُــلِّ جَنْــبٍ مَصْــرَعُ

كــأن أبـــا ذؤيـــب يلتمس العذر لهذا الثور، الذى لم يدخر وسعًا فى الدفاع عن حياته بكل ما أوتى.. لكن ماذا يفعل وقد اجتمع عليه كل هؤلاء؟.. وهذا هو السر فى تشبيهه إياه بفحل الإبل، ثم استدرك فقال (إلا أنه هو أبرع) مما يدل على الإعجاب الشديد به..

يقــول الدكــتور ناصف[1]: لقد كبا الثور "فى سبيل غيره، كبا لأن الدور الذى يقوم به صراع لا يزول، وكبا لأنه باحث عن حريته أمام الدهر".

ويبدو أن الكلاب عادت إليه مرة أخرى حين أيقنت أنه لا طاقة له بها بعد أن رماه صاحبها..

فإما أن صاحبها هو الذى أغراها به لتجهز عليه، وإما أنها أرادت أن تسهم فى قتله وتذيقه بعض ما أذاقها، لتنتقم لنفسها. لقد أرادت إذلاله، وها هو ذا (متترب).. ولا عجب؛ف(لكل جنب مصرع).

---

(١) صوت الشاعر القديم ١٤٥.

المقطع الرابع

بطلان فارسان حريصان على المجد

وبعد أن فرغ من قصة الثور، انتقل إلى ما هو أقوى وأشد.. إنهما فارسان عظيمان.. ماذا حدث معهما من الدهر؟.

٥١- والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَدَثانِه مُسْتَشْعِرٌ حَلَقَ الحَديدِ مُقَنَّعُ
٥٢-حَمِيَتْ عليه الدرعُ، حتى وَجْهُهُ من حَرِّها يَوْمَ الكَرِيهَةِ أسْفَعُ

فبدأ بفارس لبس كامل لبوس الحرب، فها هي الدروع قد اتخذها شعارًا، كناية عن شدة حرصه وحذره رغم شجاعته، فصارت كأنها ملاصقة لجسده، وغطى رأسه بقناع من حديد...

لما اشتد القتال، ولجّ في الكر والفر، صارت الدروع حامية، حتى إن لفح حرها أصاب وجهه، ولتكرار ذلك صار وجهه أسفع أي أسود في حمرة.. وإذا كان الحمار له أزواج وتوافرت له سائر رغبات الجسد، والثور كان يعوذ بالأرطى عندما تنزل به نازلة، فإن الفارس لا يهمه شئ من هذا ولا ذاك.. ولكن معرض للحر "وهذا الحر جزء من أسرة المجد، وهذا المجد ثقيل على نفس البطل.. فهو قلقه وهمه..."[1].

فرس البطل الأول:

٥٣- تَعْدُو به خَوْصَاءُ، يَفْصِمُ جَرْيُها حَلَقَ الرِّحَالَةِ فَهْيَ رِخْوٌ تَمْزَعُ
٥٤-قَصَرَ الصَّبوحَ لها فشُرِّجَ لَحْمُها بالنيِّ فَهْيَ تَثُوخُ فيها الأصْبُعُ
٥٥- متفلِّقٌ أنْسَاؤُها عَنْ قانِئٍ كالقُرْطِ صَاوٍ غُبْرُه لا يُرْضَعُ
٥٦- تَأْبَى بِدُرَّتِها إذا ما اسْتُغْضِبَتْ إلا الحَمِيمَ فإنَّه يَتَبَضَّعُ
٥٧- بَيْنَا تَعَنُّقِه الكُماةَ ورَوْغِهِ يَوْمًا أُتِيحَ له جَرِيءٌ سَلْفَعُ

---

(١) صوت الشاعر القديم ١٤٨ بتصرف وإيجاز.

أما فرسه فهى خوصاء أى غائرة العينين لكثرة خوضها الحروب، وهـــى سريعة جدًّا، نشيطة، قوية، ولشدتها فى جريها واندفاعها يفصم حلق السرج.. مع أن جريها سهل رخو، فهى تسبح سبحًا، وتمر كالبرق الخاطف.

عنى الفارس بفرسه عناية فائقة – كسائر العرب- حتى إنه كانٍ يؤثرها بلبن الصباح، ومن ثم صار لحمها -رغم خوضها الحروب- مختلطاً بالشـــحم، فـــإذا غمـــزت فيها إصبعك ساخت...وقد عاب الأصمعى ذلك فى الفرس، لأنه يتنافى وصلابتها المنشودة فيها..

لقـــد تفلق موضع الأنساء (عروق الفخذ) عن لحم أحمر اللون وهو ضـــرعها الصـــغير الجاف اليابس وذلك دلالة على أنها لم تحمل منذ زمن، وهـــذا ينـــتج عـــنه صـــلابتها وقوتهـــا ونشاطها، لأنها لم تضعف بالحمل والإرضاع.

إنهـــا فـــرس أبية، عزيزة النفس، لا تطيع إذا أكرهت أو استغضبت فهى تسرع دونما ضرب أو ما إليه.

انشـــقت الأرض عن بطل صنديد آخر، ظهر للبطل الأول فى الوقت الـــذى كـــان يعانق الأبطال، وكأنهم يقرون له بالسبق والتفرد والبطولة.. أو يعانقهم أى يضربهم ثم يروغ من ضربهم، وهذا الثانى جرئ مقدام.. فما هى صفات حصانه؟

<u>حصان البطل الآخر:</u>

٥٨- يَعْـدُو به نَهْشُ المُشَاشِ كَأَنَّهُ ‌ صَـــدَعٌ سَلِيـمٌ رَجْعُـه لا يَظْلَـعُ

إنـــه حصان خفيف سريع، يمس الأرض مسا رقيقا فى جريه، وأما حجمـــه فهـــو متوسط، وهو ينساب انسياباً فى الجرى، وليس به عرج أو ما يعاب.

لقاء البطولة ونهاية ماجدين:

٥٩- فَتَنَادَيَـا وتَوَاقَفَـتْ خَيْلاَهُمَـا وكلاَهُمَـا بطَـلُ اللِّقَـاءِ مُخَـدَّعُ

٦٠- متحامِيَيْـن المَجْدَ، كلٌ واثِـقٌ ببَلائـه واليَـوْمُ يَـوْمٌ أشْنَـعُ

٦١- وعليهما مَسْرُودَتَان قَضَاهُمَـا داودُ أو صَنَـعُ السَّوَابِـغِ تُبَّـعُ

٦٢- وكلاهمـا فـي كفّـه يَزَنيَّـةٌ فيهـا سِنَـانٌ كالمَنَـارَةِ أصْلَـعُ

٦٣- وكلاهمـا مُتَوَشّـحٌ ذَا رَوْنَقٍ عَضْبًـا إذا مَـسَّ الضَّرِيبة يقطَـع

٦٤- فتخـالسَـا نَفْسَيْهما بنوافـذ كَنَوَافِـذِ العُبُـطِ التـي لا تُرْقَـعُ

٦٥- وكلاهُمَا قَدْ عَاشَ عيشَةَ ماجِدٍ وجَنَـى العَـلاَءَ لَوَ انَّ شَيئًـا يَنْفَعُ

يـبدو أنـه كان بينهما خصومة قديمة، ولقاءات متكررة، ونزالات عديدة.. ويظهر أن الثانى كان موتورًا إلى حد كبير، لأنه جاء يطلب الأول، والأبطال كانوا يعانقونه ربما لفوزه.. لكن اللقاءات السابقة لم تحسم البطولة لأيهما، لأنهما متكافئان..

نـادى كل منهما صاحبه، والتقيا فصارا وجهاً لوجه، ولا يكاد اللقاء يحسم لأى منهما، فكلاهما بطل، مجرب، خبير، يعرف مناحى التفوق لدى الآخر... وكلاهما خدع قبل ذلك ولن يخدع مرة أخرى. إذا اللقاء متكافئ فى كل شئ، ومن ثم قال (تناديا) أى معا، وخيلاهما كذلك.

إن كـلا منهما حريص على المجد، مصر على الاستئثار به، واثق بالنصـر علـى صـاحبه يـريد إحـراز البطولة. إنه لقاء فى غاية العسر والصعوبة، واليوم يوم الكريهة..

ترى لماذا أخر الحديث عن أدوات الحرب بعد حديثه عن اللقاء؟ هل يـريد أن يبين عوامل صعوبة اللقاء، وطول النزال، ومدى المشقة فى ظفر كل منهما بصاحبه".. ربما.

المهـــم أنـــه ذكر هنا الدروع السابغـــة المحكمة كأنها من صنـــع داود- علـــيه السلام- وهو أول من صنعها بتعليم الله سبحانه ذلك **﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم..﴾.**

أو أنها مجازة من قبل (تبع) الخبير بها، العليم بأصنافها..

وأما الرمح فهى منسوبة إلى ذى يزن، يلمع سنانها ويبرق، فهى حادة ماضـــية إذ لا يعلوهـــا صدأ.. أرأيت كيف كانت أدوات حرب البطلين، إنها أدوات أضاف الشاعر عليها من أعلام الماضى ما جعلها قيمة عتيقة.. فهذان إذاً بطـــلان يسعيان إلى إحراز وتملك السيوف النادرة، والرماح الغالية، فهما إذاً ليسا عاديين..

وهـــا هـــو الســـيف يتوشحه كل منهما، وهو سيف يتميز بالصفاء، والحسم، لا يقع على شئ إلا قطعه..

إن مثل هذين البطلين لا يستطيع صاحبه أن ينال منه بضربة ماضية قاطعـــة حاســـمة، لأنه خبير بأنواع الطعنٍ والضرب، ولذا يتحاشى طعنات خصـــمه الموجعة، ولذلك كان أبو ذؤيب دقيقاً حين استخدم كلمة (فتخالسا).. أى ضرب كل منهما صاحبه خلسة، وكأن الضربتين وقعتا فى لحظة واحدة، كانت فيها نهايتهما معا..

أرأيـــت كيف جعلهما كفئين حتى هذه اللحظة، لحظة الطعن، ولحظة الموت؟!

هـــل خلدهما المجد الذى حققاه فى حياتهما؟ وهل دفع الموت العلاء الـــذى جنـــياه؟ كـــلا.. فلا شئ من هذا ولا ذاك يؤخر الموت أو يدفعه عن صاحبه.

فكذلــك كان أبنائى الأبطال الذين ذهبوا للفتح، جنوداً، بواسل، ماتوا كما يموت سائر الأبطال...

وقــد رأى الدكــتور أحمد كمال زكى فى هذا المقطع قمة التصوير وروعــته وقال[1]: "وأروع تصويرات هذيل ذلك القسم من عينية أبى ذؤيب الذى يمثل به صراعا بين فارسين. بل ربما كانت أروع شعر قرأته من حيث جمال العرض، ودقة الإخراج، وروعة التصوير...".

بينما كان رأى الدكتور النويهى على النقيض، إذ يقول[2]: "فى قراءة هــذه القصـــة يجــب أن نفرق بين شيئين: هدفها، ومدى توفيق الشاعر فى نظمهــا. أمــا هدفها فنبيل رائع النبل.. وأما توفيقها الأدائى فلا نظنه كبيراً، فهى أقل إجادة وإمتاعاً فى تفاصيل وصفها من القصتين السابقتين...".

بيد أنه قال عن بيته:

فتناديا وتوافقت خيلاهما ....

إنه "بيت رهيب فى تصوير لقاء البطلين، إذ يتحدى كل منهما الآخر، وتقــف خــيل كــل مــن الجيشين المتحاربين تراقب المعركة بين البطلين المتكافئين..".

---

(١) شعر الهذليين ٢٨٩.

(٢) الشعر الجاهلى صــ٧٧٥.

تعقيبـــات

١- التصويـــر:

فى القصيدة صور رائعة رسمتها ريشة شاعر حاذق بمهـــارة فائقة.. وهـــى بشكل عام صراع قائم بين الموت والأحياء على طول القصيدة.. ثم تشبيهات وصور جزئية مثل:

- صورة المنية حين شبهها بوحشٍ كاسرٍ أو طير جارح أنشب مخالبه فـــي فريســـته فلم تستطع فكاكًا.. وقد جعل الشاعر المنية حيًّا قائمًا مرئيًا له أظافر ومخالب تنشب فى الأحياء.
- تشـــبيه الحمار بعبد أبى ربيعة ذلك الحى المعروف بثروته الضخمة من الغنم والإبل والبقر، وعبيدهم يعيشون فى نعم، وها هو عبدهم ذو صوت ضخم ينم عن امتلاء جسده وقوته وحيويته، وكذا الحمار الذى عاش حياة هانئة لا ينقصها من مقومات السعادة شئ.
- تشـــبيه حـــداق العيـــن بعد موت الأبناء وكأنها سملت بشوك، فهى عـــوراء، وأبناؤه كانوا هم العين التى يرى بها، وبعد فقده إياهم فقد عينه لشدة حزنه واستمرار بكائه ودمعه، كما حدث لنبى الله يعقوب عليه السلام **﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾.**
- تشبيهه نفسه إزاء حدثان الدهر ومصائبه وكثرة نوازله بحجر بصفا المشرق، يكثر قرعه، وكأن "المجتمع قد تحالف على الفرد، يريد أن يكتـــب له النصـــر، ولا يكتفى المجتمع بضربة واحدة، وإنما يتابع الضربات..."[١].
- صـــورة كلـــية للحمار وأتنه فيها السعادة والسرور، واللعب واللهو والمـــرح، والأكـــل والشـــرب، وهـــى لا تلوى على شئ، والحمار يشـــاركها اللعـــب أحـــيانًا.. وهو سعيد بإناثه الحسناوات، طويلات الجسد، والمرعى الخصيب، والماء العذب..

---

(١) صوت الشاعر القديم ١٣٠.

- ثـم صورة الأتن وقد أسرعن مجتمعات ملتصقات فصرن -بالجزع بين نبايع وأولات ذى العرجاء. "كالنهب المجمع الذى يحرص منتهبه علـى الإفـلات من صاحبه، فهو جاد فى سوقها، محمى فى دفعها، وهـو تشبيه واقع، لأنها صارت للموت نهبا مجمعا"[1]. وفى النهب سلب وإغارة وقتل..
- وكذلك الحمار يشبه لاعب الميسر الذى يفيض على القداح أى يدفعها ويفرقها، والأتن كقداح الميسر. فهل يريد أن ذلك الميسر فيه مغامرة ومقامرة؟ ربما.. لأن الرحلة محفوفة بالمخاطر والحمار كمدوس - أى مسـن الصيقل الذى يجلو به السيف- أى هو كذلك بالنسبة للأتن يدفعها ويستحثها..
- رسـمه صـورة العيوق وقد جلس فى مرقبته ليقوم بوظيفته كرابئ الضـرباء، حـتى لا يغش اللاعبون أو يخون بعضهم البعض، فهو المراقب، وهو حكم المباراة، ومعه مجموعة النجوم (فوق النظم).
- وأخـيرا فـى مقطع الحمار: يشبه الحمار وأتنه بعد إصابتها بأسهم الصـياد وكأنهـا كسـيت برود بنى يزيد الأذرع، أى كأن أذرعها صـارت معصـوبة بهـذه البرود، والمقصود الدم الذى سال على أذرعها.
- تشبيه القرنين بالسفودين اللذين وضع عليهما اللحم ليتم شواؤه، لكن الشاربين تعجلوا الطعام فالتهموه قبل نضجه، وهو يريد من ذلك أثر الدم على القرنين..

* * *

(١) الدكتور / محمد أبو موسى- قراءة الأدب القديم ٣٠٨.

الألفاظ والأساليب:

استخدم الشاعر ألفاظاً موحية، لا ينوب عنها غيرها فى نقل مشاعره وأحساسيه، أو فى بيان المعنى الذى أراده – من ذلك:

- (فَغَبَرْتُ) وقد بينّا اشتقاقها وما توحى به فى موضعها من التحليل.
- (فتُخُرِّموا) فيها دلالة على تخطف الموت لأبنائه وانتزاعهم من بين سائر الناس.
- قوله (وأقبل حينُه يتتبع) على روايات ثلاث : حَيْنَه يتتبع، حَيْنُه يتتبع، حينه يتتبع... وعلى هذه الروايات كلها تجد العبارة فى غاية الدقة والروعة..

ومو جزها: أن الحمار ذاهب إلى حتفه بأقدامه..

- قوله عن الصياد (فعيث فى الكناية يرجع) أى أدخل يده فى كنانته عجلًا مسرعًا حتى يخطف منها سهمًا آخر يصوبه قبل أن تفر الحمر.. لكن العيث فيه ما فيه من التخبط الذى قد لا يحقق له مراده من العجلة، كما أنها تفيد أن الصياد كانت أعينه على الحمر ويده فى الكنانة، مما جعلها تعيث..
- (فأبدهن حتوفهن) فيه إيحاء بدموية هذا الصياد المتعطش للدماء، حيث لم يكتف بأتان يعود بها طعاماً لأبنائه، وإنما وقف مصرا على توزيع الحتوف، كأن بينه وبينها عداوة أو خصومة.

وهناك تكرار لبعض المفردات، مما يصنع معجمًا شعريًّا للقصيدة ينبئ عن مدى الفجيعة:

- أودى بنى .. أودى بنى.. وهذا التكرار لا يخفى غرضه فى مقام الرثاء.

- تعبيره عن الدهر وحدثانه (المنون - ريبها - الدهر - المنية - الحوادث- ريب الدهر - فجع الزمان وريبه- والدهر لا يبقى على حدثانه- حينا- حين يتتبع ... إلخ).

- استخدامه الفاء في مقطع الحمار منذ البيت (٢٧) إلى (٣٥) حيث نجدها مع الأفعال (فوردن- فشرعن - فشربن- فنكرنه- فرمى - فبدا له- فعيث - فرمى - فألحق- فاشتملت - فأبدهن). مما لفت نظر ابن رشيق إليها وقال: "والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض، حتى عدوا من فضل صنعة الحطيئة حسن نسق الكلام... وكذلك أبو ذؤيب.. وذكر الأبيات، ثم قال: "فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطرد له ولم ينحل عقده، ولا اختل بناؤه، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته إياه لما تمكن له هذا التمكن..."[١].

- قوله عن الثور (فكبا) توحي بأنه معجب بهذا الثور، وما قام به من دفاع عن نفسه، وذود عن كرامته، ملتمساً له العذر، لأن لكل جواد كبوة. فهو لم (يكب) عجزا، وإنما الكبوة واقعة لا محالة لأي جواد ولكل بطل..

وقد لاحظ الدارسون أن قبيلة هذيل - بعامة - تجيد فن الرثاء "فالرثاء من حيث هو ظاهرة واضحة في شعرهم يتصل بحياتهم اتصالاً قويًّا. وكانت هذه الحياة في ألوانها المختلفة صراعًا مستديمًا". صراعًا في سبيل العيش. وصراعًا في سبيل حاجات أدبية يعتز بها العربي ويخلص لها، فكان

---

(١) العمدة.

كل ما يصادفهم فى أثناء صراعهم يتشابك ويتداخل ليجرى فى مجرى واحد تتصهر فيه مشاعرهم بلهيب الأسى والحزن."[1].

ومـــن اللافـــت للنظر فى شعرهم تكرار عبارات بعينها، تدور على ألســـنة معظم الشعراء – فمن ذلك: (والدهر لا يبقى على حدثانه..) تلك التى رأيـــناها مفتاحاً أثيراً لأبى ذؤيب فى المقاطع الثلاث فى العينية، فنجدها عند قيس بن العيزارة حين يقول:

والدَّهْــرَ لا يَبْقَى على حَدَثَانــه | **بَقَــرٌ بنَاصِفَـــةِ الجــواء ركـــود**

وساعدة بن جؤية يقول:

فالدهــر لا يبقى على حدثانــه | **أَنَسٌ لفيفٌ ذو طَوَائِــفَ حَوْشَبِ**

ويقـــول :

أرى الدهر لا يبقى على حدثانه | **أَبُودٌ بأطراف المَنَاعَـــةِ جَلْعَـدُ[2]**

وقريب منه قول أبى خراش :

ولا يَبْقَى على الحدثان عِلْجٌ | **بكُــلّ فَــلَاة طاهِــرَةٍ بــرود**

وقولـــه :

أرى الدهر لا يبقى على حدثانه | **أَقَــبُّ تُباريه جَدَائِــدُ حُــوَّلُ[3]**

وقول أسامة بن الحارث :

فوالله لا يبقـــى علـــى حدثانــه | **طريد بأوطَــانِ العلاية فَــارِدُ**

ويقول صخر الغى:

فعينى لا يبقى على الدهر قادر | **بتَيْهُورَةٍ تحت الطغاف العصائب[4].**

---

(١) شعر الهذليين صـــ١٩٧.
(٢) ديوان الهذليين ٢٤٠/١.
(٣) ديوان الهذليين ١١٧/٢.
(٤) ديوان الهذليين ٥٢/٢.

إنها صيغة مشتركة بين شعراء هذيل، توارثها اللاحق عن السابق.. وربما دل ذلك "على أن الهذليين قد انشغلوا بفكرة مشتركة حفزتهم إلى هذا التكرار الواضح، وهى فكرة المصير الحتمى الذى يجلبه الزمن"(١).

الموسيقى

أول ما يسترعى النظر ويلفت الانتباه فى موسيقى القصيدة هو رويها (العين)، هذا الحرف الذى يجود فى الحزن والرثاء، ولعل ذلك هو الذى جعل ألفاظ (الروع- الجزع - الفزع- الهلع- التفجع- التوجع) مختومة به(٢).

و"العين لها صلة بالعنف الذى يقع على الإنسان، وقد أكثر المفسرون فى الحديث عن هذه الخصيصة حين تكلموا عن قول الله تعالى ﴿ **يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعا..**﴾. وعلى قوله تعالى ﴿**خذوه فاعتلوه**﴾ فهى تصور أحداثاً سريعة شديدة كالبلع والإقلاع"(٣).

وليس معنى ذلك أن كل شاعر بمستطيع أن يجيد استخدام هذا الحرف ليسكب من خلاله آهاته وأحزانه.. غير أن أبا ذؤيب ليس أى شاعر، بل هو الشاعر الفحل، الذى تفنن فى استخدام وتوظيف هذا الروى وأجاد فى ذلك إلى حد بعيد..

والقصيدة من بحر الكامل.. وهو مناسب لمقام الحزن والتفجع.. إنه بحر كأنما خلق للتغنى المحض، سواء أريد به جد أم هزل. وفيه لون خاص

---

(١) الأسلوبية والتقاليد الشعرية ٤٠.
(٢) راجع / النويهى ٦٦٢.
(٣) دراسات فى النص الشعرى/ عصر صدر الإسلام وبنى أمية د/ عبده بدوى صـ١٥٦.

مـــن الموســـيقى يجعلـــه – إن أريد به الجد– فخماً جليلاً مع عنصر تونمي ظاهر[1].

* * *

الحكمـــــة

فى القصيدة بعض الحكم التى أشرت إليها، ومنها:

(والنفس راغبة إذا رغبتها........ البيت)

(ولكل جنب مصرع).

(فإذا المنية أقبلت لا تدفع).

(لو ان شيئا ينفع).

* * *

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ٢٤٦.

أهــم المراجــع

- الأســلوبية والتقاليد الشعرية / دراسة فى شعر الهذليين – د/ محمد أحمد بريرى – عين للدراسات والبحوث. ط أولى ١٩٩٥.
- الرؤى المقنعة.. نحو منهج بنيوى فى دراسة الشعر الجاهلى – كمال أبو ديب– هيئة الكتاب.
- رحلـــة الـــذات فى فضاء النص الشعرى القديم– د/ عالى القرشى– نادى المدينة المنورة الأدبى – السعودية.
- الشـــعر الجـــاهلى – منهج فى دراسته وتقويمه– د/ محمد النويهى– الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة.
- شعر الرثاء فى العصر الجاهلى– د/ مصطفى الشورى– لونجمان– مصر.
- شـــعر الهذليين.. د/ أحمد كمال زكى– دار الكاتب العربى للطباعة والنشر– القاهرة– ١٩٦٩.
- صوت الشاعر القديم.. د/ مصطفى ناصف– الهيئة المصرية العامة للكتاب –١٩٩٢.
- قـــراءة فـــى الأدب القديم .. د/ محمد أبو موسى– مكتبة وهبة – ط ثانية –١٩٩٨.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها– د/ عبدالله الطيب.

ثانيا : النثر

خُطْبَة حَجَّة الوَدَاع للنَّبي ﷺ
دستور إسلامي، ووثيقة لحقوق الإنسان، وأساس حضارة عالمية

بعد أن أتم الله علي رسوله وعلي المسلمين نعمته، وأسبغ عليهم فضله، واستقرت أمور الدولة الإسلامية، وكمل الدين، وتم الإسلام.. وأنزل الله على رسوله قوله: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)**﴾ ، ثم نزل قوله عز شأنه في حجة الوداع ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ...**﴾ .

شعر الرسول ﷺ بدنو أجله، وفهم بعض الصحابة ذلك من خلال هذه الآيات.

حتى إن النبي ﷺ وهو يبعث معاذاً إلى اليمن سنة ١٠هـ قال فيما قال [يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى][(١)]، فبكى معاذ خشعا لفراق رسول الله ﷺ.

كما أنه ﷺ فى العام التاسع بعث أبا بكر أميرا على الحج، ليمهد لحجة رسول الله في العام التالي، إذ أوصاه أن ينادى فى الناس: [ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان][(٢)].

أراد المولى جل شأنه أن يرى رسوله ثمرة جهاده ودعوته في تبليغ رسالة الله إلى العالمين، وأن معاناته وجهده وبذله لم يضع سدى .. وكان الرسول ﷺ حريصا أشد الحرص على إسلام الناس جميعا، حتى قال له ربه ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ**﴾ ﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾.

ونودى فى أرجاء الجزيرة العربية أن النبي ﷺ سيحج بالناس هذا العام، فانهالت الجموع الحاشدة من كل صوب وحدب – مائة ألف ويزيدون ما بين عشرين إلى أربعين ألفا – ميممة وجوهها شطر المشاعر المقدسة ليؤدوا مناسك الحج مع النبي ﷺ، فيأخذوا عنه المناسك، ويؤدوها كما يؤديها ﷺ، وليرشدهم ويوصيهم وصيته الجامعة...

"لقد كان الجمع الحاشد الذي خطب فيه الرسول خطبته تلك، أكبر جمع أتيح لمحمد ﷺ أن يخطب فيه، فقد حشد من حجاج القبائل ما لم يتيسر جمعه قبل ذلك، إذ أتت الخطبة بعدما رسخت أقدام الإسلام، وخطبت وده الوفود متحدثة بلسان القبائل، وأدرك الجاحدون من المشركين أن نجم الإسلام قد تألق وازدهر، وأن التخلف عن ركبه حكم نهائى بالاعتزال والهوان، ولأن يكونوا

---

(١) الرحيق المختوم ٤٥٨، فقه السيرة، الغزالي ٥٠٠.

(٢) صحيح البخاري – كتاب التفسير/ تفسير سورة التوبة حديث رقم ٤٦٥٥.

ساقة في جحفل الإسلام تتقدمهم الطليعة والقلب والجناحان خير من أن يصبحوا لا شيء إطلاقا في ركب الحياة... "(١).

"ونظر الرسول ﷺ إلى الألوف المؤلفة وهى تلبى وتهرع إلى طاعة الله، فشرح صدره انقيادُهـا للحق، واهتداؤها إلى الإسلام، وعزم أن يغرس في قلوبها لُباب الدين، وأن ينتهز هـذا التجمـع الكريم ليقول كلمات تبدد آخر ما أبقت الجاهلية من مخلفات فى النفوس، وتؤكـد مـا يحـرص الإسلام على إشاعته من آداب وعلائق وأحكام"(٢).

فكانت هذه الخطبة العظيمة.

ومعلوم أن هناك خطبتين، إحداهما كانت يوم عرفة، والثانية كانت يـوم النحـر حـين ارتفـع الضحى، وهو على بغلة شهباء، وعليٌّ يعبر عنه – وقد أعاد فيها ﷺ بعض ما ألقاه يوم عرفة.

يقول أبو الحسن الندوى(٣):

"... وكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة وألف درس، وكانت مدرسة متنقلة، ومسجدًا سيارًا، وثكنة جوالة، يتعلم فيها الجاهل، ويتنبه الغافل، وينشط فيها الكسلان، ويقوى فيهـا الـضعيف، وكانت سحابة رحمة تغشاهم في الحل والترحال، وهى سحابة صحبة النبي ﷺ وحبه وعطفـه، وتربيته وإشرافه..."(٤).

والنبى ﷺ يعلمنا من هذه الخطبة فى ذلك الموقف العظيم، أن على أولى الأمر من المسلمين أن يستغلوا فرصة ذلك الجمع الحاشد للالتقاء على كلمة سواء، وإزالة ما قد يكون بين دولهم مـن شوائب تعكر ذات البين، حتى تتحقق وحدة الأمة.

وإذا كان القرآن الكريم قد ذكر أن الغاية من الحج ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] فإن "مـن أعظم هذه الفوائد جمع أطراف الأمة المسلمة كل عام، وما يحققه من استنفار جزء من كل إقليم سنويا ليركبوا الأخطار والأسفار، ويقطعوا السهول والقفـار، أو يمتطـوا الأجـواء والبحـار، ويتركوا الأهل والديار، ليتحرروا – طوعا أو كرها – من أسـار العـادات وجمـود التقاليـد، ليكتسبوا كل جديد مفيد، وأي دين هذا الذي يجعل من فرائضه استخراج الفـلاح مـن عزلتـه، والنائى البعيد من منقطعه؟ فتجتمع الأرض من أطرافها، ويلتقى الهنـدى بالـشامى، والجـاوى بالمصرى، والشرقى بالغربى، في مؤتمر جامع، ورحلة مباركة..."

---

(١) البيان النبوي ٨٥، د/ محمد رجب البيومي.

(٢) فقه السيرة، الغزالي ٥٠٢.

(٣) السيرة النبوية ٣٣٥، ٣٣٦.

(٤) السيرة النبوية ٣٣٥، ٣٣٦.

وقد فطن المستشرقون إلى "رصد هذه الظاهرة، وتسجيل نتائجها الفريدة، تنبيها لدولهم الباغية...".

"يقول المستشرق (جب) .... وكان الحج أقوى عامل فى توثيق عرى هذا الاختلاط، لأنه فرض محتم.. مرة على الأقل فى العمر على كل مسلم مستطيع، وسنرى أن فرض الحج لا يزال حافظا مزيته الأولى، عاملا على إحياء الحمية الدينية، وتقوية الإيمان بالوحدة الإسلامية".

ويقول: "ولكن أعظم فروض الإسلام تأثيرا فى تغذية روح الوحدة الإسلامية هو الحج... وكل من رجع من الحج يشهد لدى جماعته بالوحدة العامة التى تترفع على القوميات الصغيرة، ويصير مركزا تشع منه حماسة دينية لمثل الإسلام العليا التى تعلو على القومية"[1].

* * *

---

(١) كتابه: وجهة الإسلام ١٣ ، ١٤، ٢٢٩ ونحن ننقل عن المنهاج القرآنى فى التشريع ٤٦٤، ٤٦٥، د/ عبد الستار فتح الله سعيد.

نص الخطبة*

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سـيئاتَ أعمالنا، من يهد اللهُ فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذى هو خير.

أما بعد، أيها الناس: اسمعوا منى أبينْ لكم، فإنى لا أدرى، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هـذا فـي موقفى هذا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

فمن كـانت عنـده أمـانةٌ فليـؤدها إلى الـذى ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضـوع[1]، وإن أول ربـا أبـدأ به ربـا عـمى العبـاس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[2]، وإن مـآثر[3] الجاهليـة

* الخطبة فى صحيح مسلم، شرح النووى - كتاب الحج - باب ١٩ (١٨١/٨)، وصحيح البخـارى بشرح ابن حجر — كتاب الحج — حديث رقم (١٧٤١) إلا أنه قال: خطبنا رسول ﷺ يـوم النحـر، وسنن ابن ماجة (٣٠٥٥)، وسيرة ابن هشام (٢٥٠/٤)، البيان والتبيين (٣١/٢) تحقيق هـارون — ط الخانجى، وإعجـاز القـرآن للبـاقلانى (١٣٠)، تحقيق السيد صقر — دار المعارف، العقـد الفريـد (١٤٧/٤)، جمهرة خطب العرب، أحمد زكى صفوت (٥٧/١) خطبة رقم (٥٣) — ط أولى — الحلبى، والأدب فى موكب الحضارة الإسلامية (٢١٥) — الأنجلو ١٩٦٨ — وغيرها — والـنص مـن البيـان والتبيين.

(١) موضوع: يقال وضعت عنه الدين أى أسقطته. ورواية ابن هشام [وإن كل ربا موضوع، ولكـن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبـد المطلـب موضوع كله] ورواية مسلم [... وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس...].

(٢) زاد فى سيرة ابن هشام [... وكان مسترضعا فى بنى ليث، فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به مـن دماء الجاهلية]، ورواية مسلم [... وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث...] وتحريم الدم هناك أسبق على تحريم الربا.

(٣) المآثر: جمع مأثرة وهى المكرمة المتوارثة.

موضوعة، غير السدانة[١]، والسقاية[٢]، والعمدُ قَوَد[٣]، وشبه العمد: ما قتل بالعصا والحَجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعبَد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم[٤].

أيها الناس: إن **﴿النَّسِيءُ[٥] زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾** [٦].

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب[٧] الذى بين جُمادى وشعبان.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة.

فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن[٨]، وتهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح.

فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان[٩]، لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

---

(١) السدانة: بكسر السين وفتحها: خدمة الكعبة.

(٢) والسقاية: سقى الحجيج، وكانت قريش تسقى الحجيج من الزبيب المنبوذ فى الماء.

(٣) القود: بتحريك الواو: قتل القاتل بالقتيل، أى القصاص.

(٤) زاد فى السيرة [.. فاحذروه على دينكم].

(٥) النسئ: هو تأخير حرمة شهر إلى آخر، فقد كان العرب فى جاهليتهم إذا جاء شهر حرام يحاربون فيه اتفقوا على أن يحلوه ويجعلوا شهرا آخر حراما.

(٦) زاد فى السيرة [.. ويحرموا ما أحل الله].

(٧) فى السيرة [ورجب مضر..].

(٨) العضل: الحبس والتضييق.

(٩) عوان: جمع عانية وهى الأسيرة أى هن عندكم بمنزلة الأسرى.

فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم بـــه لـــم تضلوا بعده: كتاب الله[1].

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصـــية، ولا تجـــوز وصية فى أكثر من الثلث، والولد للفراش[2]، وللعاهر الحجر[3]، من ادّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مُواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صَرْف ولا عدل[4].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

زاد فى رواية:

أيها الناس، إنه لا نبى بعدى، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصـــلوا خمـــسكم، وصـــوموا شهركم، أدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلون جنة ربكم[5].

وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد... ثلاث مرات[6].

---

(١) زاد في السيرة [... وسنة نبيه].

وفي رواية مسلم:

[وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله].

(٢) الولد للفراش: أى لصاحب الفراش من السيد أو الزوج.

(٣) وللعاهر الحجر: العاهر الزانى أو الزانية، والحجر: الرجم. أو أن الحجر الخيبة والحرمان.

(٤) الصرف: أن ينصرف عن الدم إلى أخذ الدية. والعدل: أن يقتل الرجل بالرجل، والمعنى: لا يقبـــل منهم شىء. وقيل: الصرف: التوبة، والعدل: الفدية. أو الصرف: القيمة، والعدل: المثل.

(٥) الرحيق المختوم، المباركفورى (٤٦٠) نقلا عن: معدن الأعمال، ورواه ابن ماجة وابن عـــساكر، ورحمة العالمين (٢٦٣/١).

(٦) نفسه، وشرح النووي لصحيح مسلم، كتاب الحج (١٨٤/٨).

وكان الرجل الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة: ربيعة بن أمية بن خلــف. كان النبي ﷺ يقول له: قل يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ يقول...[1].

* * *

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (٢٥٢/٤).

مقدمة الخطبة:

أرسى النبى ﷺ منهجا وأساسا للخطبة الدينية، وكرر ذلك فى معظم خطبه، فكانت نبراسا للخطبة الإسلامية فيما بعد حتى يومنا هذا...

وقد تضمنت المقدمة:

حمد الله عز وجل، والاستعانة به، واستغفاره، والتوبة إليه، والاستعاذة به، وكلمة التوحيد...

ثم الوصية بتقوى الله، والحث على طاعته...

وهذه المبادئ تجسد علاقة المسلم بالله عز وجل، وتتفق مع ما جاء فى فاتحة الكتاب، من حيث المضمون، والأسلوب... فهناك الحديث بصيغة الجمع ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا...**﴾ وهنا كذلك [نحمده – ونستعينه، ونستغفره... إلخ] معلنة وحدة الجماعة المسلمة، وانتظامها فى عقد واحد يعبد الله، ويوحده، ويقر بربوبيته... وفيه إشارة إلى وحدة الأمة، ومن ثم ينبغى عليها أن تعتصم بحبل الله، ولا تتفرق، فإنما يجمعها جوامع عديدة: ربها واحد، نبيها واحد، كتابها واحد، قبلتها واحدة، لغتها واحدة، لباسها واحد..

وإذا كانت فاتحة الكتاب قد ورد فيها العبادة والاستعانة بصيغة المضارع، لتوحى بالاستمرار والتجدد فقد وردت هنا كذلك – بالمضارع لتؤدى ذلك المعنى.

وتأتى الوصية بالتقوى – وهى أعظم الوصايا – بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ليدخل النبى ﷺ فى صفوة الموصين بها، من لدن آدم ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾... ولا غرو، فهو ﷺ إمام المتقين(1).

أيها الناس:

هذا النداء تكرر فى الخطبة ست مرات، وفى رواية ثمانى مرات، وهو تنبيه بين يدى الوصية، وحث على الامتثال. والنداء للحاضرين آنئذ، وجميعهم مسلمون جاءوا من أرجاء الجزيرة العربية ليؤدوا الركن الخامس من أركان الإسلام، ويأخذوا عن رسول الله مناسكهم.

فلماذا لم يخاطبهم بـــ [أيها المسلمون] أو [أيها المؤمنون]؟

---

(١) من العجيب أن أحد كتابنا المعاصرين ألف كتابا بعنوان [على إمام المتقين]!! وأين محمد ﷺ إذاً؟!. يقول الإمام القرافى – رضى الله عنه-: "واعلم أن رسول الله ﷺ هو الإمام الأعظم، والقاضى الأحكم، والمفتى الأعلم .. فهو ﷺ إمام الأئمة، وقاضى القضاه، وعالم العلماء..." الفروق (١/٢٠٥ – ٢٠٧).

وقد يقال: إن المشركين كانوا يحجون ولم يمنعهم أحد من الطواف بالكعبة، نقول: إن النبي ﷺ فى العام السابق بعث أبا بكر أميرا على الحج وكلفه – أو كلف على بن أبي طالب – أن ينادى فى الناس: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان(١).

لعل السبب فى إيثاره هذا النداء:

* أن ما ورد بعد هذا النداء إنما هى مبادئ عامة، ونصائح شاملة، ليست خاصة بالمسلمين، وأن أى مجتمع يطبق هذه المبادئ يسعد فى الدنيا... وأما المسلمون فإذا أخذوا أنفسهم بها تحقق لهم السعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة، ولذا قال ابن تيمية – رحمه الله–: إن الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة.

وعن المستورد القرشى أنه قال عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس"، فقال له عمرو: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: "لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين، ويتيم، وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك"(٢).

لأن الله عز وجل لا يجابى أحدا.. سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

* إن هذه الجموع الحاشدة هى التى يعوّل عليها فى تبليغ دعوة الله إلى الناس كل الناس، فى مشارق الأرض ومغاربها، فهُم الناس، وما الناس إلا بهم، أو ليس قد قال ربنا جل شأنه: **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾** ، وقد فهموا دورهم، وأدركوا قدرهم، وقاموا بذلك على خير وجه، حتى إن عددا هائلا منهم دفنوا فى بلاد شتى، بعيدا عن الجزيرة العربية، بينما كانوا يقومون بمهمة البلاغ، ونشر دين الله فى ربوع الأرض.

* أن النبى ﷺ مرسل إلى العالمين: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾**، **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾** ... فرسالته ﷺ عامة ... ومن ثم كان النداء لكل الناس، وقال ﷺ فى الخطبة [ليبلغ الشاهد الغائب] أى ممن هو معاصر ولم يحج آنئذ، أو كل من حضر يبلغ أبناءه، والأبناء يبلغون أبناءهم... وهكذا إلى يوم الدين... وليبلغ أولئك المسلمون كلٌّ من يدعونهم إلى الإسلام، وبذلك تصل هذه الوصايا الجامعة إلى كل الناس فى كل زمان ومكان.

* أن النبى ﷺ كان حريصا كل الحرص على إسلام كل الناس، حتى قال له ربه: **﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ...﴾** .. ولذا اختار هذا النداء ليصلهم جميعا عسى أن يكون حافزًا لهم، حين يرون هذه المبادئ التى تكفل الحياة الكريمة لهم.

---

(١) البخارى برقم (١٦٢٢).

(٢) رواه مسلم فى صحيحه: كتاب الفتن وأشراط الساعة، وأحمد فى مسنده (٤/٢٣٠).

* أو أنه ﷺ يقول للحاضرين ولمن سيبلغهم هذا البلاغ: أنتم الناس ومن عداكم ليسوا ناسا... "فعبر بالعام عن الخاص ليومئ إلى أن المؤمنين هم الناس الذين ينبغى أن يكونوا ناسا..."[1].

* ثم إن مجتمع المسلمين يضم بين جنباته أهل ملل أخرى من أهل الكتاب، وغيرهم، فهذه الوصية الجامعة بمثابة بيان أو وثيقة لحقوق الإنسان، أى إنسان... وفى ظل الحكم الإسلامى وتطبيق الشريعة الإسلامية يأمن كلٌّ على نفسه، ولا يظلم أحد أيا كانت ملته.

وقد يتساءل: وكيف كانت كلماته ﷺ تصل إلى كل هذه الأعداد الهائلة، ولم يكن هناك حينئذ وسيلة لتكبير الصوت وإعلائه؟

كما ذكرنا – سابقا – أن "ربيعة بن أمية بن خلف" كان يردد كلامه ﷺ يقول: أيها الناس، يقول لكم رسول الله كذا ...

أو كما قال الله لإبراهيم حين سأله: وكيف يبلغ آذانى – أى بالحج – الناس؟ قال عز شأنه: عليك النداء وعلىّ البلاغ.

اسمعوا منى أبين لكم:

بدهى أن الناس قد تنبهوا بعد ذلك النداء [أيها الناس]، لكن النبى ﷺ لم يكتف بذلك، وإنما شدد على التنبه بقوله [اسمعوا منى أبين لكم] تأكيدا وزيادة فى التنبيه إلى أهمية ما يلقى عليهم...

فهو بيان في غاية الأهمية – وهذا التكرار فيه تنبيه للغافل، وإيقاظ للنائم، وتحريك للهمم، وإرهاف للسمع، وإيقاد للذهن...

بل زاد ذلك كله حدة فى التنبيه، وشدة فى الإيقاظ حين قال ﷺ:

"فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا".

فهذا من شأنه أن يجعل الحاضرين أشد حرصا، وأعظم إقبالا، وأكثر تهيؤا، لأنها فرصة لن تتكرر، فليهتبلها كل واحد منهم...

إن كل العوامل لتبعث على ان يكون جهاز الاستقبال لدى كل من حضر الموقف فى أوج استعداده... فالمكان: عرفات الله، والموقف يباهى الله بعباده ملائكته قائلا: [عبادى جاءونى شعثا غبرا من كل فج عميق، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم]... والحجاج – جميعهم – تجردوا من كل مظاهر الدنيا وزينتها وارتدوا ملابس واحدة تشبه الأكفان، وتركوا الأولاد والأموال والديار... إلخ.

إنه ركن الحج الاعظم، وفى ذلك المكان الطاهر الذى يتجلى الله فيه على عباده بالمغفرة والرحمة ينصحهم نبيهم الأعظم، ويوصيهم وصية المودع...

وقد أشار ﷺ إلى ذلك بقوله: [فى موقفى هذا...]

---

(١) من أسرار البيان النبوى (٧٧).

ويلاحظ أنه ﷺ أكد الجملة بقوله: [فإنى لا أدرى] وذلك لأنه – كما أشرنا – شعر بـدنو أجلـه بعدما نزل قوله جل شأنه: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾. فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابـن عباس قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ-: [نُعيت إلى نفسى]، وفهم الصحابة ذلك...

وقد ذكرنا أنه ﷺ حين بعث معاذا إلى اليمن قال له ما يفيد ذلك..

والناس حين يشعرون أنها الحجة الوحيدة الأخيرة مع رسول الله ﷺ يدركون أنها فرصة نادرة، وكلامه لهم لن يتكرر، وحينئذ يقبلون عليه بكل حواسهم، وليس – فقط – بآذانهم...

حرمة الدماء والأموال:

وبدأ – عليه الصلاة والسلام – أول ما بدأ، ببيان حرمة الدماء والأموال، فى أسلوب تأكيد بـ (إن) واسمية الجملة... قال النووي: معناه أنها متأكدة التحريم، شديدته.

وذلك لأن من المسلمين حينئذ من هو حديث عهد بجاهلية، ومعلوم أن القتل وإزهـاق الأرواح وإسالة الدماء أمور مستباحة لدى الجاهليين، حتى إن االوقت والزمن لديهم مقسوم، اما ثـائرون مغيرون، وإما مغار عليهم، يقول قائلهم:

يُغَارُ علينا وَاتِـرِين فيُشْتَفَى بنـا ... إن أُصِـبْنَا أو نُغِيـرُ عَلَـى وَتْـرِ

قَسَمْنَا بذاكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَـا ... فما ينقضى الا ونَحْن على شَـطر

ويقول الآخر:

المـــوت غايتُنَـــا فَـــلا ... قَـــصر ولا عنـــه جِمَـــاحْ

وكأنَّمَـــا ورِدُ المنيـــَّـة ... عنـــدنا مــــاءٌ وَرَاحْ[1]

وقدم الدماءعلى الأموال لأن الحرص على النفس والروح أهم وأعظم.. ثم حـرم الأمـوال لأن القوم فى الجاهلية كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل، ويلوون حقوق المستـضعفين واليتـامى.. ولذلك وردت آيات الذكر الحكيم تنهى عن ذلك ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْـوَالَكُمْ بَيْـنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ**﴾ بل إن أطول آيه فى كتاب الله – عز وجل – هى آية الدين...

وكان ﷺ دائما يشدد على حرمة المسلم، وقد تعلم أصحابه ذلك، فقد نظر عبد الله بن عمر إلـى الكعبة يوما، وقال: [ما أعظمك! وأعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك][2].

---

(١) راجع البحث الأول من كتابنا فلسفة القوة فى شعر أبى تمام.

(٢) التاج الجامع للأصول (٥/٣٠).

وفى غزوة الأحزاب كان زيد بن ثابت – رضى الله عنه – غلاما صغيرا، وكان ممن يعمل فى الخندق بنقل التراب.. ومن شدة تعبه نام، فأخذ عمارة بن حزام سلاحه مازحا. ولما استيقظ أخذ يبحث عنه، فقال له ﷺ: يا أبا رقاد!! [نمت حتى ذهب سلاحك].. ثم قال: [من له علم بسلاح هذا الغلام؟].

فقال عمارة: يارسول الله، هو عندى، فقال: [رده عليه]؛ ونهى ﷺ: [أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا] وقال ﷺ: (لايحل لمسلم أن يروع مسلما) [1] بل إنه ﷺ يقول: (من نظر الى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة) [2]، وقال: (من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهى، وإن كان أخاه لأبيه وأمه) [3].

والأحاديث فى ذلك كثيرة... تُرى: هل للمسلم فى زماننا هذا حرمة؟!.

لقد هان المسلم على أخيه المسلم، فاستباح دمه وماله وعرضه، وربما كان للكافر حرمة لديه، بينما لم تبق للمسلم حرمة.

وقوله ﷺ: (إلى أن تلقوا ربكم):

فيه أمران:

الأول: أن هذه الحرمه قائمة إلى يوم القيامة؛ وعلى مدار حياة كل واحد من المسلمين، فلا يستثنى من ذلك وقت من الأوقات، وانما ورد الاستثناء فى نص نبوى يقول فيه ﷺ: (لايحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)[4].. والذى يقوم بتطبيق الحدود هو الإمام ومن يقوم مقامه، وليس ذلك متروكا لأفراد المسلمين.. وحرمة الأموال مؤبدة كذلك، إلا اذا امتنع صاحب المال من أداء الزكاة فحينئذ تؤخذ منه، ولذلك قيدت فى الحديث بقوله ﷺ (... عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام) [5].

ومن ثم كان قتال أبى بكر لمانعى الزكاة، وقال رضى الله عنه: لو منعونى عقالا أو عناقا كانوا يؤدونه رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه. وقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

---

(١) رواه أبو داود فى المزاح.

(٢) الطبراني.

(٣) رواه مسلم.

(٤) البخاري، الديات باب: قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ عن ابن مسعود (٦/٩).

(٥) الحديث بتمامه: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله" البخاري (١٩/٩) كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: قتل من أبى قبول الفرائض.

الثاني: فيه إشارة وتذكير بالموقف العظيم حين يلقى المسلم ربه، ويكون حينئذ قد خالف أوامر الله وأوامر رسوله، فاستحل هذه الحرمات، فكأنه ﷺ يقول له: ماذا أنت قائل، وبم تجيب يا من قتلت النفس التى حرم الله؟ ويا من أكلت أموال الناس بالباطل؟...

وآثر (ربكم) على ما عداه، لأن فيه التربية والتزكية والمن والإحسان والإنعام والفضل... إلخ..

وفيه إشارة من طرف خفى إلى أنه: لا ينبغى منك يا من رباك الله وأنعم عليك نعما لا تحصى ولا تعد أن تخالف أوامره... وفي الحديث [أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم][(1)].

كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا:

تشبيه منه ﷺ لحرمة الدماء والأموال بحرمة اليوم والشهر والبلد، قال ابن حجر:

لأن المخاطبين كانوا يرون تلك الأشياء، ولا يرون هتك حرمتها، ويعيبون على من فعل ذلك أشد العيب[(2)].

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

قال ابن حجر: كان فرضا عليه أن يبلغ، فأشهد الله على أنه أدى ما أوجبه عليه[(3)].

فقد قال له ربه: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾** [المائدة: ٦٧].

أداء الأمانة:

ثم يأمرهم بأداء الأمانة إلى من ائتمنهم عليها... فما علاقة ذلك بسابقه؟

إن المؤتمنين يمكن أن تتأتى منهم الخيانة، فينكرون ويجحدون ما لديهم من أمانات، فيكون ذلك استحلالا لمال حرام... وقد يؤدى هذا الجحد إلى قتال تستباح فيه الدماء.

بيد أن الأمانة أوسع من ذلك وأشمل، "فهى ترمز إلى معانٍ شتى، مناطها جميعا شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه... لكن العوام يقصرون الأمانة في أضيق معانيها وآخرها ترتيبا، وهو حفظ الودائع، مع أن حقيقتها فى دين الله أضخم وأثقل..."[(4)].

إنها تشمل علاقة المسلم بربه، وبالناس، وبكل ما حوله... وتشمل كذلك حفظه جوارحه وتوظيفها فيما أنيط بها... قال عز شأنه **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ...﴾** [النساء: ٥٨].

---

(١) انظر السابق.

(٢) فتح البارى (٣/٦٧٣).

(٣) نفسه.

(٤) خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالى (٤٥ — ٥٤).

وقد تنبأ رسول الله ﷺ بما يحدث فى آخر الزمان من موت الضمائر وانتزاع الأمانة، حيث لا يستطيع حملها أولئك الضعاف المهازيل، فقال فيما رواه حذيفة بن اليمان وأخرجه الشيخان: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة. وحدثنا عن رفعها فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت. ثم ينام النومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل المَجْل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبرا وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدى الأمانة، فيقال: إن فى بنى فلان رجلا أمينا. ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان. ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت، لئن كان مسلما رده على الإسلام، وإن كان نصرانيا رده على ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانا وفلانا](1) رضى الله عنك ياحذيفة، فماذا عسى الناس أن يقولوا اليوم؟!.

ولذلك لا تعجب حين عرضها الله **﴿عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ...﴾** [الأحزاب: ٧٢].

وقد كان القوم فى الجاهلية يجحدون الأمانات، حتى إنهم لم يأتمنوا سوى – محمد بن عبد الله – قبل أن ينبأ، وبعد البعثة، فأودعوا أماناتهم، وكانوا يلقبونه: الصادق الأمين... وقد استبقى ﷺ عليا فى مكة عند هجرته ليؤدى عنه تلك الأمانات إلى أصحابها.

هذه الصفة أساس راسخ لكل مسلم، فهى لازمة له، تدور مع الإسلام، ولذلك جاءت بأسلوب الشرط [فمن كانت عنده.. فليؤدها –] هكذا بلام الأمر للتأكيد والإلزام، وفيه استثارة لكل فرد بحيث ينظر فى أمره، هل لديه من تلك الأمانة شيء – أنكره أو نسيه – فليقم من فوره بإلزام نفسه بأدائه أو الاعتراف به.

وقوله [إلى من ائتمنه عليها] فيه تعميم.. ليكن من كان ذلك المؤتمن، فعليك أن تؤديه أمانته... قد يكون **المؤتمن**: الله – عز وجل – الذى ائتمنك على التكاليف الشرعية، أو حواسك التى وهبك إياها فهى أمانات عندك، كما قال عز شأنه: **﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾** [الإسراء: ٣٦]... وقد تكون الأمانة الزوجة، والأولاد، والمال، والوظيفة، وسائر ما خولك الله... فمجالاتها كثيرة، "منها: الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية والشهادة والقضاء والكتابة ونقل الحديث والأسرار... "(2).

---

(١) فتح البارى (٣٤١/١١) حديث رقم (٦٤٩٧) كتاب الرقاق (٤٢/١٣)، وأخرجه مسلم. جذر قلوب الرجال: الجذر الأصل من كل شيء. الوكت: أثر الشيء اليسير منه. المجل: أثر العمل فى الكف إذا غلظ.

(٢) راجع موسوعة نضرة النعيم (٥٠٩/٢) (الأمانة).

حرمة الربا:

وهو ﷺ هنا يحرم الربا بكافة أنواعه، لأنه سبب فى خراب الدنيا، ودافع إلى الحقد والكراهيـة، ومعول هدم فى بناء المجتمع، وأساس ذلك أن الغنى لم يقم بحق الفقير فى ماله، فيضطر إلـى الربا، فيزداد الغنى غنى، ويزداد الفقير فقرا، وتتسع الهوة والفجوة بين هؤلاء وأولئك... فمـاذا هم فاعلون؟

ومن ثم تجد النظم القرآنى المعجز يأتى بآية الربا ضمن حديثه عن غزوة أحد، ومعصية أمـر رسول الله ﷺ فقد بدأ الحديث عن الغزوة منذ الآية (١٢١) من سورة آل عمران **﴿وَإِذْ غَـدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ...﴾**ثم يذكرهم بنصر الله لهم في بـدر، وكيـف أمـدهم بملائكته... إلى أن تأتى الآية (١٣٠) **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَـا أَضْـعَافًا مُـضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ﴾**.. ثم يأمرهم بالمسارعة إلى مغفرته وجنته، وأن ذلك يتأتى بالإنفاق فى السراء والضراء (١٣٣، ١٣٤).

كل ذلك ليبين أن طاعة الله وطاعة رسوله لا تتجزأ، وأن نصرة الله – فيما أمرنا به استمساكا، وفيما نهانا عنه تجنبا وابتعادا – تستوجب نصره لنا **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ تَنْـصُرُوا اللَّـهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ..﴾** ومعصية الله ورسوله بتحليل ما حُرّم يستوجب عقاب الله عز وجل، ويستحق العاصون الخذلان والهزيمة.

ابدأ بنفسك:

ثم يرسى الرسول ﷺ مبدأ عظيما، وهو: أن على الإمام – وكل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر – أن يبدأ بنفسه وأهله وذويه وعشيرته الأقربين.

ولذلك ورد فى رواية مسلم [وإن أول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب]. وفى روايـة [ربا عمى].

ومن المعلوم أن للعباس بن عبد المطلب مكانة رفيعة ومنزلة عظيمة لدى النبى ﷺ... فجعل ماله لنفسه، وقال (ربانا)...

وكان ذلك منهجا ثابتا للنبى ﷺ منذ قال له ربه: **﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾** فكان يجمعهم ويقول لهم: يا بنى عبد المطلب، يا بنى هاشم، يا بنى عبد مناف... لا أغنى عنكم من الله شيئا..

يا فاطمة بنت محمد... لا أغنى عنك من الله شيئا .. ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا.

وحين جاءه "أسامة بن زيد" يشفع للمرأة المخزومية غضب، وقال: وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها[1].

وكان الخلفاء بعده ينهجون نهجه، فلقد وقف عمر يخطب يوما على المنبر، يقول: اسمعوا وأطيعوا.. فقام رجل وقال: والله لا نسمع ولا نطيع: قال: لم؟ قال: لأنك أعطيت نفسك أكثر مما أعطيتنا من قماش، وكان رضى الله عنه ضخما طويلا.. فقال: قم يا عبد الله بن عمر، أين نصيبك؟ فيقول أعطيته لك يا أمير المؤمنين لتكمل ثوبك.. فقال الرجل: الآن نسمع ونطيع.

"لقد كان رضى الله عنه يعلم أن أمانة الحكم لاتمتحن امتحانها الوثيق إلا هنا.. فى علاقات الحاكم بأهله، هل لهم قانون وللناس قانون؟ أم أنهم والناس سواسية أمام قانون واحد، وعدالة واحدة..؟. لقد كانت الأرض تميد، والسماء تمور، حين يعلم أن أحدا من أسرته ذهب بامتياز .. أى امتياز.. فكان إذا سن قانونا، أو حظر أمرا جمع أهله أولا، وقال لهم "إنى قد نهيت عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإنى والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه منى.. فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر"[2] وهكذا، كانت لهم فى رسول الله أسوة حسنة.

لقد كان الربا سببا أساسا "فى نكبة هذه الأمة المسلمة، نتيجة لفوائد الديون التى اقترضها حكامها من الدول الأجنبية الكافرة، وكل ما ذقناه على يد الكفار من إفساد الأخلاق، ونهب الثروات، واحتلال الديار، وفرض القانون الوضعى عليها، كل هذا وغيره كان مصداقا مفزعا لهذا الوعيد الإلهى الذى آذن الله تعالى به من خالف عن أمره"[3].

إن الله عز شأنه يقول: **﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾** [البقرة: ٢٧٩] وهو "إنذار بالغضب الشديد من الله والرسول عليه السلام، بما يشبه الحرب عليهم، وإذا بلغ الغضب مستوى الحرب تنتقل العلاقة إذن بين الطرفين إلى درجة العداوة. وفى ذلك ما يدفع المؤمنين إلى تجميد شأن الربا وتصفية أثاره فورا، خشية من غضب الله ورسوله، لأنهم لا قبل لهم بتحمل عداوة الله لهم، وشن حرب عليهم: فيها الفناء لهم".

---

(١) البخارى كتاب الحدود، باب: كراهية الشفاعة فى الحد إذا رفع إلى السلطان – ورواه مسلم وأصحاب السنن وأحمد كلهم عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) خلفاء الرسول – خالد محمد خالد (١٩٧، ١٩٨).

(٣) المنهاج القرآنى (٦٢٢).

"وهذا الإنذار فى عنفه وشدته لا يشبه إلا ذلك الإنذار الإلهى الذى توجهه الرسالة لأى رسـول: إلى الكافرين برسالته، من الكبراء والزعماء فى مجتمعاتهم... يدل على خطر الربا على البشرية فى أمنها وسلامها"[1].

وقد ورد فى الأثر "ليأتين على الناس زمان لا يبقى فيه أحد إلا أكل الربا، فإن لم يأكله أصـابه من غباره" [2].

النهى عن الثأر:

[وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب].

الدماء المذكورة هنا المقصود بها: الثأر، الذى "كان أكبر قانون عندهم، يخضع له كبيرهم وصغيرهم.. فهو شريعتهم المقدسة، وهى شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب، حتى يثأروا من غرمائهم".

"... ولم يكونوا يقبلون الدية، إذ يرونها ذلا ما بعده ذل، فالدم لا يشفيهم منه إلا الدم"[3].

وكانت نساؤهم تقوم بدور المحرض الحاض على الانتقام، والحث على إدراك الثأر:

تقول كنزة أم شملة بن برد المنقرى[4]:

إن يَكُ ظنّى صَادِقًا، وهْوَ صـادقى　　بشَمْلَةَ يحْبسْهُمْ بهـا محْبِسًا أَزْلا

فيا شَمْل شَمِّرْ، واطلب القَوْم بالذى　　أُصِبْتَ، ولا تَقْبَلْ قصَاصًا ولا عَدْلا

وتقول امرأة من طيئ[5]:

أَمَا فى بنى حِصْنٍ منَ ابْنِ كَرِيهَةٍ　　منَ القَوْم طلاَّب التّراتِ غَشَمْشَم

فيقتل جَبْرًا بامْرِئٍ لـم يكُـنْ لـه　　بـواءً، ولكِـنْ لاَ تكَايُـلَ بالـدَّم

وقالت أم عمرو بنت وقدان[6]:

---

(١) منهج القرآن فى تطوير المجتمع ص (١٤٣) د/ محمد البهى.

(٢) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة وأحمد فى المسند من حديث أبى هريرة مرفوعـا. والحـاكم فى المستدرك.

(٣) العصر الجاهلي د/ شوقي ضيف (٦٢ – ٧٣).

(٤) حماسة أبى تمام/ المرزوقى (٢٤٠).

(٥) نفسه (٢١١/١/٤٩).

(٦) نفسه (١٥٤٦/٣/٦٧١).

إن أنـــتمُ لــم تَطْلبُــوا بـــأخيكم   فذروا السلاح ووحِّــشُوا بـــالأبرق

وخذوا المَكَاحِلَ والمَجَاسِدِ والبسُوا   نقب النساء فبئس رَهْطُ المُرْهَــق

ألهـــاكُمُ أَنْ تَطْلُبُـــوا بـــأَخِيكُمُ   أَكْلُ الخَزِيرِ ولَعْقُ أجْــرَدَ أَمْحَــق

وقالت كبشة بنت عمرو بن معد يكرب[1]:

فإن أنـــتمُ لــم تثـــأروا واتَّــدَيْتُم   فَمَــشُّوا بـــآذان النَّعَـــام المُــصَلَّم

ولا تَــرِدُوا إلّا فُــضُولَ نــسائكم   إذا ارتَمَلَتْ أعقـــابُهن مــن الــدَّم

إلى هذا الحد بلغت حماسة النساء فى الجاهلية، وتعييرهم الرجال إذا قعدوا عن الثأر أو قبلوا الدية.. إنهم فى نظرهن مجرد نساء..

والثأر سلسلة طويلة لا تنتهى، وشريعة البادية تقضى "أن الدم لا يغسله إلا الدم، فكان لا يقبـل جزاء آخر غير أخذ الثأر، إلا فى بعض الحالات، حين يقبل أهل القتيل الدية، ومن هذه الحالات: أن يكون الواتر بطلا عظيما فى قبيلة منيعة، أو لا يكون للقتيل أهل أقربون يدركون ثأره، أو لا يكون فى ذريته ذكور"[2].

وقد رأى النبى ﷺ أن القوم لا تزال فيهم أثارة من الجاهلية، فحذرهم، وقد رمى ببصره إلى مـا هو أبعد من ذلك الزمن، إلى زماننا هذا الذى لا تزال فيه بعض المناطق فى الـبلاد الإسـلامية محكومة بهذا القانون الجاهلي – قانون الثأر – فيخضع له كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثـاهم، حتى إذا تخاذل الرجال ونكصوا حملت المرأة السلاح لتدرك هى الثأر.

ولقد أكد القـرآن الكريـم أن نهايـة هذا الثأر وحسمه لا يكون إلا بالقصاص، فقال عز شأنه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِـالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِـيْ الأَلْبَـابِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾** [البقرة: ١٧٨، ١٧٩].

وأكد النبى ﷺ ذلك فى هذه الوصية الجامعة، وكما بدأ بنفسه وذويه وعشيرته الأقربين فى مسألة الربا بدأ هنا بوضع دمائهم...

(١) نفسه (٢١٧/١/٥٢) انظر تحليلها فى كتابنا الحماسة ص (٥٨).

(٢) أثر الصحراء فى الشعر الجاهلى (١٥٤، ١٥٥).

مآثر الجاهلية:

كانت الجاهلية ظلاما دامسا، وضلالا مبينا، وجاهلية عمياء، وعصبية ممقوتة قال عز شانه: **﴿... وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**.

وإنا لنعجب من حديث كثير من العلماء والدارسين، وهم يؤرخون للعصر الجاهلي، فيصفون العرب بأنهم أهل الوفاء، والأمانة، والكرم، والحلم، والعزة، والإباء... إلخ تلك الأخلاق الحميدة...

ونقول: كلا.

١- لو أن الأمر كذلك حقا فلِمَ لمْ نجد إلا كريما واحدا هو حاتم الطائى؟ ولا وفيا إلا الحارث بن عُباد؟ ولا شجاعا إلا عنترة وعددًا يعد على الأصابع؟ إنها إذا صفات نادرة فيهم..[١].

٢- وماذا تقول فى شريف من أشرافهم، وسيد من ساداتهم، يشترى بضاعة ويجحد ثمنها؟ إنه أبو جهل الذى أكل حق الإراشى، حتى جاءه به محمد ﷺ، وكذا تكررت هذه الحادثة... وقام من أجلها حلف الفضول.

٣- ثم إن القوم كانوا يأكلون الأموال بينهم بالباطل، ويأكلون أموال اليتامى ظلما، ومن ثم كان من أوائل ما نزل من الآيات: **﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾**، وكان التحذير الشديد بَعْدُ فى قوله عز شأنه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾** [النساء: ١٠][٢].

٤- إن العرب لم يكونوا شيئا مذكورا قبل الإسلام، فلما أسلموا صار لهم شأن، **﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ...﴾** [الأنبياء: ١٠]، **﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ...﴾** [الزخرف: ٤٤].

٥- ويقول عمر الفاروق: لقد كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة فى غيره لن نزداد إلا ذلا...[٣]

وأما الاحتجاج بقوله ﷺ [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق][١] فقد يكون المعنى ما جاء فى الحديث الآخر [مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها وأجملها وترك موضع لبنة لم

---

(١) من ذلك مثلا قول هند: وهل تزنى الحرة؟!. وموقف أبي سفيان حين سئل عن النبى ﷺ فلم يكذب... وبعض المواقف.

(٢) راجع كتابنا تمرد طرفة، وكيف كان من أسبابه ظلم أعمامه له ولإخوته اليتامى، وما قال فى ذلك من شعر وهو غلام صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٦٢/١ كتاب الإيمان. وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في تلخيصه.

يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تم وضع هذه اللبنة!! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة[٢].

فالإتمام لبناء الإنبياء من قبل.

وكذلك كان هناك الحنفاء فى الجزيرة كورقة بن نوفل وأمثاله.

نعود إلى مآثر الجاهلية التى وضعها النبى ﷺ هنا، والمراد بها: ما يعد من الافتخار بالأحساب وما شابهها، وكان ذلك بابا أساسا تقوم عليه مفاخراتهم ومنافراتهم، فتثور العداوة بينهم، ويتحزب الناس إلى حزبين، وتشتعل نيران الحروب بسبب هذه المنافرات..

والمفاخرة: محاورة كلامية بين اثنين وأكثر، وفيها يتباهى كل من المتفاخرين بالأحساب والأنساب، ويشيد بما له من خصال، وما قام به من جلائل الأعمال. والمنافرة أشد من المفاخرة..[٣]

والمنافرة: هى المحاكمة فى الحسب.. والحسب هو فى الحسبان، وهو ما يعد الإنسان من مفاخر آبائه، ويقال: حسبه دينه، ويقال: ماله.

وقال ابن السكيت: الحسب والكرم يكونان على الرجل، وإن لم يكن له آباء لهم شرف، والمجد لا يكون إلا بالآباء[٤].

ومن أشهر منافراتهم: منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين[٥].

لقد كان أغلب العرب يقومون بما يقومون به من مفاخر وأمجاد ليكون لهم شأن، وليرتفع لهم بين القبائل ذكر، وليس بدافع الواجب.

وقد وضع النبى ﷺ تلك المآثر، ولم يبق إلا السدانة والسقاية.

وكلمة (الجاهلية) كلمة "مختارة بدقة لسعة دلالتها على كل مخالفة لدين الله تعالى، وعلى اتصاف صاحبها بالجهل فى كل معانيها اللغوية المذكورة، فهى وصف ذم باطراد، والمدار فى إطلاقها هو تحقق معناها وأوصافها فى كل زمان ومكان وأمة، وليست خاصة بزمن معين... "[٦].

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد عن أبى هريرة (٣١٨/٢)، والحاكم فى المستدرك (٦١٣/٢) وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن جابر وأبى هريرة – ومسلم عن أبى سعيد- والترمذى عن أبى جابر.

(٣) فى الأدب الجاهلى د/ على الجندى (٢٦٣).

(٤) الخزانة (١٢٨/١).

(٥) راجع هذه المنافرة وأثرها فى الشعر الجاهلى د/ حمد عبد الله الزايدى – مطبوعات جامعة أم القرى – مكة المكرمة.

(٦) المنهاج القرآنى فى التشريع د/ عبد الستار فتح الله سعيد (١٤٤).

القتل العمد، وشبه العمد:

وإذا كان القرآن الكريم قد نهى عن القتل، وقرر أن القصاص رادع لكل من تسول له نفسه أن يرتكبه، فإن النبى ﷺ يؤكد ذلك بقوله: [والعمد قَوَد] أى قتل العمد جزاؤه القتل، أى القصاص.

وأما [شبه العمد] ففيه مائة بعير، يستوى فى ذلك الشريف والوضيع.

[فمن زاد فهو من أهل الجاهلية] إن النبى ﷺ يدرك أن من القوم من لا يزال يرى نفسه أعظم وأشرف من غيره، وأن طبقته فوق طبقة الناس، وحينئذ سيطلب الدية مضاعفة أو أكثر من المقرر شرعا، أو يطلب نفسين مقابل نفس واحدة... ولذلك قال [هو من أهل الجاهلية]..

لأنه لم يفهم الإسلام، أو يدخله الإسلام، فكرا وعملا وسلوكا .. إنه لا يزال على سنن الجاهليين، حيث كان القتل إذا وقع بين قبيلتين، إحداهما أشرف من الأخرى، فالأشراف كانوا يقولون: لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم.. وكانوا يجعلون جراحاتهم ضعف جراحات خصومهم، وربما زادوا على ذلك.

"ويروى أن واحدا قتل إنسانا من الأشراف، فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول، وقالوا: ماذا تريد؟

قال: إحدى ثلاث. قالوا: وما هى؟

قال: إما تحيون ولدى، أو تملأون دارى من نجوم السماء، أو تدفعوا إلى جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أنى أخذت عوضا"[1].

وقال عبد يغوث بن وقاص الحارثى[2]:

أمعشر تَيْمٍ قد ملَكْتُم فأسْجِحوا ... فإنَّ أخَاكُم لم يَكُنْ من بَوَائِيَا

أى قتيلكم ليس كفئا لى حتى تقتلونى به.

وشرط الصلح لدى المهلهل بعد قتل كليب أن يعيدوا له كليبا حيا، قال:

يا لَبَكْرٍ انشروا لى كُلَيْبًا ... يا لبكر أين أين الفرار[3]

وحين قتل المهلهل بجير بن الحارث بن عباد، ظن الحارث أن الحرب وضعت أوزارها، إذ أدرك المهلهل ثأر أخيه، وقال: نعم القتيل قتيل أصلح بين ابنى وائل! حتى بلغه أن المهلهل قال

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى (٥/٤٠) تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾.

(٢) راجع كتابنا: مصرع فارس فى بلاد الغربة.

(٣) الأغاني (٥/٥٩).

وهو يقتله: بؤ بشسع نعل كليب.. فغضب الحارث وقاتل تغلب، حتى تفرقت[1]. وكان مما قال الحارث:

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي   إن قَتْلَ الكَريم بالشِّسْعِ غَالِي

من هنا كان تحذيره ﷺ لكل من زاد فى هذا الجانب، ورأى نفسه أفضل من غيره.

وأما الظلم فى الدية "فهو أنهم جعلوا دية الشريف أضعاف دية الرجل الخسيس، فلما بعث الله تعالى محمدًا ﷺ أوجب رعاية العدل، وسوى بين عباده فى حكم القصاص، وأنزل هذه الآية"[2].

التحذير من الشيطان ومداخله:

كان الشيطان يبيض ويفرخ فى عقول وقلوب الجاهليين، ويزين لهم الباطل فيرونه حسنا، ويصور لهم الشر خيرا، ويحضرمجالسهم ونواديهم، ويوجههم كيفما شاء:

- ففى مؤامرتهم فى دار الندوة ظهر لهم فى صورة شيخ نجدى يحثهم على قتل الرسول ﷺ.

- وفى يوم بدر يقول ربنا عنه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ...﴾ [الأنفال: ٤٨].

- وأضلهم عن الحق والصواب فى عباداتهم، حتى عبدوا الحجر والشجر والشمس والقمر...إلخ.

أما وقد ظهر الإسلام، وقامت دولته، وعلت شوكته، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، فقد يئس الشيطان أن يعبد فى الجزيرة، ولكنه يبحث عن وسائل أخرى، قد يراها المسلم تافهة حقيرة، فيدخل له من هذه الأبواب .. على أنه كما يقولون .. [معظم النار من مستصغر الشرر]، وبعض الناس يستصغر الذنب وربما كان كبيرا، فيراه كذباب مر على أنفه، وهذا مكمن الخطر.. وقد كان أصحاب النبي ﷺ يدركون ذلك جيدا، حتى قال أبو سعيد الخدرى: إنكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر، إن كنا لنظنها على عهد رسول الله من الموبقات.

وقد يكون المقصود من يأس الشيطان فى تلك الأرض: أنها أرض مناسك الحج، وذلك من جهتين: أنهم كانوا يطوفون بالبيت عرايا، يصفقون ويرقصون، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً...﴾ [الأنفال: ٣٥]. أو حجهم إليها لعبادتهم الأصنام هناك وتقديم القرابين.. [3].

---

(١) راجع، العقد الفريد (٦/٧٧).

(٢) التفسير الكبير (٥/٤١).

(٣) راجع: من أسرار البيان النبوى (١٠٦، ١٠٧).

وقد عبر ﷺ بالمصدر المؤول [قد يئس من أن يعبد]، لأن التعبير بالمصدر الصريح محدد الفائدة هنا، فالفعل المضارع هنا الذى يتحول مع (أن) إلى مصدر مؤول يفيد أن الشيطان لن تتجدد له عبادة بعد اليوم بهذه الأماكن، وبناؤه للمجهول يفيد أنه لن تحدث للأصنام ولا للشيطان عبادة هنا، لا من أهل هذه البلاد ولا من غيرهم، ممن يفدون إلى الحج من خارجها... "[1].

وفى رواية أخرى، نص على مدخل خطير للشيطان وهو: التحريش بينهم، فيثير الأحقاد، ويحرك الضغائن بين المسلمين، وتعلو نبرة العصبية، وترتفع دعوى الجاهلية، تلك التى كان ينكرها النبى ﷺ قائلا: [أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها منتنة][2].. وذلك لأن العصبية لم تمت موتا، وإنما كانت مختفية، تظهر إذا بدا ما يهيجها...

والرسول ﷺ يدرك تماما خطر الاختلاف والشقاق بين الأمة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: [سألت ربى لأمتى ثلاثا: ألا يهلكهم بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم يستبيح بيضتهم، وألا يجعل بأسهم بينهم.. وإن ربى قال يا محمد: إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة، وألا أسلط عليه عدوا من غيرهم يستبيح بيضهم حتى يهلك بعضهم بعضا ويسبى بعضهم بعضا].

اللعب بالزمن والعبث فيه (النسيء):

الزمن ملك لله عز وجل، يفضل بعضه على بعض، ويحرم أشهرا ويحل أخرى **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ...﴾** ... سبحانه يصرف الليل والنهار عبرة لأولى الأبصار، وقدر القمر منازل ليعلم الناس عدد السنين والحساب...

وقد شنع القرآن الكريم على أولئك الجاهليين الذين أبوا إلا أن يشاركوا الله هذا الملكية، فأباحوا لأنفسهم تحريم شهور وتحليل أخرى، وهذا – إن دل – فإنما يدل على ضلالهم وغيهم وسفههم.

ونزل قوله – عز شأنه – **﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾** [التوبة: ٣٦، ٣٧].

لقد ربط القرآن الكريم عبادتى الصوم والحج بالأشهر القمرية، قال عز شأنه: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ...﴾** [البقرة: ١٨٩].. ولما كانت السنة القمرية "أقل من

---

(١) نفسه (١١٠).

(٢) رواه البخارى فى المظالم عن أنس...

السنة الشمسية نتج عن ذلك انتقال الشهور القمرية من فصل إلى فصل، فيكون الحج واقعا فـي الشتاء مرة، وفى الصيف أخرى، وشق ذلك الأمر على بعض العرب... ومن هنا اعتبروا السنة الشمسية، وعند ذلك بقى زمان الحج مختصا بوقت واحد معين، موافق لمصلحتهم، وانتفعوا بتجاراتهم ومصالحهم، فهذا النسئ وإن كان سببا لحصول المصالح الدنيوية، إلا أنه لزم منه تغيير حكم الله تعالى فالحاصل: أنهم لرعاية مصالحهم فى الدنيا سعوا فـي تغيير أحكام الله وإبطال تكليفه، فلهذا المعنى استوجبوا الذم العظيم فى هذه الآية"[1].

إن تغيير الحكم – حكم الله – من حلال إلى حرام أو العكس كفر، خاصة إذا كان الحكم ظاهرا لا لبس فيه، ولذا قال جل شأنه عن اليهود والنصارى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وأغلب المفسرين على أنه ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدو فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم.

وعن عدى بن حاتم قال: أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فقال: إنهم لم يعبدوهم، فقال ﷺ: [أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه]؟ فقلت: بلى. قال: [فتلك عبادتهم][2].

والعجيب أنهم كانوا يفخرون بذلك... وطواغيتهم أو كهنتهم يتولون كبره ويعلنونه فـي مواسم الحج، فيلتزم الناس به، "وقد ورد أن منهم من كان يقوم فيقول: أنا الذى لا أعاب ولا أجاب، ولا يرد لى قول، فيقول الناس: لبيك. فيقول: قد أحللت لكم أو نسأت لكم كذا، أو يقول: اللهم إنى قد أحللت له أحد الصفرين الصفر الأول، ونسأت الآخر للعام المقبل.

"وقد رفعوا فى ذلك حتى صار هذا الضلال مفخرة لأربابه، وفى ذلك يقول كنانى من بنى فقيم – النسأة – مفتخرا:

فَأَيُّ النَّاس فاتونا بِوِتْرٍ ... وأَيُّ الناس لَمْ نُعْلِكْ لِجَامَا

ألسنا الناسِئينَ على مَعَدٍّ ... شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا"[3]

وقوله [زيادة فى الكفر] أى هو كفر زائد على أصل كفرهم بالشرك بالله تعالى، فإن شرع الحلال والحرام والعبادة حق له وحده، فمنازعته فيه شرك فى ربوبيته[1].

(١) التفسير الكبير (١٦/٤١).

(٢) التفسير الكبير (١٦/٣٠)، قال السيوطى فى الدر المنثور: رواه الترمذى وحسنه.

(٣) راجع: السيرة لابن هشام، والمنهاج القرآنى فى التشريع ص (٢٥٦).

وإعلان النبى ﷺ أن الزمان قد لستدار كهيئته.. أى عاد إلى نصابه كما خلق الله عــز وجــل... فأديت المناسك فى مواقيتها تماما...

حقوق الزوجين (الأسرة الصغرى):

[أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق:]

[لكم عليهن: ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بــإذنكم، ولا يــأتين بفاحشة مبينة].

"كانت المرأة فى المجتمع الجاهلى عرضة غبن وحيف، تؤكل حقوقها، وتبتز أموالها، وتحــرم إرثها، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجا ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة"[2].

وليس هناك حضارة من الحضارات، ولا ملة من الملل، أنصفت المــرأة، وكرمتهــا وصــانت حقوقها كما فعل الإسلام..

لقد سوى القرآن الكريم بين الرجل والمرأة، وقوامة الرجل على المرأة لا تعنى ضياع المساواة الأصلية، كما أن طاعة الشعب للحكومة لا تعنى الطغيان والإذلال، فإن التنظيم الاجتماعى لــه مقتضياته الطبيعية، ولا مكان للشطط فى تفسيره...

"إن هذه القوامة تكليف قبل أن تكون تشريفا، وتضحية قبل أن تكون وجاهة... "[3].

والإسلام يحرص أشد الحرص على بناء البيت المسلم بناء متينا محكما لا عوج فيه ولا أمتــا، حتى ينشأ الناشئة فيه أسوياء أصحاء... ومن ثم جعل لكل من الرجل والمرأة حقوقا، وعليهمــا واجبات. فإذا ما قام كل منهما بما ينبغى عليه استقامت الأسرة وشقت طريقها فى الحياة دونمــا معوقات أو قلاقل...

لكن المسلمين اليوم – للأسف – اختل نظام حياتهم، لتخلى الرجال والنساء عــن مــسئولياتهم، وذلك لغياب الدين عن حياتنا، حتى صارت قضايا الأحوال الشخصية أمام محاكم الأسرة – فى مصر – بالملايين...

والنبى ﷺ هنا يحدد الواجبات على المرأة، لكن اللافت للنظر أنه لم يسمها واجبات، وإنما سماها حقوقا.. فلماذا؟

---

(١) راجع: تفسير المنار (٤١٨/١٠) نقلا عن المنهاج القرآنى (٢٥٧).

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٦٨).

(٣) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة (٣٥ – ٣٧).

"لأن فى ذكر الحقوق من الفائدة ما ليس فى ذكر الواجبات، فلصاحب الحق المطالبة به، والحفاظ عليه، والاستمساك به، وله أن يتنازل عنه إن شاء، أما الواجب فلا يفيد أن للطرف الآخر حـق الدفاع عما وجب له عند صاحبه، وحق المطالبة به، إن الحقوق هنا واجبة الأداء، فإن قصر من عليه الحق فلصاحب الحق أن يسلك الطرق التى شرعها الله تعالى للوصول إلى حقه... "[1].

وقد حصر هذه الحقوق فى:

[ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم]... والمعنى كمـا ذهـب النووى: ألا يأذن لاحد تكرهونه فى دخول بيوتكم، والجلوس فى منازلكم، سواء كان المـأذون رجلا أجنبيا، أو امرأة، أو أحدا من محارم الزوجة، فالنهى يتناول جميع ذلك.

"... لأن الأصل تحريم دخول منزل الإنسان حتى يوجد الإذن فى ذلك منـه..."[2].

وقد فعلت ذلك أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان – رضى الله عنها– حين وفد عليها أبوها – وهو من هو مكانة وشرفا فى قريش – فلم تأذن له بالجلوس على فراش رسول الله ﷺ.

والجملة الأولى [يوطئن فرشكم].. تعنى أنه دخل ووطئ الفراش، أى داسه بقدميه..

والثانية. تعنى مجرد الدخول.. فالوطء لا يتم إلا بعد الدخول، وكأنه ﷺ يقول مستدركا: بـل إن الإدخال من أساسه ما ينبغى أن يتم إلا بإذنه..

"أو أن التوطئة فيها دلالة على الترحيب والائتناس وهذا هو المنهى عنه فى بيت الزوج... "[3].

[ولا يأتين بفاحشة مبينة]:

والفاحشة المبينة اختلف فى المقصود بها، ولكن استبعد أن يكون معناهـا (الزنـا) لأن الزنـا يستوجب الحد، وحد الزانى المحصن الرجم.. وهذا يتعارض مع ما جاء بعد [فإن فعلن....].

وإنمـا السياق الذى وردت فيه يجعلنا تستحضر من فورنا الآية الكريمـة مـن سـورة النسـاء ﴿... **وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْـرِبُوهُنَّ**...﴾ [الآية: ٣٤].

والنبى ﷺ يقول:

فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن، وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غيـر مبرح...

بالترتيب نفسه الوارد فى الآية ... وأكثر العلماء على أن هذا الترتيب واجـب.. لبيـان تنويـع وسائل العلاج، والعطف بالواو دون الفاء الدالة على حتمية الترتيب يوحى بأن الأمر فى بعض

(١) من أسرار البيان النبوى (١٢٧).

(٢) شرح النووى لصحيح مسلم (١٨٤/٨).

(٣) من أسرار البيان النبوى (١٣٠).

النساء، فمن النساء من تؤثر فيها الكلمة، ومنهن من تكون عاطفية تتأثر بالهجر، ومنهن من لا تأتى إلا بالعصا... والزوج طبيب، وعليه أن يتعرف العلاج المناسب لزوجه، فهو أدرى بها وأعرف من خلال معاشرتها[1].

إذاً الفاحشة المبينة لا يمكن أن تكون (الزنا) الذى يستوجب القتل، وإنما هو النشوز وسوء الأدب، والتطاول على الزوج وعصيانه.. إنه الطغيان عموما الذى كان سببا فى الشر والسوء وانقلاب أوضاع المجتمع المسلم.. كما جاء فى حديثه ﷺ:

[كيف أنتم إذا طغى نساؤكم، وفسق شبانكم، وتركتم جهادكم.؟! قالوا أو كائن ذلك يا رسول الله؟!. قال: والذى نفسه بيده وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: والذى نفسي بيده وأشد منه سيكون. قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟!. أو كائن ذلك يا رسول الله؟!. قال: نعم والذى نفسي بيده. يقول الله عز وجل: بى حلفت، لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران]. فطغيان المرأة كان سببا أساسا فى ذلك الانقلاب الخطير.. وهذا الطغيان غير محدد، وإنما هو عام شامل.

فإن انتهين، أى آتت العقوبات ثمارها المرجوة، وحققت غايتها المنشودة، فيجب على الزوج الإنفاق عليها، دون غمط حق، أو تقصير... وإنما فى حدود العرف.. بحيث لا تبالغ – هى أيضا – فى مطالبها.

وصية بالنساء:

ولم يكتف النبى ﷺ ببيان حقوق المرأة على زوجها، بل ذهب يرقق قلب زوجها عليها، فشبهها بالأسيرة التى لا تملك من أمر نفسها شيئا.

[أخذتموهن بأمانة الله].. فالمرأة أمانة عند زوجها، سيسأل عنها ضمن مجموع الأمانات التى سيسأله الله عنها يوم القيامة.

[واستحللتم فروجهن بكلمة الله]..

وقد اختلف فى تفسير [كلمة الله]، فقيل:

– هى قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

– وقيل: المراد كلمة التوحيد، وهى لا إله إلا الله، محمد رسول الله، إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم.

– وقيل: المراد بإباحة الله والكلمة قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

---

(١) راجع: المرأة فى التصور الإسلامى (١٥٢) عبد المتعال الجبرى.

قال النووى: وهذا الثالث هو الصحيح.

- وقيل: المراد بالكلمة: الإيجاب والقبول، والمعنى على ذلك: بالكلمة التى أمر الله-تعالى بها.

المؤمنون إخوة:

[إنما المؤمنون إخوة] هكذا يعلنها النبى ﷺ بأسلوب القصر، كما جاءت فى الذكر الحكيم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...﴾ وقد وردت هذه الأخوة فى أحاديث كثيرة للنبى ﷺ مما يبين مدى أهميتها فى المنظور الإسلامى..

يقول ﷺ [المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة][1].

وأواصر هذه الأخوة "هى التى جمعت أبناء الإسلام أول مرة، وأقامت دولته، ورفعت رايته، وعليها اعتمد رسول الله فى تأسيس أمة صابرت هجمات الوثنية الحاقدة وسائر خصوم المتربصين، ثم خرجت بعد صراع طويل وهى رفيعة العماد، وطيدة الأركان، على حين ذاب أعداؤها وهلكوا"[2].

لقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار فى المدينة، فكان المهاجرى يرث الأنصارى لا لشيء إلا لتلك المؤاخاة، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

وفى ذلك المكان الطاهر، على صعيد عرفات، اجتمع هؤلاء المسلمون من بقاع شتى، غايتهم واحدة، لسانهم واحد، شعائرهم واحدة، لباسهم واحد...

أليس ذلك كله يؤهل لتلك الأخوة المفروضة؟!.

إنه لمما يبعث الحزن والأسى فى نفس كل مسلم هذا الشقاق بين الدول الإسلامية، وعدم اجتماعها على كلمة سواء.. فبينما يتجمع أهل الباطل ويتكتلون حول باطلهم، يتفرق المسلمون شيعا وأحزابا، وكل حزب بما لديهم فرحون.

لقد تجمع اليهود "من المشرق والمغرب، نافرين إلى الأرضى المقدسة، تاركين أوطانهم الأولى وما ضمت من ثروات وذكريات... "[3].

---

(١) أخرجه الشيخان، الفتح ٥ (٢٤٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالى (١٧٦).

(٣) خلق المسلم (١٧٦).

وها هو الغرب قد توحد رغم الاختلاف فى اللغة والتاريخ والحضارة...

ويعمل أعداء الإسلام بكل ما يستطيعون للحيلولة دون تحقيق الوحدة بين الدول الإسلامية والعربية... وقد صرح كثير منهم بذلك:

يقول المبشر لورانس براون: "إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية، أمكن أن يصبحوا لعنةً على العالم وخطرًا، أو أمكن أن يصبحوا أيضا نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير" [(١)].

ويقول مورو بيرجر فى كتابه العالم العربى المعاصر [(٢)]:

يجب محاربة الإسلام، بالحيلولة دون وحدة العرب، التى تؤدى إلى قوة العرب لأن قوة العرب تتصاحب دائما مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره.

والأخوة قوة إيمانية نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام والثقة المتبادلة مع الإخوان. إن بين هؤلاء الإخوة رابطا أقوى وأعمق من سائر الروابط، إنه رباط الإيمان.

وأخوة الدين والإيمان "تفرض التناصر بين المسلمين، لا تناصر العصبيات العمياء، بل تناصر المؤمنين الصالحين لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وردع المعتدى، وإجارة المهضوم، فلا يجوز ترك مسلم يكافح وحده فى معترك... " [(٣)].

وحين تتحقق هذه الأخوة يسلم مال المسلم وعرضه ودمه. إذ إنه – حينئذ – يشعر أنه إن اعتدى على أخيه إنما يعتدى على نفسه.

وهذه الأخوة لازمة ومفروضة، وهى "أعز وأوثق من آصرة الدم، أو الوطن، أو القبيلة ونحوها.. ولذلك ألزم الله تعالى المسلم بأن يكون ولاؤه القلبى والعملى لإخوانه فى الدين، مهما تباعدت الديار فقال تعالى: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾** [التوبة: ٧١] "[(٤)].

وهذه الأخوة تقتضى من كلا الأخوين الكثير...

ولقد أشار القرآن الكريم إلى شىء من ذلك، حين أشاد بخلق أصحاب محمد ﷺ فقال:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقال: **﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾** .

لكن بعض المسلمين يهش ويبش، وينشرح، وينبسط حين يحدّث كافرا... بينما يعبس ويكفهر وينقبض، ويرغى ويزبد إذا ما تحدث إلى مسلم.

---

(١) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله ص (٥٤)، نقلا عن جذور البلاء (٢٠٢).

(٢) نفسه (٣٩).

(٣) خلق المسلم (١٧٣).

(٤) المنهاج القرآني (٥٦٦).

وصرتَ لا تسمع عن سماحة الإسلام، ويسر الإسلام ورحمة الإسلام، إلا عند معاملة الكفار.
أمــا أذا كانت هناك خصومة بين المسلمين فلا تسمع إلا آيات الجزاء **﴿وَجَزَاءُ سَـيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾**، **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَـسَادًا أَنْ يُقَتَّلُـوا أَوْ يُصَلَّبُوا...﴾** !!!.

التحذير من الكفر:

[فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض].
إن هذا الرجوع – المنهى عنه – ارتداد إلى الجاهلية البغيضة بكل ما فيها من فساد وظلام وبغى وطغيان.
فهذا "العراك الدامى شأن الكافرين المنقسمين على أنفسهم أحزابا متناحرة"[(١)].
أما أمة الإسلام التى خاطبها ربها بقوله: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ...﴾** [الأنفال: الآيــة الأولى]، وبقوله: **﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...﴾** [الأنفــال: ٤٦]، فكــان ينبغــى ألا تنسى هذه التحذيرات... ولكنها – ويالالأسف – نسيت، وما أكثر ما نسيت!!
وليت الاختلاف يقف عند المقاطعة أو الهجر، بل حدث الشقاق والتناحر والتقاتــل، مــع أن الله حذر هذه الأمة قائلا: **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِــكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [آل عمران: ١٠٥]، وقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِــنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾** [الأنعام: ١٥٩].
وقد كان النبى ﷺ يئد الفتنة فى مهدها، قبل أن يستفحل خطرها، وتكرر ذلك مرارا... ففى غزوة بنى المصطلق كسع شاب من المهاجرين آخر من الأنــصار، فــصاح يالالأنــصار، والآخــر: ياللمهاجرين... وكادت تحدث فتنة عظيمة لولا أن النبى ﷺ استنكرها ووأدها، وقال: [أبــدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها منتنة].
والنبى ﷺ يستشعر أن فى بعض الناس – حينئذ – وفى القرون التالية بقايا جاهلية بغيضة، ومن ثم حذرهم... ووصف من يفعل ذلك بأنه كافر.
والقرآن الكريم ينبه إلى أن دسائس بعض أهل الكتاب والمشركين قد تكون هى السبب الأســاس فى إشعال نيران هذه الفتن بين المسلمين، حتى يمزقوا شملهم، ويشتتوا جمعهم، ويفرقوهم أيادى سبأ.. فقال عز شأنه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٠٠].

---

(١) خلق المسلم (١٨٤).

وجعل الولايـــة لله ولرسوله والمؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [المائــدة: ٥٥] ونهى وحذر من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، لأن ذلك إنما يكون على أنقاض الولايـــة السابقة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْـضٍ وَمَـنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقوله ﷺ: [يضرب بعضكم رقاب بعض] ولم يقل – مثلا – يضرب الواحد منكم الآخر... لأنه جعل الأمة كيانا واحدا، فالذى يضرب كأنما يضرب جزءا منه هو، ويعتدى على شخصه هو... وذلك ما قصده ﷺ فى الحديث الآخر: [مثل المؤمنين فى توادهم وتـــراحمهم وتعـــاطفهم كمثـــل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر].

الاعتصام بكتاب الله سبيل النجاة:

[فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله].

أى إذا مت ولقيت ربى، ففيكم كتاب الله، عاصم لكم من الزيغ والانحـــراف والـــضلال. وقـــد استخدم أسلوب التشويق، فلم يقل: [تركت فيكم كتاب الله إن أخذتم به] وإنما شوقهم أولا، ثم ذكر كتاب الله ليحتل موقعه المهيأ فى قلوب وعقول السامعين.

والرسول ﷺ ربى أصحابه على كتاب الله، وصنع بهم قادة ونجوما، وأحال به رعاة الغنم قـــادة أمم.. كل ذلك بالقرآن.. والسر فى ذلك ما رواه أبو عبد الرحمن السلمى، قال:

[أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوا إلى العـــشر الأخـــر حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به].

والنبى ﷺ لم يقل تركت (بينكم) أو (معكم) وإنما قال: [فيكم] أى فى قلـــوبكم وأعمـــالكم، وفـــى معاملاتكم، وبيوتكم، وفى سائر أمور حياتكم، فالقرآن فى كل واحد منهم .. هكـــذا ينبغـــى أن يكون..

ينبغى ان يكون جسدا حيا شاخصا يتحرك، وليس مجرد كلام أو تراتيل تردد.

وها هو الكتاب نفسه الذى كانت تقرؤه الأمة أيام الرسول وزمن الخلافة الراشدة – لم يتغير ولا يتبدل.. هو هو القرآن الذى قرأته الأمة فى فجر الإسلام، فسادوا به الدنيا، وفتحوا بـــه الأرض مشرقا ومغربا..

وقد يقال: إننا نرى الاهتمام بالقرآن وحفظه من خلال هذا المسابقات والمكافآت الهائلة، وأطفال يحفظونه وهم دون أربع سنوات، وأعاجم كذلك .. وقنوات فضائية، وشبكات أرضية خصصت للقرآن .. ولا تكاد تجد بيتا إلا فيه مصحف أو عدة مصاحف مطبوعة طباعة فـــاخرة... إلـــخ إلخ..

كل ذلك صحيح ولكن:

واقع معظم المسلمين اليوم مع القرآن مؤرق، وعلاقتهم به يحكمها الهجر والعقوق إلى درجة نخشى معها أن نقول: إن علل الأمم السابقة التى حذر منها القرآن، ونبه إليها الرسول ﷺ تسربت إلى العقل المسلم: **﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾** [البقرة: ٧٨] أى: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلا.. قراءة بدون فهم[1].

فهناك "أمية عقلية نعيشها اليوم مع القرآن، والتى تعنى ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة... ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد، قال: [ذكر النبى ﷺ شيئا، فقال: (وذاك عند ذهاب العلم) قلنا: يا رسول الله، كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئون أبناءهم؟ فقال: [ثكلتك أمك يابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل فى المدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشىء] [2].

القرآن كتاب يصنع النفوس، ويصنع الأمم، ويبنى الحضارة.. هذه قدرته.. هذه طاقته.. فأما أن يفتح المصباح فلا يرى أحد النور لأن الأبصار مغلقة، فالعيب عيب الأبصار التى أبت أن تنتفع بالنور.. "[3].

لقد نزل القرآن الكريم لا ليكون مجرد تراتيل دينية، وإنما ليكون منهاج حياة، ودستور تشريع، ليرتفع به الإنسان إلى أفاق أعلى وأرحب.. نزل القرآن لإقامة العدل، وحفظ التوازن، وصيانة الحقوق، وإسعاد البشرية **﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾** [ص: ٢٩].

أين كتاب الله فى مناحى حياتنا كلها؟ لله در أمير الشعراء حين قال:

إذا زرتَ يا مَوْلاَىَ قَبْرَ مُحَمَّدٍ ... وقَبَّلْتَ مَثْوَى الأَعْظُمِ العَطِرَاتِ

فَقُلْ لرسُولِ الله يا خَيْرَ مُرْسَلٍ ... أبثُّك ما تَدْرى من الحَسَرَاتِ

شُعوبُك فى شرق البلاد وغَرْبها ... كأصحاب كهف فى عميق سُبَاتِ

بأيمانهم نُورَان: ذكرٌ وسُنَّةٌ ... فما بالهم فى حالِكِ الظلماتِ؟!

إنهم فى حالك الظلمات لأن كتاب الله على الأرفف وليس فى القلوب، وقد يكون محفوظا ولكن دون فهم أو تدبر.. ليس له وجود عملى فى حياة حافظه **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾** [فاطر: ٣٢].

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن. مقدمة عمر عبيد حسنة (١٣).

(٢) نفسه (١٥).

(٣) نفسه (٣١) الشيخ محمد الغزالى.

إن أهل الباطل يهرعون إلى مواريثهم على ما فيها من ضلال وسـخف، بينمـا المسلمون لا يلجأون إلى القرآن، ويهجرونه، حتى شكا الرسول ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ومن المسلمين من يقصر فوائد القرآن فى أنه (شفاء) أى للرقية فقط، ومنهم مـن يتبـرك بـه، مجرد (بركة)، ولله در العلامة القرضاوى حين قال[١]:

هذا الكتابُ غَدَا فى الشَّرْق وا أسفا	شمسًا تُضِيءُ ولكنْ بـين عُمْيَـان
يُحَاط بالطِّفْل حِرْزًا مـن أَذًى وَرَدًى	وفيه حِرْزُ الوَرَى من كل خُسْران
يُتْلى على ميتٍ فى جَـوْفِ مَقْبَـرَةٍ	وليس يحكم فى حىٍّ بديوان
فكيف نرقى ومعـراجُ الرُّقِـيِّ لنـا	أمسى يُجَرُّ عليه ذَيْـلُ نسيان؟!

إن أزمة المسلمين التى نعانى منها اليوم ليست بافتقاد المنهج، فالمنهج موجود ومعصوم، لكـن المشكلة بافتقاد وسائل الفهم الصحيحة، وأدوات التوصيل، وكيفية التعامل مع القرآن[٢].

وأخيرًا: فإن نتيجة الإعراض خيبة وخسران ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

ولا مجال لاستدلال من سموا أنفسهم القرآنيين بأن القرآن يكفى وحـده مـن خـلال الروايـة المذكورة، فالاعتصام بالكتاب اعتصام بالسنة حتى ولو لم ينص على ذلك.

فالقرآن نفسه يخبر أن الله أنزل على نبيه سنة تشريعية ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أى السنة.

وقد تنبأ النبى ﷺ بهؤلاء المخرفين فقال: لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: بيننا وبينكم هذا القرآن، فما وجدناه فيه من حلال أحللنـاه، وما وجدناه من حرام حرمناه، ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه.

الأخوة الإنسانية (الأسرة الكبرى).

وإذا كان النبى ﷺ قد بين حقوق الأخ المسلم على أخيه إجمالا، فإنه هنا يرد الناس جميعا، إلـى أصلهم الأول، إلى بدء خلق الإنسان، فالله تعالى ربهم، هو خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم .. وأبوهم واحد، هو آدم عليه السلام، فهم إخوة جميعا.. وكلهم من تراب. وقال ﷺ فيما رواه أبـو هريرة: [إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقى، وفاجر شقى، أنتم بنو

---

(١) نفحات ولفحات (٣٩) وانظر كتابنا، القرضاوى شاعرا (١٢١ – ١٢٧).

(٢) كيف نتعامل مع القرآن (١٦).

آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكـونن أهـون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن[1].]

وعلى أمة المسلمين واجب الدعوة والبلاغ، ومهمة الأخذ بيد الناس جميعا إلى توحيد الله.. وهذا ما فهمه الجيل الأول من الصحابة، يقول ربعى بن عامر لرستم: إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

لقد وعوا وفقهوا قوله عز شأنه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ فالله أخرج هذه الأمـة، لا لنفسها، وإنما للناس...

فهل قامت الأمة بدورها، وأدت وظيفتها تجاه الناس؟!. إن كثيرا من الناس فى الغرب والـشرق لا يعرفون شيئا عن الإسلام، فنحن مقصرون إزاءهم..

وإذا كان النبى ﷺ قد بين حقوق وواجبات أفراد الأسرة الصغرى، فهو يشير هنا إلى أن هنـاك حقوقا وواجبات لأفراد الأسرة الكبرى.

التقوى ميزان التفاضل:

وما دام المصدر واحدا حيث الكون كله من صنع الله، والأب واحدا وهو آدم عليه السلام، فكيف يتأتى التفاخر بالحمرة أو الصفرة أو الحسب أو النسب؟!.

لقد أبطل الإسلام سائر هذه الموازين البشرية الفاسدة، التى تثير نعرات بغيـضة، وعـصبيات مقيتة، وعنصريات كريهة... ولم يعترف إلا بميزان واحد هو (التقوى) فقال عـز شـأنه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد وعاها سلفنا، فقال قائلهم.

أبى الإسـلام لا أبَ لـى سـواه   إذا افتخـروا بقـيس أو تمـيم

وطبقوها تطبيقا عمليا، فالرسول ﷺ يقول عن سلمان الفارسي [سلمان منا آل البيت]، وانظر إلى مكانة بلال الحبشي وصهيب الرومي بين صحابة رسول الله. "ولاعتبار هذا الدين الحق (معيارا للتفاضل) مميزات أساسية منها:

(أ) تحقيق مهمة الوجود، لأنه هو الحقيقة فى نفس الأمر، وهو الحق باعتباره الطريـق الـذي يحقق للإنسان غاية وجوده، ومهمة حياته، كما أرادها الخالق.

(ب) فتح الطريق لوحدة البشر، إذ ربط التفاضل بمعيار المبادئ، وهذا طريق يمكن بواسـطته تحقيق وحدة البشر"[2].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي بسند صحيح، وانظر التاج (٥/٦٠، ٦١).

(٢) المنهاج القرآنى فى التشريع (٥٦٤).

فليبلغ الشاهد الغائب:

وهنا قال ﷺ ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد... لكنه لم يكتف بذلك كما كان يكتفى فى المواضع السابقة... وإنما أمر السامعين أن يقوموا بمهمة التبليغ عنه ﷺ ...
وكان ﷺ حريصا على البلاغ عنه، فأمر الأمة – فى هذه الخطبة وغيرها – أن "يبلغ عنه من شهد لمن غاب، ودعا للمبلغين بالدعاء المستجاب، فقال فى الحديث الصحيح: [بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار]، وقال أيضا: [نضر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه...][(١)].
ومن ثم وجب على أتباعه ﷺ من الدعاة وحملة العلم أن يبلغوا الناس ولا يكتموا من العلم شيئا..".

الميراث والوصية:

ثم يردهم النبى ﷺ إلى القرآن الكريم فى توزيع الميراث، أى فلا ينبغى أن يحيد مسلم عن هذه الفرائض، ولا يحيف... وأنه لا وصية لوارث، والوصية فيما دون الثلث...

الولد للفراش وللعاهر الحجر:

عليك صلوات ربى وسلامه يا رسول الله!! إن هذه القضية مطروحة الآن فى سائر وسائل الإعلام، وذلك بعد التسيب الأخلاقى والانحطاط الذى أصاب الأمة... فهناك عدد كبير من الأبناء لا يعرف آباؤهم، وقضاياهم مطروحة أمام المحاكم، والعلماء مختلفون: أيُعتَدّ بالبصمة الوراثية من خلال الحامض النووى ... أم ماذا؟
وأخيرا أقر المجلس التشريعى ذلك... ومثل هذا يحد إلى قدر ما من هذه الظاهرة الخطيرة التى تفاقمت فى السنوات الأخيرة فى بعض بلدان العالم الإسلامى، لكنه يضر من جهة أخرى، إذ إن المتسيبات خلقيا لا يخشين حينئذ من الحمل سفاحا. طالما ضمنت له أبا سيقر به.
وقد يكون ذلك بسبب ما أسموه [الزواج العرفى]، أو الزنا، أو ... أو ... إلخ. وغياب الدين هو السبب فى ذلك الفساد...
والنبى ﷺ يقرر هنا أن الولد لصاحب الفراش أى الزوج، أما الزانى والزانية فلهما الرجم.

التبنى باطل:

ولقد أبطل الإسلام التبنى الذى كان شائعا بين العرب، وذلك بالنص القرآنى **﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾** وأبطله عمليا حين ألغى

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/١)، ونضرة النعيم (٨٧٨/٣) (صفة التبليغ).

تبنى النبى ﷺ لزيد بن حارثة الذى كان يدعى زيد بن محمد، وأمر الله نبيه أن يتزوج زينب بنت جحش – مطلقة زيد – تطبيقا عمليا لإبطال ظاهرة التبنى، وقال عز شأنه فى ذلك: **﴿... فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾** [الأحزاب: ٣٧].

والنبى ﷺ يبين عقوبة من يخالف ذلك بأنه مستحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وقد يكون دعاء على من يفعل ذلك، ولا يقبل منه عذر أو فدية...

ثم سلم عليهم بتحية الإسلام [هكذا فى رواية] ولم ترد فى غيرها – ربما كان منه هذا السلام لأنه مودع لهم، لن يقف معهم هذا الموقف مرة أخرى.

صلوات ربى وسلامه عليك ياسيدى يا رسول الله، نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة، وكنت على إيمان العالمين حريصا، وبالرأفة والرحمة بالمؤمنين مخصوصا، وصدق فيك قول ربنا **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾** [التوبة: ١٢٨].

* * *

تعقيبات

بناء الخطبة

١- لم تكن الخطبة مجرد إبلاغ مسألتين أو مسألة، ولكنه إرساء حقوق الإنسان على وضع وطيد، فلا بد أن يتحدث عن حرمة الدماء والأموال، وعن أداء الأمانات إلى أصحابها، وعن تحريم ربا الجاهلية، وعن ديات القتل عمدا وعن غير عمد، وعن النسيء وضلالته، وعن النساء مالهن وما عليهن. وعن الأخوة الإنسانية التى ترجع إلى أصل واحد هو آدم، وعن الميراث والوصية.

"مسائل هامة مختلفة لو تزاحمت فى صدر خطيب غير محمد فى مثل موقفه لطار سداده وأرتج عليه فى مقامه".

"ولكنه يقدر عبء التبليغ، ويستشهد بالله على أدائه، ثم يرسل هذه الكلمة الشاملة التى جمعت فأوعت، ثم كانت بمناسبتها وتعدد موضوعاتها، وغرابة شعور قائلها موضع العجب والإعجاب"(١).

"والقدرة على إيجاز كل هذه المعانى فى هذه الكلمات مع الحرص على الإيضاح والتفهيم فى موقف لا يظن صاحبه أن يتكرر لمجال الروعة، وهو إن دل على قوة العقل، وامتلاك أزمة القول، ويدل – كذلك – على رباطة الجأش، وقوة النفس، والنزول على حكم الله راضيا مغتبطا به، وتلك شيم الأنبياء"(٢).

ورحم الله الرافعى حين قال:

هذه هى البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تصنع وهى من الأحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهى على السهولة بعيدة ممنوعة.

"ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها دليل فقد كانت هى من دليله، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة... "(٣).

لقد بدأت الخطبة بمقدمة تضمنت عدة أسس – كما ذكرنا – ثم فصل بينها وبين صلب الخطبة بقوله ﷺ أما بعد... وبدأ فى الحديث عن موضوعات متعددة: من أحكام تشريعية، ووعظ، وإرشاد... وكان الختام – كما فى الرواية التى معنا – بتحية الإسلام.

---

(١) البيان النبوى (٨٦).

(٢) نفسه (٨٨).

(٣) ***

اللغة والأسلوب:

١- لغة الخطبة سلسة، سهلة، ليس فيها تعقيد، أو غريب من الألفاظ، وإذا كنا الآن فى عصر العجمة – نفهمها ونستسيغها – ولا تستعصى علينا ألفاظها أو تضطرنا إلى الرجوع لمعاجم اللغة، فكيف بأهل الفصاحة والبيان آنئذ؟!.

إنه درس لكل خطيب داعية، عليه أن يختار اللغة المناسبة للمتلقين، دون أن يجاوز الفصحى... ولا يتقعر أو يتكلف...

٢- التأكيد... نلاحظ أن الخطبة كثرت فيها أساليب التوكيد، منها [فإنى لا أدرى]، [إن دماءكم...]، [وإن ربا الجاهلية... وإن أول ربا... وإن مآثر الجاهلية]، [إن الشيطان قد يئس] [إن النسيء... إن الزمان]، [إن لنسائكم] [فإنى قد تركت فيكم] [إن ربكم واحد، وإن اباكم واحد].

"وقد أحصى بعض الباحثين أساليب التوكيد فى هذه الخطبة فوجدها تسع عشرة مرة وقال: وكثرة التأكيد له علاقة بمدى أهمية الأمر المؤكد، وأى أهمية أكبر من إقامة المجتمع الإسلامى على دعائم الحق والخير والعدالة والمساواة والتآخى..." [١].

ويمتاز أسلوب الخطبة بالدقة والوضوح، والإيجاز دون إخلال، وعدم التكلف.

وإيذانا بانتهاء الخطبة لم يكتف ﷺ بما كان يردده بين الفقرات قائلا: اللهم قد بلغت، اللهم اشهد .. وإنما أضاف [فليبلغ الشاهد الغائب].

وقد غلب على الخطبة أسلوب الترهيب... فتجد فيها ترهيبا من الكفر، ومن الجاهلية، ... إلخ.

والخطبة قائمة على الحقائق، لأنها وصية مودع فلا تكاد تجد فيها تشبيهات أو أساليب بيانية من استعارة وكناية... إلخ.

الخطبة والقرآن الكريم.

جل ما جاء فى الخطبة ورد فى القرآن الكريم، ولكنها وصية مودع، أو من باب قوله عز شأنه ﴿وَذَكِّرْ﴾ ومن ثم تجد فيها الألفاظ القرآنية والآيات أحيانا...

* فالمقدمة، وما تضمنته تتفق – إلى حد كبير – مع فاتحة الكتاب، وقد أشرت إلى ذلك.

* الأمانات، وأمره ﷺ بأدائها إلى أهلها لا يبعد عن قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...﴾** .

* النسيء وعدة الشهور ... أورد النبى ﷺ قول الله عز وجل **﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ...﴾** ، **﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾**.

ولكن النبى ﷺ نص على تسمية هذه الأشهر الحرم، ولم يرد ذكرها فى القرآن مسماة.

---

(١) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق ص (١٥١) د/ صابر عبد الدايم.

* فى بيان حقوق وواجبات المرأة يقول ﷺ [ولا يأتين بفاحشة مبينة]، من قوله تعـالى: ﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ...﴾ [الطلاق: ١].

* وقوله ﷺ: [تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن...] من قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِـي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٣٤].

* وقوله ﷺ [إنما المؤمنون إخوة] هو نص الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ .

* وقوله ﷺ إن أباكم واحد، هو من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾.

* وقوله ﷺ ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى، معناه فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ .

* * *

المصادر والمراجع

١- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق – د/ صابر عبد الدايم – دار الأرقم.

٢- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية – د/ مصطفى الشكعة – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٦٨م.

٣- إعجاز القرآن – للباقلاني – تحقيق السيد أحمد صقر – دار المعارف – مصر.

٤- البيان النبوي – د/ محمد رجب البيومي – دار الوفاء – ط أولى ١٩٨٧م.

٥- البيان والتبيين – للجاحظ – تحقيق وشرح عبد السلام هارون – نشر الخانجي – ط خامسة – ١٩٨٥م.

٦- التفسير الكبير – للفخر الرازي – دار الكتب العلمية – بيروت.

٧- تمرد طرفة – د/ زكريا النوتي – مطبعة الحسين الإسلامية.

٨- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول – الشيخ منصور على ناصف – جريدة صوت الأزهر.

٩- جمهرة خطب العرب – أحمد زكي صفوت – ط الحلبي – ١٩٣٣م.

١٠- الحماسة فيما اختار أبو تمام للشاعرات د/ زكريا النوتي.

١١- خلفاء الرسول – خالد محمد خالد دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – ط ثانية – ١٩٧٤م.

١٢- خلق المسلم – الشيخ محمد الغزالي – دار الريان للتراث.

١٣- الرحيق المختوم – صفي الرحمن المباركفوري – دار الحديث – القاهرة.

١٤- السيرة النبوية – لأبي الحسن الندوي – دار الشروق – ط خامسة ١٩٨٣م – بيروت.

١٥- السيرة النبوية – لابن هشام – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – دار القلم – بيروت.

١٦- سنن ابن ماجة.

١٧- صحيح مسلم – بشرح النووي – دار الكتب العلمية – بيروت.

١٨- العصر الجاهلي د/ شوقي ضيف – دار المعارف – مصر.

١٩- العقد الفريد لابن عبد ربه – تحقيق د/ عبد المجيد الترحيني – دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري – لابن حجر العسقلاني – دار الريان للتراث.

٢١- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالي – دار الدعوة – ط ثانية ١٩٨٩م.

٢٢- فلسفة القوة في شعر أبي تمام د/ زكريا النوتي – ناس للطباعة.

٢٣- في الأدب الجاهلي – د/ على الجندي – دار المعارف – مصر.

٢٤- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة - الشيخ محمد الغزالى - دار الشروق ط رابعة ١٩٩٢م.
٢٥- قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله - جلال العالم.
٢٦- كيف نتعامل مع القرآن - الشيخ الغزالى - مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة - المعهد العالمى للفكر الإسلامى.
٢٧- المرأة فى التصور الإسلامى - عبد المتعال الجبرى - مكتبة وهبة- ط ثامنة ١٩٨٦م.
٢٨- من أسرار البيان النبوى - د/ أحمد محمد على - دار الصحوة للنشر.
٢٩- منهج القرآن فى تطوير المجتمع د/ محمد البهى - مكتبة وهبة. ط ثانية ١٩٧٩م.
٣٠- المنهاج القرآنى فى التشريع د/ عبد الستار فتح الله سعيد - دار الطباعة والنشر الإسلامية - ط أولى ١٩٩٢م.
٣١- موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم - دار الوسيلة - جدة.
٣٢- نفحات ولفحات (ديوان شعر للدكتور يوسف القرضاوى) - دار الصحوة - ط ثانية - ١٩٨٩م.

* * *

فـــن المقـــامـــة

عنـد بديـع الزمـان الهمـذانـى

المقامة البغدانية نموذجا

١ – فى المصطلح :

المقامة فى اللغة[1]: هى المجلس، فمقامات الناس مجالسهم ونواديهم، قال العباس بن مرداس السلمى:

فأيـــى مـــا وأيـــك كـــان شـــــرا   فقيـــد إلـــى المقامـــة لا يراهـــا

كما تطلق – مجازا– على القوم الجالسين فى ذلك المجلس، قال زهير:

وفيهم مقامات حســـان وجوههـــم   وأنديـــة ينتابهـــا القـــول والفعـــل

وقال لبيــــــــد :

ومقامـــة غلـــب الرقـــاب كأنهـــم   جـــن لـــدى بـــاب الحصيـــر قيام

والمقامة –بضم الميم– كالمقام والمقام، أى الإقامة، قال لبيد:

عفـــت الديـــار محلهـــا فمقامهـــا   بمنـــى تأبـــد غـــولهـــا فرجامهـــا

وفى الذكر الحكيم : **﴿الذى أحلنا دار المقامة من فضله...﴾** فاطر/٣٥.

أما المقامة فى اصطلاح أهل الأدب والنقد، فهى[2]:

أحادث أدبية، بليغة، منثورة، مسجوعة، تقوم على حـــدث طريـــف، بطلهـــا نموذج إنسانى مكد ومتسول، ولها راو، وبطل.

ومغزى الحديث فيها: مفارقة أدبية، أو مسألة دينية، أوسخرية، فـــى مغامرة مضحكة، وتنطوى على نقد، أو ثورة، أو سخرية، فى إطـــار مـــن صبغة لفظية وبلاغية.. وقد تتضمن أبياتًا من الشعر، للمؤلف أو لغيره.

---

(١)، (٢) راجع لذلك: لسان العرب، فن المقامات بين المشـــرق والمغـــرب، د/ يوسف نور عوض– مكتبة الطالب الجامعى – مكة المكرمة، المقامة، د/ شوقى ضيف– سلسلة فنون الأدب العربى– وغيرها من المراجع التى سترد بعد.

وعرفها آخرون بأنها[1]: حكاية أدبية قصيرة، يدور أغلبهـا حـول الكدية والاحتيال لجلب الرزق، وتشتمل على نكتة أدبية تستهوى الحاضرين.

وقد ذهب الدكتور شوقى ضيف[2]، إلى أن بديع الزمان الهمذانى هو أول من أعطى كلمة (مقامة) معناها الاصطلاحى بين الأدباء، إذ عبر بهـا عن مقاماته المعروفة، وهى جميعها تصور أحاديث تلقى فـى جماعـات.. فكلمة (مقامة) عنده قريبة المعنى من كلمة (حديث). هذا الحديث يصاغ فـى شكل قصص قصيرة يتأنق فى ألفاظها وأساليبها، ويتخذ لقصصه جميعا راويا واحدا هو (عيسى بن هشام).. وبطلا واحدًا هو (أبو الفتح الإسكندرى) الذى يظهر فى شكل أديب شحاذ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم، وما يجرى على لسانه من فصاحة.

* * *

---

(١) د/ حجاب/ حوليات دار العلوم ٦٩/٨ صـ ٨٥ نقلا عـن : المقامـة بـين الشرق والغرب ١٣.

(٢) المقامة صـ٨.

بديع الزمان الهمذانى*

هو : أحمد بن الحسين بن يحيى. كنيته: أبو الفضـــل، لقبـــه: بـــديع الزمان، والهمذانى نسبة إلى همذان.

ولد بهمذان –فى إيران– سنة ٣٥٨ للهجرة تقريبا، وتوفى فـــى ســـنة ٣٩٨ للهجرة– أى أنه مات ابن أربعين عاما.

يقول عن نفسه: أنا عبد الشيخ، واسمى أحمد، وهمذان المولد، وتغلب المورد، ومضر المحتد..

إذا هو عربى وليس فارسيا.

نشأ بهمذان، واختلف إلى دروس العلم والأدب، وكانت "همذان من المكانـــة الثقافية والنشاط الأدبى بحيث نشأت كثيرا من أعلام الفضـــل والأدب فـــى القرن الرابع.."[١].

وكان من أهم أساتذته: أحمد بن فارس، صاحب كتـــاب (المجمـــل)، فاغترف من علمه، ونهل من فيضه.

ويلاحظ "أن أعلام همذان كانوا يغادرونها وهم فى مقتبل أعمـــارهم، ويفرون منها مطوفين بالأمصار المجاورة تارة، والأقطـــار النائيـــة تـــارة أخرى.."[٢]. وحين أتم بديع الزمان الثانية والعشرين من عمره خـــرج مـــن همذان وغادرها كشأن سائر العلماء..

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة[٣]، أن لهجرة بديع الزمان وإخوانـــه من أدباء العصر الهمذانيين سببين:

(*) راجع ترجمته فى: يتيمة الدهر للثعالبى، بديع الزمان الهمذانى – مارون عبـــود، بديع الزمان د/ مصطفى الشكعة– وغيرها.

(١-٣) بديع الزمان د/ الشكعة ٣٧ وما بعدها.

الأول: هو غرام طلاب الأدب والعلم بالتنقل من بلدة إلى أخرى. حيث يلتقون بكبار الأدباء المشهورين اللامعين، فيفيدون من علمهـــم، ويتصـــلون بأمراء العصر ووزرائه فيغترفون من برهم ومنحهم. حيـــث كـــان هؤلاء يعقدون مجالس أدبية تجمع أدباء العصر وفضلاءه.

الثانى : أن مدينة همذان شديدة البرودة، كثيرة الثلوج أغلب العام..

ولذلك هجوها، فقال بديع الزمان :

همذان لـــى بلـــد أقـــول بفضلـــه	**لكنـــــه مـــن أقبـــــح البلـــــدان**
صبيانـــــه فى القبح مثل شيوخـــــه	**وشيوخـــــه فى العقـــل كالصبيـــان**

ونزل بساحة (الصاحب بن عباد) -فى أصبهان- وكـــان الصــــاحب حينئذ "منارة أصبهان وشعلتها المضيئة بما جمعـــت ندوتـــه مـــن الشـــعراء والأدباء، الذين يربى عددهم -فيما يقال- على شعراء الرشيد.

ولم تطل إقامته هناك، قيل: إنه وشى به لدى الصاحب، لمقامه عنده وحظوته لديه.. ومن ثم اتجه إلى جرجان، وهى بلـــدة لهـــا مكانـــة علميـــة مشهورة، ففيها نشأ عبدالقاهر الجرجـــانى، والقاضـــى علـــى بـــن العزيـــز الجرجانى.. وهناك أقام فى كنف أبى سعد محمد بن منصور..

وما لبث أن هجر جرجان إلى نيسابور، فأقام بها مدة، وهى مدينـــة الفضل والعلم والأدب.. وكان بها آنئذ شيخ عصره فى علوم اللغة والبلاغـــة وأيام العرب وأمثالها (أبو بكر الخوارزمى).. والتقى به بديع الزمـــان فلـــم يحسن الخوارزمى لقاءه.. وصارت بينهما خصومة أدت إلى مناظرة بينهما.

ومن ثم لم يطب لبديع الزمان الإقامة فى نيسابور، فغادرها متجهـا إلى سجستان، وكان أميرها الأديب الفاضل الأمير خلف بن أحمد، وقد وجد البديع عنده التكريم والإجلال وأهدى إليه مقاماته[1].

ومن سجستان إلى غزنة حيث عاصمة السلطان (محمود الغزنـوى) الذى عاش البديع إلى جانبه عيشة راضية..

ثم إلى هراة حيث كانت وفاته هناك.. وقيل : إنه مـات مسـموما، وقيل: إنه أصيب بغيبوبة فظن أنه مات،وعجل بدفنه، فأفاق فى قبره، وسمع صوته فى الليل، فنبش عنه فوجد ميتا من هول القبر، وقـد أمسـك لحيتـه بيده[2].

* * *

فقـــره وبؤســـه :

عاش بديع الزمان فقيرا، بائسا، مع أنه كان أديبا، بليغا، ذكيا، نبيها، سريع الخاطر، صافى الذهن.

بيد أنه -فيما يبدو- كان قليل الحيلة، أو على الأقل لم يكن يحسـن استخدام الحيل. ولا يغرنك أنه كتب مقاماته قائمة على الحيل، كما أنه امتهن مهنة الكدية الوضيعة، إذ أغلب الظن أنه دفع إليها دفعا.. [3].

---

(١) راجع للتفصيل: بديع الزمان د/ الشكعة. رأى فى المقامـات د/ عبـدالرحمن ياغى، فن المقامات بين المشرق والمغرب.

(٢) بديع الزمان د/ الشكعة ٥٧ وهو ينقل عن وفيات الأعيان ١/٦٨، شـذرات الذهب ٣/١٥٠.

(٣) راجع: فن المقامات بين المشرق والمغرب ٤٩.

ومن ثم نراه يواسى نفسه فى مثل قوله[1]:

[يا أبا الفضل، ليس هذا بزمانك، وليست هذه بـــدارك، ولا الســـوق ســـوق متاعك، بئست الكتب وما وسقت، والأقلام وما اتسقت، والمحابر وما سقت، والأسجاع إذا اتسقت...].

وليس بديع الزمان بدعا من الأدباء والعلماء فى كل عصر، فكم من عالم وشاعر ومبدع وعبقرى أصابهم الجوع، وعضهم الفقر بنابـــه، بينمـــا الجهال والحمقى يرفلون فى العز والنعيم ومتاع الدنيا!!.

تموت الأسد فى الغابـــات جوعـــا ... ولحـــم الضـــأن يرمـــى للكـــلاب
وذو جهـــل ينـــام علـــى حريـــر ... وذو علـــم ينـــام علـــى التـــراب

وقـــــال الشاعــــــــر :

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا ... هلكـــن إذا من جهلـــن البهائـــم

متى ألف البديع مقاماته؟

يكاد الباحثون يجمعون على أن البديع ألف مقاماتـــه أثنـــاء إقامتـــه بنيسابور.. ولعله أنشأ بها أربعين مقامة فقط، ثم رأى أن يزيد عليهـــا بعـــد، فزادها ستا، ثم خمسا أخرى، حتى نيفت على الخمســـين[2].. وقيـــل غيـــر ذلك[3].

* أول من ابتدع المقامة:

المشهور بين أهل الأدب أن بديع الزمان هو مبتـــدع فـــن المقامـــة، وقيل: إنه نقلها من الفارسية إلى العربية...

---

(١) نفسه- نقلا عن خزانة ابن حجة ١٢٥.
(٢) المقامة د/ شوقى ضيف ١٧، ١٨.
(٣) بديع الزمان — دار الشكعة ٢٣٠.

ذهب إلى ذلك الأستاذ أحمد ضيف[١]، وكارل بروكلمان[٢]، وقد رد عليهما الدكتور يوسف نور عوض[٣].

وذهب آخرون إلى أن مبتدع هذا الفن هو (ابن دريد)، وأن الهمذانى كان مقلدا له وتابعا، ومتأثرا به..

وممن رأى ذلك: الحصرى القيروانى، وتابعه الدكتور زكى مبارك، لكنه قال[٤]:

"ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات، فإن عمل بديع الزمان فى هذا الفن أقوى وأظهر، وطريقته فى القص تختلف عن طريقة ابن دريد. والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن فى أذهانهم غير فن بديع الزمان، فهو بذلك منشئ هذا الفن فى اللغة العربية".

ويقول الدكتور زكى مبارك[٥]:

"إن الحريرى هو الذى أذاع الغلط بين الناس بأن بديع الزمان هو أول من أنشأ فن المقامات، حين قال فى مقدمة مقاماته: [...ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان]".

ومهما يكن من أمر -فيما يتعلق بأصول فن المقامة- "فبإمكاننا أن نجزم بأن فكرة المقامة كما نعرفها كانت موجودة، وأن أول من التقطها ليحدث منها جنسا أدبيا جديدا... الهمذانى، إذ ليس من الضرورى كلما وجدنا

---

(١) النثر الفنى ٢٠٣/١.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية (مقامة).
(٣) فن المقامات ١٣.
(٤) النثر الفنى ٢٠١/١.
(٥) النثر الفنى ١٩٨/١ وانظر مقدمة مقامات الحريرى.

أنفسنا أمام تجديد ما أن نبحث له عن نموذج بأى ثمن من الأثمان، لأن أبسط قواعد العدل تقتضى منا أن نعطى للاستنباط الشخصى نصبيه"[١].

ويقول مارون عبود[٢]:

إن خطة المقامات هى من عمل البديع، فلا لابن فـــارس ولا لابـــن دريد يد فى صنعها، فالهمذانى هو الذى ألبسها هذا الطراز الموشى.. لكنـــه جمع مادة المقامات من هنا وهناك.. ويعد الجاحظ أول من أثر فى البديع من خلال كتابه (البخلاء).

مجتمـــع الهمذانـــى :

فى مجتمع زاخـــر بالمتناقضـــات، ملـــئ بالصـــراعات، سياســـية واجتماعية، وثقافية وفكرية، وفى شـــتى منـــاحى الحيـــاة.. وتفـــاوت بـــين الطبقات.. فى ذلك المجتمع ولدت مقامات بديع الزمان.

لقد كان الصراع محتدما بين الفرق والمذاهب، والملل والنحل... كان هناك أهل السنة، والشيعة، والمعتزلة.. ثم الزنج والحشاشون.. وصراع آخر أحمى أطلق عليه (الشعوبية)، حيث علت أصوات أدباء العجـــم وشـــعرائهم ونقادهم.. وأطلقت أيادى الساسة منهم يصرفون شئون الحكم كيفما يـــروقهم، وتحكموا فى الخلفاء، يعزلون من يشاءون، ويولون من يشاءون، حتى بلـــغ بهم الأمر أن نصبوا وعزلوا سبعة خلفاء خلال أربعة عشر عاما.

وكأنما أرادوا أن يعوضوا الغبن الذى لحقهم أيام دولة بنـــى أميـــة. وكان من نتائج ذلك أن بعض أعلامهم طـــاولوا الحكـــام ونافســـوا الخلفـــاء

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، وفن المقامات.

(٢) بديع الزمان الهمذانى ٣٤.

والأمراء، فكانت منزلتهم لدى الشعب عالية.. مثل البرامكة، ومن قبلهم أبـو مسلم الخرسانى.. وغيرهم.

وشاعت موجة اللهو والمجون والخلاعة،وكثرت الجوارى والقينات، وفى مقابل ذلك ظهرت حركة الزهد والتصوف.

مجتمع ملئ "بالآمال الخائبة، والادعـاءات الخادعـة، والتـدليس، والنفاق..."(١).

وزاد عدد الأثرياء حتى إن الأموال كانت تقدر بالملايين، وذلك على حساب الفقراء.. وضمت طبقـة الأثريـاء الخلفـاء، والـولاة، والأمـراء، والوزراء، والحجاب، وبعض الأدباء.

وظهر التفنن والتأنق فى بناء القصور والحدائق، والبذخ والإسـراف فى المطعم والمشرب والملبس.

بينما هناك طبقة بائسة، يائسة، فقيرة، معدمة، لا تكاد تجـد قـوت يومها، مما اضطر بعضهم إلى التسول كوسيلة للحصول على الطعام.. وقـد ضمت هذه الطبقة بعض الشعراء والأدباء والعلماء الذين أبت عليهم عـزتهم وأنفتهم أن يذلوا أنفسهم، ويريقوا ماء وجوههم على أعتاب الخلفاء والأثرياء.

فى هذا المجتمع ظهرت المقامات فى "إطار ما يعرف بأدب الكديـة، أو الأدب المضاد للبطولة، وهو أدب تلجأ إليه الأمم عنـدما تعـم الفوضـى السياسية، وينتشر الظلم الاجتماعى، فيكون بمثابة العين الناقدة...

"ومثلما يقود الوضع التاريخى السئ إلى التشاؤم، وفقدان الأمل، فإنه يقود – أيضا– إلى تقوية حس الهجاء لدى محترفى الأدب، بتعويـل علـى

(١) المفارقة فى مقامات بديع الزمان / أحمد حريس – مجلة جذور ٣٥٧.

السخرية والفكاهة. فالسخرية هى العلاج الأمثل لتجاوز رداءة الزمن وناسه، وهى الرد الأمثل عند الشعور بالعجز عن رد الأمور إلى نصابها.."[1].

كان بديع الزمان شاهدًا على ذلك العصر بكل ما فيه، وطاله الظلم الاجتماعى، حيث عاش فقيرا بائسا، بينما الجهال وأراذل الناس من حوله يرفلون فى النعيم.. فكانت مقاماته تنفيسًا عما يقاسى من هموم، ويعانى من ظلم.

لقد "كان هبوط الخلافة فى القرن الرابع ارتفاعًا للأدب.. وما من عصر حفل بالأدباء والعلماء والشعراء كهذا العصر، أليس هو عصر المتنبى، وابن العميد، وابن عباد، والخوارزمى، وبديع الزمان، والتوحيدى، والصابى، وابن فارس، وابن دريد، والشريف الرضى.."[2]. إلخ إلخ.

---

(١) نفسه ٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) بديع الزمان / مارون عبود ١٤.

أبو الفتح الإسكندرى وعيسى بن هشام

البطـل والـراوى

١-البطـــل :

كان الفقر حليفا لطائفة من الأدباء والعلماء فى ذلك الزمـان، حتـى ليقول أبو حيان التوحيدى[١]:

"القوت لم يكن إليه سبيل إلا بإخلاق المـروءة، وتجـرع الأسـى، ومقاساة الحرقة، ولذع الحرمان، والصبر على ألوان من الهوان وألوان...".

ولم يجد بعض الفقراء سبيلا للارتزاق إلا أن يحتالوا ليقتلوا الجـوع قبل أن يقتلهم.. ومن ثم وجدت ظاهرة (الكديه)، وبرزت بشكل سافر علـى أيدى الساسانيين.

الساسانيـون :

وآل ساسان – كما هو معروف– أسرة فارسية حكمت الفرس مـدة من الزمان، وقد ذكرهم البحترى فى سينيته بقوله:

أتسلـى عـن الحظـوظ وآسـى لمحـل مـن آل ساسـان درس

وافتخر بشار بانتسابه إليهم فى بائيته قائلا:

جـدى الـذى أسمـو بـه كسـرى، وساسـان أبـى

فهل أراد بديع الزمان الهمذانى أن يشير إلى أنهم قوم ذلوا بعد عز، وصاروا سوقة بعد أن كانوا ملوكا؟! وأن لسان حالهم يشكو مع حرقة بنت النعمان بن المنذر[١]:

بينا نسوس الناس والأمر أمرنـا إذا نحـن فيهم سوقـة نتنصـف

---

(١) حماسة أبي تمام / شرح المرزوقى – رقم ٤٤٩، وبشرح التبريزى رقم ٥٠.

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

لقد غدر الزمان بآل ساسان، حتى اضطروا إلى الاحتيال لسد فقرهم، وإشباع حاجاتهم.

ويرى الإمام محمد عبده[1]: أن الساسانيين هم شراذم الأمراء الفارسيين، الذن أبوا الدخول فى الإسلام، بعد فتح بلاد فارس، وانطلقوا هائمين على وجوههم بعد أن افتقروا وذلوا.. فصارت النسبة إليهم نسبة عار وهوان.

وقد كثر هؤلاء الساسانيون أيام بديع الزمان، وكان منهم أدباء وشعراء، نذكر منهم :

- الأحنف العكبرى، القائل :

عشت فى ذلة وقلة مال واغتراب فى معشر أنذال

بالأمانى أقول لا بالمعانى ففدائى حلاوة الآمال

وقال :

على أنى بحمد الله فى بيت من المجد

بإخوانى بنى ساسا ن أهل الجد والجد

- والشاعر أبودلف- مسعر بن المهلهل الخزرجى، الذى كان "قريبا من نفس بديع الزمان، بل لعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا: إن البديع كان ينزله من نفسه منزلة الأستاذ المعلم: يتعرف أخباره، ويروى أشعاره، كما كانت رحلاته

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان ٨٩.

وتطوافه فى الأرض الواسعة موضع عجبه واستظرافه، وشيخوخته وحكمته وتجاربه وأستاذيته فى حرفته موضع تأمله واستعجابه..."[١].

من هنا اختار بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هو (أبــو الفــتح)، وجعله (اسكندريا) نسبة إلى الإسكندرية، حيث يقول:

اسكنـــــــــدرية دارى   لو قــر فيهــا قــرارى

ولكن : أى إسكندرية تلك التى انتسب إليها أبو الفتح من بين ثلاث عشرة بلدة تسمى بهذا الاسم؟

قيل: إنها إسكندرية الأندلس، التى بناها المقدونى على ضفاف النهر الأعظم – نهر أشبيلية–، حيث يقول أبو الفتح فى المقامة الجرجانية:

[من الثغور الأموية، والبلاد الإسكندرية]

والمقصود بالثغور الأموية –فيما يبدو– بلاد الأندلس، لكن الــدكتور مصطفى الشكعة ينقل عن الدكتور عبدالوهاب عزام أن صــحتها [الآمويــة] وليس [الأموية]، وعلى ذلك فالإسكندرية المقصودة هى التى تقع على نهــر آموى (جيحون) [٢].

* أبو الفتح بين الواقع والخيال :

اختلف الدارسون حول شخصية أبى الفتح، فذهب بعضهم إلى أنهــا شخصية خيالية لا أساس لها فى واقع الحياة ودنيا الناس.

لكن سماته وصفاته وأفعاله وتصرفاته توجد وتصدق على شخصيات عديدة فى المجتمع..

وربما كان أبو الفتح هو بديع الزمان نفسه، فبينهما أوجه شبه كثيرة:

---

(١)النموذج الإنسانى ٥٨.

(٢) راجع : بديع الزمان ٢٣٤.

فحال بديع الزمان هو حال أبى الفتح من حيث:
الفقر، الجوع، الذكاء، النبوغ، الموهبة الأدبية.. وكذلك فى السخط على المجتمع الذى نطق به على لسان أبى الفتح حين قال:

هذا الزمان شوم كما تراه غشوم
الحمق فيه مليح والعقل عيب ولوم
والمال طيف ولكن حول اللئام يحوم

إلى غير ذلك من مظاهر التمرد والثورة والسخط على المجتمع.
ويصف الهمذانى أبا الفتح بأنه [رجل الفصاحة، يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه..][1].

فأبو الفتح يمكن أن يكون (المعادل) لبديع الزمان ومن على شاكلته من الأدباء الذين قست عليهم ظروف الحياة الاجتماعية والسياسية فآدت ظهورهم، ولم تيسر لمقدراتهم الإنسانية والفنية النمو والازدهار، فسخطوا على المجتمع، وسخروا منه كما سخر منهم، وراحوا يتكسبون بأدبهم، ويستغلون غفلة الناس وسذاجتهم، ويهجون من خلال حيلهم كل طبقات المجتمع، مع إبرازهم للتناقض الصارخ بين حياة طبقاته..."[2].
إذا أبو الفتح الإسكندرى شخصية صنعها بديع الزمان..

ويظهر أبو الفتح فى المقامات فى صورة أديب ماكر، متلون، يلبس لكل حالة لبوسها، ويتقمص شخصيات شتى.. فقد تقمص شخصية الزاهد، والخطيب، والأعمى، والقراد، والشاعر، والدجال... وهو تارة شاب، وأخرى شيخ عجوز هرم.

---

(١) مقامات بديع الزمان ١٢١.
(٢) النموذج الإنسانى ٦٨، د/ خفاجى فى: الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى، ورأى فى المقامات د/ ياغى.

٢- الراوى : عيسى بن هشام :

يقوم عيسى بن هشام بدور الراوية الذى يحكى ما رآه من أبى الفتح الإسكندرى، حيث يعمل عيسى بالتجارة، ويتنقل فى أرجاء المملكة العربيــة الإسلامية، وتضطره الظروف إلى لقاء أبى الفتح فى كل بلدة نزلها، أو قطر زاره.. ويكشف عيسى بن هشام شخصية أبى الفتح رغم تنكــره وخداعــه ومكره وختله، إذ يظل يتربص به حتى يكشفه فيفضحه.

"وشخصية الراوى (عيسى بن هشام) ذات أهمية خاصة فى مقامات الهمذانى، لأنه هو الذى يمهد لظهور البطل، وهو الذى يتابعه حيثما وجــد. وفى كل ذلك يحسن طريقة التقديم فيجعلها الصدفة، أو يجعلها المناسبة، أو ما إلى ذلك..".

"وعلى العكس من شخصية الإسكندرى، لم يعش ابن هشام مشــردا، بل كان فى معظم حالاته رافلا فى أثواب العز والنعيم.. كما نجده محوطــا بالأصدقاء والوجهاء، لاهم لهم سوى السمر والشرب والطرب، بل إنه بلــغ ولاية البصرة فى المقامة الخلفية.."[1].

وإذا كانت أغلب مقامات الهمذانى تقوم على ثنائية (الراوى- البطل) فإن بعضها قد يقتصر على الراوى الذى يلعب شخصية البطل فــى الوقــت نفسه، بينما يغيب أبو الفتح تماما.. نجد ذلك فى المقامات: التميمية، البشرية، البغدادية... [2].

---

(١) فن المقامات ١٢٩- ١٣١.

(٢) راجع : المقامات وباكورة قصص الشطار ٣٤.

* مســــرح الأحـــداث :

مسرح الأحداث فى المقامات رحب جدا، إذ تكاد المقامـــات تغطـــى "معظم بقاع الدولة الإسلامية، لا سيما فى المشرق، ولا نعرف لذلك التعـــدد سببا سوى التكدى فى بقاع مطروقة، تتيح للإسكندرى فرصة أكبر فى خداع من لا يعرفونه.

"وكذلك رغبة الهمذانى الضمنية –ربما– انتقاد ذلك الشتات الذى وقع للدولة الإسلامية فى عصـــره، وأطاع بوحدتها المـــركزيـــة"[1]. وهو يشير –كذلك– إلى أن ذلك الواقع المصور، والفساد الضارب فى عصـــره لـــيس مقصورا على بلد دون بلد، وإنما هو وباء عام فى كل الأمصار، لا يســـتثنى من ذلك مصر دون مصر.

ويعقد الدكتور مصطفى ناصف وجه شبه بين أبى الفتح والصـــاحب فى الشعر القديم، فيقول :

"وأبو الفتح الإسكندرى هو الصورة المتحولة عن الصاحب القديم فى القصيدة القديمة. الصاحب القديم يعين على البكاء، والصاحب الجديد يعـــين على الضحك الذى لا يبالى".

ويوازن بين الرحلة فى القصيدة القديمة والرحلة فى المقامات فيرى: أن الرحلة القديمة كانت تطهيرا للنفس والعزيمة، وابتعاثا للقلـــق والغـــامض والجليل، وأما الرحلة الجديدة فكانت تلويثا وتشويشا وإيثارا للفرقة والانقسام فى داخل النفس والجماعة..."[2].

وربما أراد الهمذانى أن يشعرنا بغربته، تماما كما كان الشاعر القديم فى مقدمة قصيدته[3].

---

(١) المفارقة فى مقامات بديع الزمان / مجلة جذور ٣٦٠.
(٢) محاورات مع النثر العربى ٢٠٤.
(٣)فن المقامات ١٣١.

* **اللغة والأسلوب فى المقامات :**

١- تزخر المقامات بالكثير من الألفاظ الغريبة، كما فى المقامة القردية التى تستعمل فيها كلمة (الرجلة) جمعا لرجل، وهو جمع شاذ، لم تكن هنـــاك ضرورة لاستخدامه.

وقوله فى المقامة الموصلية: [فأخذه الجف، وملكتـــه الأكـــف]. قاصــــدا بالجف: الجمهور...

ولعل المقامة الحمدانية أكثر المقامات ألفاظـــا مهملـــة وحوشـــية غيـــر مسموعة[١].

وكانت المقامات فى عصر الترف، ترف فى منـــاحى الحيـــاة، وأهمهـــا الترف العقلى الذى أصاب كثيرا من العلوم فى ذلك العصر. فكان "لابـــد فى عصر بديع الزمان من البحث عن رفاهية لغوية، رفاهية تنطوى على قدر لا بأس به من حذف نشاط كثير. الرفاهية عود إلى الجذور لا يخلو من سخرية. وفى ذلك ثناء ضمنى على الماضى بوجه عام، وفيه قدر من تصوير أحلام اليقظة..."[٢].

٢- اختار الهمذانى لمقاماته صيغة (السجع) التى حازت إعجاب كثير مـــن الأدباء والنقاد فى ذلك الزمان، وقد أظهر براعته فى استخدامها، وكان لا يترك السجع إلا نادرا، تسعفه فى ذلك حافظة نادرة، وبديهـــة حاضــــرة، وذكاء حاد، وإحساس دقيق باللغة ومرادفاتهـــا وأبنيتهـــا واســـتعمالاتها المختلفة. وسجعه خفيف رشيق، أغلبه غير متكلف..

---

(١) راجع : المقامة د/ شوقى ضيف ٤٢.

(٢)محاورات مع النثر العربى ١٨٢.

ومما خفف من سجعه روح الفكاهة التى تخللت مقاماته، فجعلتها أكثر قبولا، وأسرع علوقا للأذهان.
ويتميز سجعه بالقصر غالبا، وضبط الأنغام، كما كان يضيف إليه بعض المحسنات البديعية من جناس وغيره[1].

٣- الاقتباس: وهذا الاقتباس قد يكون من الشعر القديم، أو من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، والأمثال العربية.

٤- الشعر فى المقامات: فى المقامات شعر كثير، قد يكون من تأليف البديع نفسه، أو من شعر غيره -كما ذكرت. والمقامات التى تخلو من الشعر قليلة مثل [المضيرية، والشيرازية، والصيمرية، والدينارية].

٥- وأسلوب الهمذانى يتراوح بين الرقة والعذوبة، والتعقيد والخشونة، حسبما يتطلب الموضوع "فهو يكيل بكيلين، ويكتب بقلمين."[2].

٦- وفى المقامات من ألوان البيان: تشبيه واستعارة.. وفيها مجاز لغوى..
ومن البديع الجناس، حيث أكثر من الجناس الناقص، كما فى المقامة القريضية[3]:
"قلنا فما تقول فى جرير والفرزدق؟ وأيهما أسبق؟ فقال: جرير أرق شعرا، وأغزر غزرا، والفرزدق أمتن صخرا، وأكثر فخرا، وجرير أوجع هجوا، وأشرف يوما، والفرزدق أكثر روما، وأكرم قوما".

---

(١) راجع : المقامة د/ شوقى ضيف ٣٢ وما بعدها، بديع الزمان د/ الشكعة ٢٦٠.
(٢) راجع : فن المقامات ١٣٧.
(٣) راجع : فن المقامات ١٣٧.

٧- لقد كان ابتكار البديع فى الألفاظ أكثر من ابتكاره فى المعـــانى، فكـــان يعول على الكلام المستعمل، لعلمه أنه أشد تأثيرا فى النفوس، وقلما ذكر آية أو حديثا أو كلمة مأثورة بحروفها، بل يكتفـــى بالإيمـــاء إليهـــا ثـــم يمضى..

وأدرك البديع أن الجملة الطويلة ضعيفة الوقع، ولذلك اختار جملا خفيفـــة سريعة[١].

* بين المقامة والقصة :

اختلف الدارسون -كذلك- فى هذه القضية، فهناك من يذهب إلى أن المقامة قصة، وأنها قد سدت بابا ناقصا، وغطت جانبـــا مهمـــلا فـــى الأدب العربى القديم:

ذلك أن "المقامة باعتبارها شكلا أدبيا جديدا استطاع أن يغطى بعض جوانب القصور فى أدب التراث، وبخاصة فيما يتعلق بالقصة والأقصوصـــة بمفهومها الفنى الحديث"[٢].

ويرى الدكتور حجاب :

أن أسلوب المقامة أسلوب قصصى حوارى يهدف إلى تعليم الناشئين الفصيح من القول، ويمدهم بالغريب من الألفاظ..

"والناحية القصصية فى المقامات لا تشكل هدفا أصيلا، بل إنها وسيلة لتلك الغايات.. ومن ثم خلت إلى حد ما من العقدة أو الحبكة القصصية التـــى هى حجر الزاوية فى هذا البناء."[٣].

---

(١) بديع الزمان – مارون عبود ٤٤ (بإيجاز).
(٢) المقامات وباكورة قصص الشطار صـــ١٣.
(٣) ظاهرة المقامات/ حوليات دار العلوم ٦٨/٦٩ نقلا عن فن المقامات ٩.

بينما يذهب الدكتور (يوسف نور الدين عوض) إلى أن "المقامة قصة قصيرة تشتمل على حبكة شاملة، ذات موضوع، وأبطالها لا يخرجون عن الإطار الذى رسمه لهم الكاتب فى واقعهم الدرامى، وهذا يتوافق توافقا تاما مع مفهومنا للحركة الدرامية، وذلك بالطبع لا ينفى وجود اختلاف عن فن القصة"[1].

أما الدكتور مصطفى الشكعة فيرى: أن معالم القصة ليست واضحة فى كل مقامات بديع الزمان، بل هى تنعدم تمام فى كثير منها، ويتقلص ظلها فى عدد كبير آخر، ولكنها واضحة ناجحة الأركان فى البعض الآخر.

ويدلل الدكتور الشكعة على عناصر القص ونجاح بديع الزمان فيها من خلال بعض المقامات كالمقامة الموصلية.. فالقصة فى روحها تكاد تكون كاملة الأركان.. والعقدة فى القصة محبوكة، والانتقال واضح، والحركة سريعة، والعرض موفق خال من الفجوات، والقصة بعد ذلك مليئة بالمفاجآت والوقائع المثيرة، ولا تلبث القصة أن تنتهى نهاية فنية طيبة... [2].

بل إن الدكتور الشكعة سمى كتابه (بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية).

---

(١) فن المقامات ٦٣.

(٢) بديع الزمان ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٥ وانظر تعليقه على المقامة البشرية ٢٩٥.

نص

المقامة البغدادية*

لبديع الزمان الهمذانى

حدثنا عيسى بن هشام، قال: اشتهيت الأزاذ[١]، وأنا ببغداذ[٢]، وليس معى عقد على نقد[٣]، فخرجت أنتهز محاله[٤]، حتى أحلنى[٥] الكرخ[٦]، فإذا أنا بسوادى[٧]، يسوق بالجهد حماره، ويطرف بالعقد إزاره[٨].

فقلت : ظفرنا – والله– بصيد[٩]، وحياك الله أبا زيد.. من أين أقبلت؟ وأين نزلت؟ ومتى وافيت؟ وهلم إلى البيت.

---

* مقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى/ الشيخ محمد عبده صـ٥٥، وكذا بشرح محيى الدين عبدالحميد ٦٦ وشرح الألفاظ منهما.

(١) الأزاذ : من أجود أنواع التمور.

(٢) بغداذ: هكذا بالمعجمة ليتحقق السجع.

(٣) العقد: هو ما نسميه بـ (الصرة) وهى قطعة من قماش تربط على النقود، قال الإمام محمد عبده: فى العادة أن من معه نقد يعقد عليه وعاءه من كيس ونحوه، فإذا انتفى العقد على النقد فقد انتفى النقد، ففيه كناية عن فقد النقد.

(٤) أنتهز محاله: أى أبحث عن الأماكن التى يباع فيها أو يتوقع وجوده بها. وأنتهزها: أغتنمها وفيه كناية عن شدة ولعه بالأزاذ.

(٥) أحلنى : أنزلنى. والضمير فيه يعود على الأزاذ، لأنه هو الباعث له على الخروج والمسير.

(٦) الكرخ: موضع ببغداد فى الجانب الغربى منها.

(٧) السوادى: نسبة إلى السواد، وسمى العراق سوادا لاكتساء أرضه بالخضرة، وهذه الخضرة –فيما يبدو– تتراءى من بعيد سوادًا.

(٨) الإزار: ما يشد فى الوسط سابغًا إلى أسفل الساقين. يطرف الإزار: أى يرد أحد طرفيه على الآخر بما يعقد بينهما.

(٩) الصيد: هو ذاك السوادى القروى الذى رمى ابن هشام شباكه عليه لينال منه ما يريد..

فقال السوادى: لست بأبى زيد، ولكنى أبو عبيد.
فقلت : لعن الله الشيطان، وأبعد النسيان. أنسانيك طول العهد، واتصال البعد.. فكيف حال أبيك؟ أشاب كعهدى[١]، أم شاب عبدى؟

فقال : قد نبت الربيع على دمنته[٢]، وأرجو أن يصيره الله إلى جنته.
فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ومددت يد البدار[٣]، إلى الصدار[٤]، أريد تمزيقه[٥]، فقبض السوادى على خصرى بجمعه[٦]، وقال: نشدتك الله لا مزقته[٧].

فقلت : هلم إلى البيت نصب غداء، أو إلى السوق نشتر شواء، والسوق أقرب، وطعامه أطيب.

---

(١) أشاب كعهدى : أى هو باق فى شبيبته كما عهدته؟ أم شاب بعد ما فارقته؟
(٢) نبت الربيع على دمنته: كناية عن موته. والدمنة: ما بقى من آثار الديار بعد خرابها ورحيل أهلها عنها. أى أنه مات من بعيد يكفى لتخرب الديار وينبت الربيع على آثارها، أو أن الدمنة هى القبر.
(٣) البدار : المسارعة والمبادرة.
(٤) الصدار: ثوب قصير يلى الجسد.
(٥) أريد تمزيقه: أى الصدار. وإنما فعل ذلك ليثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه كان صديقا لأبيه، وأن حزنه لموته عظيم، وشق الثوب أعظم دليل على ذلك — وهو منهى عنه فى الإسلام-.
(٦) بجمعه: أى بقبضة يده، وإنما فعل ذلك لأنه اعتقد أن الرجل جاد فى تمزيق ثيابه.
(٧) لم يكتف السوادى بمنعه وإنما استحلفه بالله ألا يفعل، مما يدل على انطلاء الحيلة عليه.

فاستفزته[1]، حمة[2] القرم[3]، وعطفته عاطفة اللقم، وطمع ولم يعلـم أنه وقع[4]. ثم أتينا شواء يتقاطر شواؤه عرقا[5]، وتتسايل جوذاباته مرقا[6].

فقلت: افرز لأبى زيد من هذا الشواء، ثم زن له من تلـك الحلـواء، واختر له من تلك الأطباق، وانضد عليها أوراق الرقاق[7]، ورش عليها شيئا من ماء السماق[8]، ليأكله أبو زيد هنيا.

فانحنى الشواء بساطوره[9]، على زبدة تنوره[10]، فجعلهـا كالكحـل سحقا[11]، وكالطحن دقا، ثم جلس وجلست، ولا يئس ولا يئسـت[12]، حتـى

---

(١) استفزته : دفعته وحركته واستخفته.

(٢) حمة : شدة

(٣) القرم : الشهوة الشديدة إلى الطعام.

(٤) وقع : أى وقع فريسة فى الفخ الذى نصبه له عيسى.

(٥) يتقاطر شواؤه عرقا: دلالة على سمن اللحم ودسمه، لأن العرق ههنا ما يفـرز من دهنه ودسمه.

(٦) تتسايل جوذاباته: الجوذابة: الرغيف يخبز وفوقه قطعة لحم أو طائر، فيطيب بما يسيل عليه من دهن دون حاجة إلى أدم.

(٧) انضد : رش. والرقاق: معروف.

(٨) السماق: حب أحمر حامض صغير، وشجره يشبه الرمان.

(٩) الساطور: سكين الجزار.

(١٠) موقد النار، وأضاف الزبدة إلى التنور لأنها من خصائصه ولوازم الأكل من شوائه.

(١١) جعلها: أى الزبد —كالكحل سحقا: لا ندرى كيف تسحق الزبـد؟ قـال الإمام محمد عبده: وسحق الزبدة حتى جعلها كالكحل أو الطحن– الـدقيق– ليسهل ذوبانها بسرعة، والرقاق لابد له من الزبدة حتى يطرى ويهنأ أكله مـع الشواء، فإن لم تكن زبدة فمرق.

(١٢) ولا يئس ولا يئست: أى أخذ كل منها يأكل ولا يظهر له شبع، طمعـا فى إنفاذ ما بين أيديهما وحتى لا يترك للآخر فرصة يزيد عليه فى الأكل. ويروى (ولا نبست) أى لم ينبس واحد منهما ببنت شفة، لأن الكلام سيعطله عـن الطعام وبالتالى يعطى الفرصة للآخر ليزيد فى التهام الأكل.

استوفينا، وقلت لصاحب الحلوى: زن لأبى زيد من اللوزينج[١] رطلين، فهو أجرى فى الحلوق[٢]، وأمضى فى العروق[٣]، وليكن ليلى العمــر[٤]، يــومى النشر[٥]، رقيق القشر[٦]، كثيف الحشو[٧]، لؤلؤى الدهن، كــوكبى اللــون[٨]، يذوب كالصمغ قبل المضغ[٩]، ليأكله أبو زيد هنيا.

قال: فوزنه، ثم قعد وقعدت، وجرد وجردت[١٠]، حتى استوفيناه.

ثم قلت: يا أبا زيد، ما أحوجنا إلى ماء يشعشع[١١]، بالثلج، ليقمــع[١٢] هــذه الصارة[١٣]، ويفثأ[١٤] هذه اللقم الحارة.

---

(١) اللوزينج : نوع من الحلوى يتخذ من الخبز ويسقى بدهن اللوز ويحشى بالجوز واللوز.

(٢) أجرى فى الحلوق : أمضى سيرا فيها لسهولته.

(٣) أمضى فى العروق: أشد سريانا فيها من غيره من أنواع الحلوى لسرعة هضمه.

(٤) ليلى العمر: أى صنع ليلاً ومضى عليه ليلة كاملة.

(٥) يومى النشر : أى خرج فى النهار من المصنع.

(٦)رقة القشر: أن يكون الخبز المحشى رقيقا، ليكون أسهل وألطف.

(٧) كثيف الحشو: أى المكسرات التى يحشى بها تكون كثيرة.

(٨) دهن اللوز إذا كان صافيا أشبه اللؤلؤ فى لونه، فما سقى به من الحلواء يكون فى لمعانه أشبه بالكواكب.

(٩)يذوب كالصمغ قبل المضغ : كناية عن بلوغه من النضج والرقة وإتقان الصــنع درجة عالية.

(١٠) جرد وجردت: أى شمر عن سواعده حتى لا تعوقه ملابسه عن الطعام.

(١١)يقشع: يخلط ويمزج.

(١٢) يقمع: يطفئ ويقهر ويدفع.

(١٣)الصارة: العطش وشدة الحرارة.

(١٤) يفثأ :يخفف ويكسر.

اجلس يا أبا زيد حتى نأتيك بسقاء، يأتيك بشربة ماء، ثـم خرجـت وجلست، بحيث أراه ولا يرانى، أنظر ما يصنع. فلمـا أبطـأت عليـه قـام السوادى إلى حماره، فاعتلق الشواء بإزاره[1]، وقال: أين ثمن ما أكلت؟

فقال أبو زيد: أكلته ضيفا، فلكمه لكمة، وثنى عليه بلطمة، ثـم قـال الشواء: هاك[2]، ومتى دعوناك[3]؟ زن يا أخا القحة[4] عشـرين[5]. فجعـل السوادى يبكى، ويحل عقده بأسنانه[6]، ويقول: كم قلت لذلك القريد[7]: أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد، فأنشدت:

أعمـل لـرزقـك كـل آلـه	**لا تقعـدن بكـل حـالـه**
وانهـض بكـل عظيمـة	**فالمـرء يعجـز لا محالـه**[8]

* * *

---

(١) اعتلق الشواء بإزاره: أى تعلق بملابسه ليأخذ ثمن الطعام.

(٢) هاك: أى خذ من اللكم واللطم.

(٣) متى دعوناك: متى كانت دعوتنا إليك لتنـزل ضيفا علينـا وتأكـل علـى حسابنا؟

(٤) القحة: الوقاحة.

(٥) زن عشرين: أى أعط وزن عشرين درهما.

(٦) يحل عقده بأسنانه: أى يفك كيس النقود ليخرج ثمن الطعام، وإنمـا يفكهـا بأسنانه لأنه أحكم وثاقها وربطها ربطا جيدا حتى استعصت على الفـك إلا بالأسنان.

(٧) قريد: تصغير قرد.

(٨) معنى البيتين: إذا كان لابد أن يصل المرء إلى عجز عن العمل فعليـه فى زمـن القدرة أن ينهض إلى العظائم فينالها ويستوفى حظه منها قبل أن يدركه العجـز ويحوطه الحرمان. أ.هـ.

تعليق على المقامة البغدادية

هذا عيسى بن هشام – الراوية– يقوم بدور البطل فى هذه المقامـــة، ولا يذكر أبو الفتح الإسكندرى..

اشتهى عيسى نوعا من التمر، ولم يكن يملك من النقد ما يدفعه ثمنا لذلك التمر المشتهى.. فماذا يفعل؟

لابد له من الاحتيال –كما كان يفعل أبو الفتح – ليتحقق له مراده.

أخذ ابن هشام يبحث عن ذلك التمر فى مظانه، فيمم وجهه شـــطر الكـــرخ، ونزل بها.. ويبدو أن الكرخ كانت زاخرة بهذا التمر.

إذا وجد التمر، ولكن لا يوجد ثمنه.. فليبحـــث عمـــن يأكـــل علـــى حسابه... وهناك وجد ضالته فى رجل قروى، فلاح، يسوق حمـــارا لـــه.. ويبدو أنهم فى ذلك الزمان كانوا يرون ذلك الفلاح ساذجا، مغفلا، يســـهل أن تستدرجه حتى تستخرج ما فى جيبه..

ومن فوره رمى شباكه على ذلك الصيد..

فبدأه بالتحية، ثم أمطره بوابل من الأسئلة حتى لا يدع له فرصـــة التفكيـــر، ومن ثم التشكك: [من أين أقبلت؟ وأين نزلت؟ ومتى وافيـــت؟ وهلـــم إلـــى البيت].

وقد اختار له اسما، أى اسم، فإن أصاب فبها ونعمت، وإلا فليصرح هو باسمه..[لست أبا زيد، ولكنى أبو عبيد].

وأدرك عيسى أن الرجل يمكن أن يتشكك فى معرفته به، إذ هـــو لا يعرف اسمه.. وهنا نسب النسيان إلى الشيطان، ثم طول المدة التى لم يـــره

فيها. ولم يكتف بذلك، بل عاجله بسؤال عن أبيه، الذى كان آخر عهده به شابا، أهو لا يزال على شبابه؟ أم شاب بعده؟

ويجيب المسكين: إن أباه قد مات منذ سنين، ويسأل الله له الجنة. فيسترجع عيسى ويحوقل، ويمعن فى إتقان دوره، وإحكام تمثيل شخصية صديق ذلك الأب الميت. فيهم بتمزيق ثيابه حزنا على صديقه.. ويصدق المسكين تلك (التمثيلية)، فيمنع عيسى من تمزيق ثيابه، لكن عيسى يبدو مصرا، فما كان من (أبى زيد) إلا أن استحلفه بالله ألا يفعل.

الآن استسلم السوادى لذلك (الصديق) القديم لأبيه، وخضع لتلك الصداقة.. فلينتقل (الممثل) إلى الفصل الثانى من (المسرحية).. هنا يريد عيسى أن يقوم بواجب ابن صديقه المزعوم.. فيعزمه على الطعام، مخيرا إياه بين البيت والسوق، ولم يترك له فرصة الاختيار، بل اختار له السوق [لأنه أقرب، وطعامه أطيب]. ولم يكن لعيسى بيت، ولو كان له بيت فليس به طعام..

سال لعاب أبى زيد، وجرى ريقه لذلك الطعام الطيب الذى لن يكلفه درهما واحدا.. ولم يكن يدور بخلد ذلك المسكين أنه (عازم) كرها عنه، وليس (معزوما)، وأنه سقط فى شباك صياد ماهر، ومخادع ماكر..
لقد استطاع (عيسى) أن يحكم الحيلة على ذلك القروى الفلاح.. ثم إنه -أى الفلاح- رجل طماع، وقد استغل عيسى ذلك الطمع.

لقد كان هم (عيسى) أن يأكل تمرا، لكن ما المانع أن يترقى فى طلبه طالما وجدت الفرصة؟! لقد بات عليه أن يهتبلها ولا يضيعها...

أخذ عيسى ضيفه – أو بالأحرى مضيفه– وذهبا إلى شواء (كبابجى) متميز، إذ تفوح رائحة شوائه من بعد، فيسيل له اللعاب.. إن لحمه دسم، ويبدو أن عيسى لم يقع على أى شواء، بل اختاره اختيارا.

ويواصل عيسى إتقان دوره فى القيام بحق ضيفه، فيطلب إلى (الكبابجى) أن يقدم لأبى زيد –لاحظ (لأبى زيد) – من اللحم المشوى.. ومن الحلوى.. ومن سائر الأصناف التى عنده..

قائلا : [افرز لأبى زيد.. ثم زن له.. ليأكله أبو زيد هنيا]. وكأنهما هو (مضيف) فقط، ولن يأكل، وحتى إذا أكل فهى مشاركة واجبة تكريما للضيف.

فى حين أنه بمجرد وضع الطعام انقضا عليه انقضاضا، وكأنهما فى مباراة للأكل، أيهما يلتهم أكثر من صاحبه؟ .

شبع عيسى من اللحم، والرقاق، والزبد، وماء السماق، ومن سائر الأطباق، واللوزينج... إنه طعام (موصى عليه).

والآن حان وقت (الحساب)، ومعلوم أن عيسى ليس لديه نقد على الإطلاق، فكيف يفلت ويوقع ذلك الفلاح الساذج؟

اخترع حيلة للهروب الذى لابد منه، إذ قال لأبى زيد: (ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج..] فصدقه المسكين، وذهب عيسى وانزوى بعيدا، مختبئا، يراقب الأحداث من بعيد.

وجاء (الكبابجى) إلى أبى زيد يطلب ثمن الطعام، فأجاب: لقد أكلته ضيفا، وهنا ثارت ثائرة الكبابجى، حيث لم يجد أمامه سوى أبى زيد.. فمن ذا الذى (ضيفه).. وانهال عليه لكما ولطما وضربا، يقول له: خذ: هذه لكمة،

وتلك لطمة.. ادفع عشرين درهما وإلا أشبعناك بها ضربا، يا وقح. ولم يجد المسكين بدا من أن يفك صرة نقوده بأسنانه ليدفع (الفاتورة).

وهنا -فقط- تذكر أن اسمه (أبو عبيد) وليس (أبا زيد).. وكأنما يريد عيسى أن يقول: إن الرجل قبل أن يتنازل عن اسمه إزاء (أكلة كباب وبعض الحلوى). ولم يكتشف السوادى أن عيسى كان قردا محتالا، استطاع أن يوقعه فى حبائله إلا بعد (الضرب والغرم)، إنه -عيسى- رجل (ألعوبان).

وينشد عيسى بن هشام بيتين من الشعر، معناهما: اسع سعيا حثيثـا، وجد فى سبيل تحصيل رزقك، وإياك أن تقعد مستسلما.. لا تضيع الفـرص، وخذ حظك من الحياة قبل أن تعجز وتحرم.

* * *

ملاحظـــات

- هذه المقامة من المقامات الفكاهية المرحة، التى تصلح أن تكـــون نـــواة لمسرحية كوميدية.. بل هى -كما يرى الدكتور مصطفى الشكعة "علـــى قصرها القمة الفكاهية التى وصل إليها بديع الزمان"[1].
- ليس لأبى الفتح الإسكندرى وجود ألبتة فى المقامة، وإنما قام عيسى بدور الراوى والبطل فى آن، وهذه إحدى المقامات التى لا يذكر فيها أبو الفتح -كما أشرنا-.
- الكدية والاحتيال واضحان جد الوضوح فى المقامة، وكما يقولون [الحاجة أم الاختراع] فماذا يفعل فقير جائع لا يملك ما يسد به رمقه؟!
- فى المقامة بعض الألفاظ التى يعسر فهمها إلا بالرجوع إلى المعـــاجم.. وقد أجاد بديع الزمان إجادة فائقة فى وصف الأطعمـــة، وفصـــل ذلـــك تفصيلا رائعا..
- السجع فيها واضح، وقد يتكلفه كما فى قولـــه [وأنـــا ببغـــداذ]، وأحيانـــا يستعصى عليه، كما فى قوله [يومى النشر، رقيق القشر، كثيف الحشـــو، لؤلؤى الدهن].
- ختمت ببيتين من الشعر هما من نظم بديع الزمان[2].
- وفيها اقتباس من القرآن الكريم وتضمين: وذلـــك فـــى قولـــه [لعـــن الله الشيطان..] فهو من قوله تعالى **﴿وما أنسانيه إلا الشيطان..﴾** وقوله **﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾**.
- ومن كلام العرب [نبت الربيع على دمنته] كناية عن موته.
- ومن الألوان البيانية: الكناية، فى قوله: [ليس معى عقد على نقد].

---

(١) بديع الزمان الهمذانى ٢٦٦، الأدب فى موكب الحضارة.

(٢)ذكر الدكتور مصطفى الشكعة أن الشعر فى مقامات البديع لا يقل عن خمســـة أبيات. راجع بديع الزمان الهمذانى.

المراجـــــع

- الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ..د/ مصطفى الشكعة.
- بديع الزمان الهمذانى – رائد القصة العربيـة والمقالـة الـصحفية، د/ مصطفى الشكعة، مكتبة القاهرة الحديثة – ١٩٥٩.
- بديع الزمان الهمذانى –مارون عبـود– نوابـغ الفكـر العربـى– دار المعارف– مصر – ١٩٦٣.
- رأى فى المقامات د/ عبدالرحمن ياغى – دار الفكر للنشر والتوزيـع– عمان– الأردن – ١٩٨٥.
-فن المقامات بين المشرق والمغرب – د/ يوسف نور عـوض – مكتبـة الطالب الجامعى– مكة المكرمة.
- محاورات مع النثر العربى– د/ مصطفى ناصف– عالم المعرفة – رقم ٢١٨.
- المفارقة فى مقامات بديع الزمان الهمذانى– أحمد خريس، مجلة جذور– رجب ١٤٢٣.
- مقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى. الشيخ محمد عبده – مؤسـسة أخبار اليوم (بدون تاريخ).
- مقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى– شرح محمد محيـى الـدين عبدالحميد – المكتبة الأزهرية ١٩٢٣.
- مقامات بديع الزمان – قدم لها فاروق سـعد– بيـروت – دار الآفـاق الجديدة ١٩٨٢.
- المقامة (سلسلة فنون الأدب العربى) د/ شوقى ضيف – دار المعارف.
- المقامات وباكورة قصص الشطار الإسـبانية– د/ علـى عبـدالرؤوف البمبى– كتاب الرياض– العدد ٤٨– ديسمبر ١٩٩٧.
- النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى د/ زكى مبارك.
- النموذج الإنسانى فى أدب المقامة – د/ على عبـدالمنعم عبدالحميـد – سلسلة أدبيات– الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ١٩٩٤.

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
أولا: الشعر	
١ ـ لامية العرب للشنفرى	١١
٢ ـ بردة كعب بن زهير	٥٩
٣ ـ عينية أبي ذؤيب الهذلي	٩٧
ثانيا: النثر	
١ ـ خطبة حجة الوداع	١٥٥
٢ ـ فن المقامات	١٩٩
الفهرست	٢٣٢

* * *